

زكريّا تامل



نداء نوع

الأعمال
القصصية



RIAD EL - RAYES
BOOKS

رياض الريس للكتاب والنشر

نداء و نوح

زَكَرِيَّا تَامِرْ

نداء و نوح

THE COLLECTED SHORT STORIES

**NOAH'S
SUMMONS**

BY

ZAKARIA TAMER

First Edition Published in 1994

Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd

56 Knightsbridge

London SW1X 7NJ

UNITED KINGDOM

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-430-6

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by
any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: رشا السلطاني
لوحة الغلاف: محمود حماد

الطبعة الأولى: ١٩٩٤

٩	اليوم الأخير للوسواس الخناس
١٧	عبد الله بن المقفع الثالث
٢٧	القبائل
٣١	دمشق
٣٩	إعدام الموت
٥٥	كلب
٦٣	لا شيء
٧٥	الصفقة
٨١	المباراة
٩٩	الثاني
١٠٧	عنبرة النفط
١١٧	المغارة
١٢٣	يا سامع الدعاء
١٢٧	الخارجون من الكهف
١٤٧	آخر المرافئ
١٥٥	الخوف
١٥٩	الأطلال

١٦٧	الشمس منبوذة
١٧١	بيروت
١٧٩	السجن العربي
١٩١	نبوءة كافور الأخشيدي
٢٠١	الجالس والواقف
٢٠٧	من قتل الجنرال؟
٢١٥	يحكى عن عباس بن فرناس
٢٢١	ما أكثر الأرناب!
٢٣١	شهر يار وشهر زاد
٢٣٧	ليلة الطيش
٢٤١	بعيداً عن البيت
٢٦١	الثأر
٢٦٥	جرعة الماء
٢٧١	من الألف الى الياء
٢٧٩	يوم غضب جنكيز خان
٢٨٧	قال الملك لوزيره
٣٣٥	حكايات جحا الدمشقي
٣٧٩	رجال في الجنة
٣٨٥	حمزة

**اليوم الأخير
للموسواس الخناس**

اعتقل ابليس زهاء الساعة السابعة صباحاً
بينما كان يهتّم بركوب الباص المتجه الى
خارج المدينة حيث منطقة المعامل، وكان متنكراً آنذاك في
هيئة عامل فقير، متعب، زري الثياب، يده خشتان
متشققتان، ووجهه مملوء بالتجاعيد.

وقد حاول ابليس وهو في مخفر الشرطة أن يضلل
المحققين معه ويستدر عطفهم بالادعاء انه مجرد رجل
مسكين مسؤول عن إطعام أسرة كبيرة، ويشغل في أحد
المعامل، ولا يقلقه سوى تأخره عن الوصول في الوقت
المحدد لبدء العمل، وقدم وثائق تثبت انه حقاً عامل في
معمل، ولكن محاولته الخداع لم يكتب لها أي نصيب من
النجاح، فابليس قادر على كل شيء، والإقدام على تزوير
أخطر الوثائق بالنسبة اليه ليس سوى عبث أطفال.

وما إن صدر الأمر الى رجال الشرطة بإيقاف ابليس عن
التمادي في كذبه المفضوح المهين للأذكىاء حتى انقضوا
عليه فرحين بما سينالون من أجر وثواب، فالحسنات تمحو

السيئات، وصحائفهم ملأى بالسيئات، وكلهم راغب في محوها، وما ضرب ابليس إلا الحسنه الكبرى التي لا تعادلها أية حسنة أخرى.

وظل الضرب ينهال على ابليس قاسياً موجعاً حتى صاح مستغيثاً واعدأ بالصدق والامثال والطاعة ونبد المراءغة والخداع والغش، فتوقف آنئذ رجال الشرطة عن ضربه، وتكلم ابليس، وأقرّ بغير ضغط أو ارغام بصحة كل ما وجه اليه من تهم، واعترف بكل الجرائم المنسوبة اليه.

وأحيل ابليس الى المحكمة عملاً بالأنظمة والقوانين المرعية، وكان يوم محاكمته يوماً مشهوداً لا ينسى، فالقاضي كان رجلاً جليلاً ونزيهاً، لا يهمله إلا العدل والحق، ولا شيء غير العدل والحق، وقد أنصت لكثير من الشهود الذين تباروا في الإدلاء بشهاداتهم التي تفضح الجرائم النكراء التي كان ابليس سببها والمحرص عليها.

الشهادة الأولى: «لم أكن أرغب في القتل، ولكن إبليس لاحقني بعناد وإصرار، وزين لي أن القتل وسيلة رائعة للتخلص مما أكره وأبغض، وحضني على اعتبار من أريد ازهاق أرواحهم أشبه بخراف حلال ذبحها».

الشهادة الثانية: «عندما رأيته تسير في الشارع قلت انها امرأة جميلة مغرية، واكتفيت بمتابعتها والنظر اليها ببراءة وحسرة متمنياً لو انها كانت زوجتي، ولكن ابليس غضب، وسخر مني، واتهمني بالجن، ودفعني الى الانقضاض عليها واغتصابها علانية أمام عيون الناس كأنني حيوان ولست بإنسان يحمر وجهه حياة إذا نظر الى أمه».

الشهادة الثالثة: «ظللت طوال عمري محباً للمصدق، كارهاً للكذب، فتسلل ابليس الى رأسي باسلوب ما زلت أجهله، وأقام به، ولم يغادره إلا بعد أن صرت من أشهر الكذابين».

الشهادة الرابعة: «كنت أكره الأحزاب السياسية سواء أكانت علنية أم سرية، فجاء إليّ ابليس، والتصق بي، ولم يتركني إلا بعد أن انتسبت الى حزب سياسي معارض ومحظور».

الشهادة الخامسة: «كانت زوجة لأخي وقبيحة، يأنف الكلب من لمسها، وكنت أدرك انها زوجة أخي وقبيحة، فشرع ابليس في الوسوسة لي حتى جعلني أراها أجمل امرأة وأنسى أنها زوجة أخي، وأتسلل الى فراشها كلما كان أخي خارج البيت».

الشهادة السادسة: «كنت سجاناً أعذب الناس وأتعذب، ولكن ابليس هاجم قلبي، فصرت أعذب الناس وأنا أضحك مسروراً، وصار الناس يتعذبون وحدهم».

الشهادة السابعة: «كنت قانعاً بأنني ولدت فقيراً، وأعيش فقيراً، وسأموت فقيراً، ولكن ابليس ظل يغويني حتى ضعفت وصرت أحسد من هم ليسوا بفقراء وأمفتهم وأحقد عليهم وأتمنى أن يموتوا كلهم أجمعون».

الشهادة الثامنة: «كنت دائماً امرأة مطيعة لزوجها، أموت إذا طلب إليّ أن أموت، فسخر ابليس مني حتى

تحولت امرأة مرفوعة الرأس، متعجرفة، تزعم ان لها كيانها المستقل وقرارها الشخصي».

الشهادة التاسعة: «اشتهرت أسرتي منذ أن وجدت باحترام كل حكومة وتأيدها في السراء والضراء، ولكني كنت مختلفاً، أنتقد كل الحكومات، أنتقدها في الليل والنهار، أنتقدها وأنا قاعد وأنا واقف وأنا ماش، وأنتقدها وأنا نائم، ولا أحد مسؤول سوى ابليس القبيح الفعال».

الشهادة العاشرة: «كانت زوجتي تحبني وتعاملني كأن كل الرجال ماتوا وأنا الرجل الوحيد الحي المتبقي على وجه الأرض، فغار ابليس مني، وتدخل في حياتنا، وأغوى زوجتي بأن تعشق سائق سيارتي. وعندما اكتشفت علاقتها به طلبت اليها أن تختار بيننا، فقالت لي بوقاحة لا سبب لها سوى ابليس: أتخيرني بين حمار وغزال؟ وتركتني لتعيش مع سائق سيارتي في غرفة ايجارها في الشهر أقل من ثمن سيجار واحد من النوع الذي اعتدت تدخينه».

الشهادة الحادية عشرة: «يسخر مني كل الناس الذين أعرفهم، ويقولون عليّ إني ذليل لم يرفع رأسه يوماً، ويتناسون المذنب الحقيقي الذي هو ابليس. وما ذنب التلميذ إذا كان معلمه قد لقنه معلومات مخطئة ومضللة؟».

الشهادة الثانية عشرة: «كنت أجنّ إذا رأيت عصفوراً ينقر تفاحة على شجرة من دون أن يستأذن صاحبها، وأعتبر فعلته سرقة يجب أن يعاقب مرتكبها أقسى عقاب، ولكن ابليس نجح في تغيير طباعتي، وأصبحت أسرق النهر حالماً بيوم أسرق فيه البحر».

الشهادة الثالثة عشرة: «كنت منذ صغري أكره النفاق والمنافقين حتى أنني لحظة ولدتني أمي وسمعت القابلة تهنئها وتقول لها انها أنجبت أجمل صبي، صحت بها مؤنباً وقلت لها: بلا نفاق! قللي لها انها أنجبت أقبح صبي. هكذا كنت دائماً العدو الأول للنفاق، ولكن ابليس احتلني في يوم مشؤوم، وحولني منافقاً مختصاً بالنفاق للخسيس والحقير والوضيع والجبان والنذل».

الشهادة الرابعة عشرة: «أستطيع ذكر أسماء ألف شخص وأكثر، وهم مستعدون للشهادة بأنني كنت تقياً ورعاً، أعبد الله وأطيعه. وما إن دهمني ابليس حتى صرت ملحداً فاجراً داعراً».

الشهادة الخامسة عشرة: «أنا لا أحب سوى شرب الماء، وابليس شرح لي بأسلوب بليغ الفوائد الصحية لشرب الخمرة، وكنت شاباً ساذجاً، فصدقته، وأدمنتها، ولم يعد ما يجري في عروقي يصلح لأن يوصف بأنه دماء».

الشهادة السادسة عشرة: «التقيت بابليس في أحد الأيام، وكان متكرراً في صورة طفل رجاني أن أمسك يده حتى يعبر الشارع من رصيف الى رصيف، ولا أدري ما الذي حل بي، فصرت منذ تلك اللحظة أكره كل طفل حتى لو كان طفلي الأوحده الذي لن يكون لي غيره طوال عمري».

ولما تبين للقاضي الجرائم المروعة التي ارتكبها ابليس، أمره بالسجود، فبادر ابليس الى الإطاعة متوهماً أن سجوده

سيكفلي له النجاة، ولكن القاضي تكلم بصوت مرتعش
مصدراً حكمه بإعدامه.

ولم يعرف أحد كيف أعدم ابليس. بعضهم قال انه
شنق ذات فجر، وبعضهم قال انه أحرق وذّر رماد جثته
فوق البحر، وبعضهم قال انه قطع بالسكين قطعاً صغيرة
ودفن في مكان مجهول، وبعضهم قال انه قد أطلقت عليه
مئات العيارات النارية من البنادق حتى غدا جسمه أشبه
بالغربال، وتعددت الروايات واختلفت، ولم يتفق اثنان على
رواية واحدة، ولكن الشر لم يعد له أي وجود على
الأرض، وكفّ الناس عن ارتكاب الذنوب والآثام، ونبتت
في ظهورهم أجنحة بيضاء اللون حيّرت الأطباء والعلماء.

**عبد الله
ابن المقفع الثالث**

في قديم الزمان، قال معلم لتلاميذه: «من هو أبو جعفر المنصور؟».

قال التلميذ الأول: «انه مولانا وسيدنا وملكنا».

قال التلميذ الثاني: «انه محب للعدل والمرح».

قال التلميذ الثالث: «ولم يشاهده أحد عابس الوجه».

قال التلميذ الرابع: «ويخشاه الأعداء فلا تستطيع أي سحابة تعبر سماء البلاد أن تمطر بلا إذن خطي منه».

وقال التلميذ الخامس: «ولا يستطيع أكثر الجياد شراسة وقوة وجوعاً أن يأكل ورقة صفراء من أوراق الأشجار إذا لم ينل الموافقة الملكية».

فابتهج المعلم، وتشاءب، وقال لتلاميذه: «أحسنتم فقد برهنت أجوبتكم على انكم حفظتم كل ما رددته على مسامعكم طوال سنة».

ثم جاء يوم اعتقل فيه رجل في الشارع بينما كان يضرب قطعة، واقتيد تواليمثل بين يدي المنصور الذي ما أن

علم بفعلة الرجل حتى صاح به باستنكار: «ألا تعرف أن ما فعلته مخالف للقوانين؟ ألسنت انساناً؟ كيف تضرب قطعة ولماذا؟».

قال الرجل: «ضربني رجل لا أجرؤ على ضربه فضربت القطعة».

قال المنصور: «كان باستطاعتك أن تضرب حماراً خاصة وأن ضرب الحمير ليس ممنوعاً».

قال الرجل: «قد يرفس الحمار ويعضّ وينهق».

فضحك المنصور، وقال: «من المؤكد أنك رجل غريب الأطوار مسل، فمن أنت؟».

قال الرجل: «اسمي عبد الله بن المقفع».

قال المنصور: «وماذا تشتغل؟».

قال ابن المقفع: «أؤلف كتباً».

فتزايد مرح المنصور، وقال متسائلاً بفضول: «وهل تروي في كتبك حكايات عن العشاق وآلامهم؟».

قال ابن المقفع بزهو: «لا لا. أنا أؤلف كتباً مملوءة بالحكم التي تحضّ الانسان على التفكير».

عندئذ، صاح وزير من وزراء المنصور قائلاً لابن المقفع بحنق: «ماذا تقول؟ أتعترف بغير حياء أنك تحرض الناس على التفكير؟».

قال ابن المقفع: «هذه تهمة أتمنى أن تكون حقيقية، وأتوق الى أن أكون جديراً بها».

قال المنصور لوزيره: «ما بك؟ لماذا تريد التشاجر معه؟ هل قال ما يدعو الى أن تثور وتغضب؟».

فأشار الوزير بسبابة مرتجفة نحو ابن المقفع، وقال: «هذا رجل معاد للدولة، وخطر، ويجب...».

فقاطعه المنصور قائلاً: «وأين خطره؟! انه مجرد رجل مسكين حياته ملأى بالأوراق والأقلام والمداد».

قال الوزير: «ما هو عمل الحاكم الصالح؟ أليس عمله التفكير بدلاً من الناس الذين يحكمهم؟ إذا تعود الناس التفكير وحدهم، فلن يحتاجوا الى حكاهم».

فابتسم المنصور، وقال: «ولن يحتاجوا أيضاً الى وزرائهم».

ثم التفت نحو ابن المقفع، وقال له: «ما رأيك فيما قاله وزيرى؟».

قال ابن المقفع: «الانسان الذي لا يفكر أقل منزلة من الحيوان».

فقال الوزير للمنصور: «أسمعت ما قاله يا مولاي؟ ها هو ذا يهين الشعب.. شعبك».

وقال وزير ثان: «انه عدو للشعب، ويجب أن يعاقب».

وقال وزير ثالث لابن المقفع بلهجة موبخة: «ألا تخجل مما تفوهت به؟ إذا كان الشعب مجموعة من الحيوانات، فهذا معناه أن مولانا ملك الحيوانات».

وعمَّ الضجيج، فظل ابن المقفع واقفاً مشدود القامة، صارم النظرات، ولكن يد المنصور ما إن تحركت حركة

معينة حتى ساد صمت عميق. وحينئذ قال المنصور لابن المقفع: «أنا من المؤمنين بطلب العلم من المهد الى اللحد، فها تكلم وأخبرني كيف تؤلف كتبك التي تزعم انها قادرة على تحريض الناس على التفكير».

فوضع ابن المقفع يده على رأسه ثم على قلبه، وقال: «أعتمد على هذين».

فقال المنصور: «اسمع يا ابن المقفع، أستطيع في لحظات قطع رأسك وانتزاع قلبك وجعله طعاماً للكلاب، ولكني سأبرهن على أن الكتب التي ستقول في المستقبل إنني أعدمتك حرقاً هي كاذبة، وسأمر بالتعاقد معك للعمل لدي طوال حياتك براتب شهري يفوق راتب وزيرى الأول».

قال ابن المقفع: «وماذا سيكون عملي؟».

قال المنصور: «ما هذا السؤال الغبي؟ أنت راقصة أم كاتب؟! ما دمت كاتباً فعملك سيكون كتابة رسائل الى ولايتي. أما إذا استطعت خارج أوقات العمل تأليف كتاب عن جهودى لإسعاد الناس الذين أحكمهم فسأمنحك من الذهب ما يعادل وزن كتابك. ما رأيك؟ هل أنت موافق؟».

فهم ابن المقفع بالكلام، ولكن المنصور قال له: «لا داعي الى أي كلام، فوجهك نطق الجواب، فها اذهب الآن واستعد لتسلم عملك».

فهرع ابن المقفع نحو بيته بخطى مسرعة وهو يشعر انه نسر من فولاذ يحلق فوق مدن ترتجف خائفة من أن ينقض

عليها، ولكنه ما إن استلقى على فراشه وأغمض عينيه حتى هرب فرحه، وخضع لكآبة غامضة، وأحس انه سجين في غرفة بلا باب ونوافذ، ومكتظة برجال كثيرين، فقال لهم بصوت خافت متهدج: «من أنتم؟».

فصاح الرجال بصوت واحد: «نحن ابن المقفع». ثم ابتدأوا يتكلمون، فأنصت ابن المقفع لأقوالهم بذعر ودهشة.

قال ابن المقفع الأول: «أنا الآن موظف ذو سطوة ونفوذ وجاه».

قال ابن المقفع الثاني: «أنا الآن حذاء لقدمين ملطختين بدماء الأطفال والعصافير والأزهار».

قال ابن المقفع الثالث: «ما دامت الكلمة لا تقتل عدواً، فلماذا لا تتحول شبكة تصيد أسماكاً من ذهب وفضة؟».

قال ابن المقفع الرابع: «الكلمة لا تقتل عدواً، ولكنها ترشد اليه، وتخلق الرغبة في قتله».

قال ابن المقفع الخامس: «الكلمة وردة، والوردة ليست بالسيف».

قال ابن المقفع السادس: «سأهرب الى آخر الدنيا وأسكر باستمرار، وأظل أترنج عبر الأرض حافي القدمين حتى أموت».

قال ابن المقفع السابع: «سأكتب حكاية تقول ان فقيراً قصد حكيماً يسكن في قمة جبل، وقال له: قد تكون غير عالم بما جرى في بلادنا. الجنود ثاروا على الملك الظالم».

وعندما شنقوه فرحت، ولكن فرحي كان قصير العمر لأن كل جندي من الجنود صار ملكاً يسلب وينهب ويبطش، فماذا أفعل أنا الفقير الجائع؟ فقال له الحكيم بلهجة مزدرية أمرة: احمل السلاح. فقال الفقير: هل أحمل السلاح ثائراً أم أحمل السلاح لأصير واحداً من الجنود أو من أنصارهم؟ فلم يجب الحكيم، وبدا كمن تحول بغتة صخرة لا تسمع ولا تنطق، فاضطر الفقير الى العودة الى بيته محتاراً، ولكن جوعه وذله أرغماه على حمل السلاح.

فتصايح الرجال بأصوات نرقة ساخرة:

«حكاية تافهة».

«لا معنى لها».

«ولا تعالج قضية انسانية مصيرية».

«ولا يفهمها بسطاء الناس».

فأطلق ابن المقفع المستلقي على فراشه صرخة استغاثة بينما كان أبو جعفر المنصور آنذاك يحدق الى وزرائه بنظرات هازئة، ويقول لهم: «أرى انكم ما زلتم حانقين على ابن المقفع؟».

قال أحد الوزراء: «انه رجل خطر، فقد يؤلف كتاباً يمدحك فيه، ولكنه سيستمر في الوقت نفسه في تأليف كتب أخرى تحرض الناس على التفكير».

فتجههم وجه المنصور، وقال بصوت صارم: «أنتم لا تستحقون أن تكونوا وزرائي لأنكم مجموعة من الحمقى».

الجائع لا يفكر. وإذا فكر سيفكر في الحصول على قوته اليومي فقط».

قال الوزير: «ولكنه إذا لم يحصل على قوته وظل جائعاً فقد يفكر في القضاء على حكم مولانا».

قال المنصور: «من يرغب في التفكير، فليفكر كما يحلو له. التفكير ليس ممنوعاً ما دام السيف أقوى، وأنا الذي يملك السيف».

فصمت الوزراء معجبين بحكمته، ولكن رأي الأحفاد في جدهم أبي جعفر المنصور كان مختلفاً.

القبائل

طالبنا الليل أن يبقى ظلامه حالك السواد،
وزحفنا على الرمال نحو خيامهم، وكنا
متفقين على ألا يصدر أي صوت عنا إلا لحظة تتلطح
سيوفنا بدمائهم، ولكن واحداً منا امتلكه الزهو، فأطلق
صيحة مديدة، فابتدأت نساؤهم بالخروج من الخيام
مذعورات، وتجمعن، وتلاصقن كأنهن يرغبن في أن
يصبحن جسداً واحداً، وتهامسن، ثم بدأن يخلعن ثيابهن،
ووقفن عاريات قبالة سيوفنا المشهرة قائلات: «العار خير من
الموت».

فدخلنا الخيام، فإذا الرجال في نوم عميق، وبدوا لعيوننا
كالمتى، فقطعنا رؤوسهم، وغادرنا الخيام، وأخذنا ثياب
النساء، وعدنا الى قبيلتنا متعبين، راغبين في النوم، فقاومنا
هذه الرغبة، ولكننا أخيراً سقطنا أرضاً، وأغمضنا عيوننا،
واستسلمنا للنوم، فاقترح رجال قبيلة أخرى خيامنا، وقطعوا
رؤوسنا، ولم تستطع نساؤنا انقاذنا.

دمشق

في قديم الزمان، كان يحيا رجل معوز ذو وجه يشبه أرضاً لم يهطل فوقها مطر منذ أعوام كثيرة، وقد قال يوماً للبحر بصوت متهدج حزين: «كأنك أمرت أسماكك بالاختفاء، فأنا ألقى شباكي في مياهك طوال أسبوع وأسحبها خاوية».

فقال البحر له: «إذا أردت الحصول [على أسماكي، فينبغي لك أن تدفع لي ثمنها أولاً».

فبهت الرجل، فقال البحر له متسائلاً بسخرية: «لماذا لا تجاوب؟».

قال الرجل: «لم أجاوب لأنك أدهشتني، فهذه أول مرة أسمع بحراً يتكلم كما يتكلم البشر».

قال البحر: «حين يتعلق الأمر بالمال، فأنا أتكلم وبشتى اللغات».

قال الرجل متوسلاً: «أنا كما تعلم رجل فقير ولا أملك أي مال، وطعامي أحصل عليه بصعوبة بعد أن أبيع ما أصيده من سمك».

قال البحر: «لا يعني أن تكون فقيراً أو غنياً. إذا لم تدفع، فلن تنل إلا مائي المالح».

فقال الرجل للبحر بلهجة عتاب: «أهكذا تعامل أصدقاءك؟ ألم أكن دائماً صديقك الذي يحبك؟ أنسيت أنني هجرت أهلي وبلدي من أجلك وجئت للعيش على شاطئك؟ أيرضيك أن يجوع صديقك ويذل؟».

فلم يأبه البحر له، وظل مصراً على عدم منحه أي سمكة، فلم يحتمل الرجل الجوع، واضطر إلى الرحيل بعيداً عن البحر أسفاً غاضباً، وسار أياماً في أرض لم يقابل فيها أي مخلوق حي، وفجأة لمح سيفاً عتيقاً ملقى على الأرض، فانحنى، وأمسكه، وتأمله، فألفاه صدئاً ملطخاً بالأوساخ، فقال لنفسه: «أنا أحتاج إلى طعام لا إلى سيف. وإذا كنت سعيد الحظ وجدت من يشتريه بثمن معقول».

وشرع في تنظيف السيف، فبلغ سمعه صوت يقول: «اطلب تعط».

فتطلع الرجل فيما حوله، فلم يبصر أحداً، واستأنف تنظيفه للسيف. وبعد لحظات سمع الصوت نفسه يقول وقد ازداد قرباً: «أأنت أصم؟ ألم تسمع ما قلته لك؟ قلت: أطلب تعط، فلماذا لا تطلب؟».

قال الرجل متسائلاً بخوف: «من المتكلم؟».

قال الصوت: «أنا الذي يتكلم».

قال الرجل: «وأين أنت؟».

قال الصوت: «أنا أقف قريباً منك، ولكنك لن تستطيع أن تراني».

قال الرجل وقد ترايد خوفه: «ومن أنت وماذا تريد مني؟».

قال الصوت: «أنا خادم هذا السيف الذي تمسكه الآن بيدك، وما دمت قد صرت مالكاً له، فيحق لك أن تطلب أمنية واحدة فقط، وحين أنفذها تعود إليّ حرיתי، فلا أراك ولا تسمع صوتي ثانية».

قال الرجل بحيرة: «هل أفهم من كلامك انك ستحقق لي كل ما أطلبه؟».

قال الصوت: «سأحقق لك مطلباً واحداً فقط، فهيا اطلب ما تشاء».

فقعده الرجل على الأرض، وغرق في التفكير مدة طويلة، فقال له الصوت متذمراً: «هل نمت؟».

قال الرجل: «اسمع. أريد أن تبني لي مدينة».

قال الصوت: «وكيف تريدها؟ وما أوصافها؟».

فعاد الرجل الى التفكير، فقال الصوت بعد لحظات بلهجة هازئة: «ما رأيك؟ سأنام ساعتين أو أكثر ثم أرجع اليك».

قال الرجل: «أريد أن تبني لي مدينة بلا بحر».

قال الصوت: «ما تطلبه سيقلل من تعبتي، فالبناء على الرمال ليس كالبناء على التراب».

قال الرجل بحماسة: «وأريدها أن تكون أجمل مدينة».

قال الصوت: «ستكون أجمل مدينة، ومن يرها مرة يعشقها ولا يستطيع نسيانها حتى ولو جال الأرض كلها».

قال الرجل: «وإذا أتاها الغريب زائراً أو ضيفاً أحس انه حلّ بالبلد الذي ولد فيه، أما إذا أتاها عدواً وغازياً فانه يشعر انها أرض زلازل وبراكين غاضبة. وأريدها أيضاً أن تكون ذات أسوار منيعة وأبواب لا تفتح إلا من الداخل».

قال الصوت بلهجة من يتمطى ويتشاءب: «أغمض عينيك لحظات ثم افتحهما لتجد انك نلت ما تبغيه».

فأغمض الرجل عينيه مرهفاً السمع، فإذا الصمت يسود فيما حوله، واقتنع انه خدع وهزىء به من قبل قوى غير مرئية، فقال لنفسه بحزن: «هكذا تعامل الدنيا الفقراء».

واستند بظهره الى جذع شجرة قانطاً، ولم يحاول أن يفتح عينيه، ولكنه سمع فجأة الصوت يقول له بسخرية لا تخلو من تأنيب: «إذا نمت الآن في النهار، فلن تستطيع النوم في الليل. افتح عينيك».

ففتح الرجل عينيه، فبوغت بأنه جالس على أرض ساحة في مدينة ذات أزقة ضيقة وبيوت متلاصقة باللفة، فوثب واقفاً يغمره الفرح والدهشة، وشرع يجول في أرجاء المدينة مستطلعاً، فرأى انها ذات سبعة أنهار، وتطوقها أسوار حصينة ذات سبعة أبواب، ورأى المدينة كأنها مخلوق يستند بظهره الى جبل بينما تمتد أمامه حقول خضر فسيحة

مكتظة بالشجر، فقال لنفسه: «مدينة مثل هذه المدينة الجميلة تحتاج الى اسم يليق بها».

وفكر الرجل طويلاً في اسم مناسب، فلم يوفق، ووجد في ذهنه كلمات مبعثرة هي الدم، الدمار، الموسيقى، المسرات، المطر، القمر، الشمس، الشراصة، فجمع بعضاً من حروفها الأولى، ودمجها معاً صانعاً منها اسماً لمدينته، فكان الاسم: دمشق.

ولم يعيش الرجل وحيداً في دمشق إنما توافد إليها أناس كثيرون، ونصبوه ملكاً عليهم، ولما مات توارث الملك أبنائه وأحفاده، فكان بعضهم ربيعاً، وبعضهم ناراً.

إعدام الموت

كان لهارون الرشيد ابنان، واحد اسمه الأمين، والثاني اسمه المأمون. وكان يحب الناس الذين يحكمهم كما يحب ابنه المأمون الذي كان عمره لا يتجاوز الأربع سنوات.

وكان المأمون حين يقول: بابا، يطغى على هارون الرشيد حنان يجعله غير قادر على النطق بكلمة.

وفي يوم من الأيام، كان هارون الرشيد جالساً في حديقة قصره، يتمتع بمشاهدة المأمون وهو يلعب ويلهو راكضاً من مكان الى مكان، متوثباً، مطلقاً الضحكات المرحّة، فتنبه بغتة الى أن ابنه قعد على الأرض ثم مال الى الوراء بحركة فجائية كأن يداً غير مرئية دفعته بقوة، وأرغمته على الاستلقاء على ظهره بلا حركة.

ظل هارون الرشيد يراقب مبتهجاً ابنه الذي استمر راقداً على الأرض دونما أي حركة، فناداه، فلم يسمع جواباً، فنهض وهو يتسّم مصمماً على مسامرة ابنه في لعبته الجديدة، ودنا منه، وألقى قربه، فوجدته مغمض العينين،

شاحب الوجه، فقلقى لحظة خاطفة ما لبثت أن زالت ليحل محلها الاقتناع بأن المأمون كعادته محب لابتكار الجديد من الألعاب، فمد يده اليه وهزه، فإذا المأمون كثوب بلا جسم، فصرخ مرتاعاً، طالباً الأطباء.

وجاء الأطباء، وفحصوا المأمون مدة قصيرة، ثم ابتعدوا عنه واجمين، خافضي الرؤوس، متجهمي الوجوه، ولم يجرؤ واحد منهم على النظر الى هارون الرشيد.

حدق هارون الرشيد طويلاً الى جثة المأمون الملقاة على الأرض، ثم سار الى داخل قصره بخطى وثيدة، وجلس على كرسیه، فولول من ولول، وبكى من بكى، وتقدم كثيرون من هارون الرشيد متممين بكلمات العزاء، ولكنه ظل صارم الوجه واجماً لا يتفوه بكلمة أو يذرف دمعاً حتى غاب الجسد الصغير تحت التراب. عندئذ تكلم، وقال لوزيره جعفر البرمكي: «أين قائد جيوشي؟».

قال قائد الجيوش: «هأنذا يا مولاي».

فحملق اليه طويلاً كأنه يراه أول مرة، ثم سأله: «من أنت وماذا تشغل؟».

:- «أنا قائد جيوش مولاي وسيفه البتار».

:- «وما عملك؟».

:- «أن أحمي البلاد من الأعداء».

:- «أن تحمي البلاد أم الناس الذين يعيشون في البلاد؟».

قال قائد الجيوش بثقة: «البلاد والناس معاً».

فقال هارون الرشيد له متسائلاً من غير أي انفعال: «إذاً لماذا لم تحم ابني المأمون؟».

فاستولى رعب غامض على قائد الجيوش، وساد الصمت لحظات مرت كأنها سنوات، ثم قال هارون الرشيد بصوت قاسٍ: «لا بد من انك خائن تنفذ مشيئة الأعداء».

حاول قائد الجيوش التكلم، فلم يستطع، واكتفى بالتمتمة بكلام مبهم بينما قال هارون الرشيد: «أليس من مصلحة الأعداء أن يموت ابني الذي كان سيصبح وريثاً على البلاد من بعدي؟».

فقال جعفر البرمكي: «الخير في ابنك الأمين، أطال الله عمره».

فصاح هارون الرشيد بنزق: «أنا لا أتحدث عن الأمين بل أتحدث عن المأمون الميت».

ونظر الى قائد جيوشه نظرات غاضبة، وقال له: «لن أمر بإعدامك أو سجنك طول الحياة بل سأنفذ بك عقوبة أشد لأنني أعرف طباعك. أنت منذ هذه اللحظة معزول من منصبك».

وحدد هارون الرشيد الى من يحيط به من وزراء وحراس وجند وندمان وشعراء وأتباع، فلمح رجلاً واقفاً غير آبه لما يجري حوله، فصاح به: «اقترب مني يا أبا نواس».

فدنا أبو نواس من هارون الرشيد مترنح الخطى، فسأله هارون الرشيد: «أأنت سكران كعادتك؟».

قال أبو نواس: «لا لا. أنا مصاب بزكام حاد سببه برد شديد، وهو الذي يجعلني لا أقوى على السير».

فقال جعفر البرمكي مدهوشاً: «أبرد شديد في عز الصيف؟».

وقال هارون الرشيد لأبي نواس: «هل سبق لك أن اشتغلت في مهنة غير نظم الشعر؟».

قال أبو نواس: «من المفروض أن تكون كتب التاريخ مملوءة بتمجيد المعارك التي انتصرت فيها الجيوش بفضل قيادتي لها، ولكن المؤرخين تعمدوا إغفال ذكرى لأنني هجوتهم».

قال هارون الرشيد: «ترى أتليق بك ثياب قائد الجيوش وهل ستبدو بها ذا مهابة جدرة بقائد جيوشي؟».

وأشار هارون الرشيد إلى قائد جيوشه قائلاً له: «اخلع ثيابك».

فتردد قائد الجيوش، فزقق هارون الرشيد غاضباً، فسارع قائد الجيوش إلى خلع ثيابه محتفظاً بشيابه الداخلية فقط، فقال هارون الرشيد لأبي نواس: «ارتد هذه الثياب».

فقال أبو نواس بلهجة متذمرة: «يجب أن أكون قائداً للجيوش من الداخل والخارج».

قال هارون الرشيد: «ماذا تقصد؟».

فقال أبو نواس مشيراً إلى الثياب الداخلية لقائد الجيوش

المعزول: «هل من المعقول أن أرتدي الثياب الخارجية لقائد جيوش فوق ثياب داخلية لشاعر؟ المسؤولية ليست مسؤوليتي إن بدا منظري غير لائق».

فأمر هارون الرشيد قائد جيوشه السابق بخلع ثيابه الداخلية، وكان صوته صارماً صرامة كانت كافية لأن تجعل قائد الجيوش يبادر إلى تنفيذ الأمر فوراً، ثم يقف منكس الرأس، فقال له هارون الرشيد: «هيا اذهب إلى بيتك وابق فيه ولا تخرج منه إلا في نعل».

ارتدى أبو نواس ثياب قائد الجيوش، ثم وقف أمام هارون الرشيد مشدود القامة، وسأله مزهواً: «ما رأي مولاي؟».

فتفحصه هارون الرشيد ملياً، فرأى رجلاً جديداً ذا جلال، فhez رأسه راضياً مستحسناً، وقال له: «لقد عينتك قائداً لجيوشي».

فقال الوزير جعفر البرمكي: «ولكن المنظر وحده يا مولاي لا يكفي للانتصار في المعارك الحربية».

قال هارون الرشيد: «ما تقوله صحيح، ولذلك فإنني يا أبا نواس أعطيك مهلة سبعة أيام لتضع فيها خطة لجعل جيوشي أقوى جيوش في العالم ولا يمكن هزيمتها».

قال أبو نواس: «لا أريد أي مهلة، والخطة المطلوبة لدي الآن جاهزة لعرضها ولتحظى بموافقة مولاي».

فابتسم جعفر البرمكي بهزء بينما قال هارون الرشيد لأبي نواس: «وما خطتك؟».

قال أبو نواس: «خطّتي تتضمن عدة اقتراحات. أول اقتراح هو تأليف فرقة من الراقصات الشابات الجميلات البارعات، وضمت تلك الفرقة الى الجيش».

قال هارون الرشيد مستنكراً: «ماذا تقول؟ راقصات في الجيش؟».

قال أبو نواس: «أنا أعترف بأن هذا الاقتراح قد يبدو أول وهلة غريباً، ولكننا إذا درسناه كشفنا فوائده».

قال جعفر البرمكي ساخراً: «وفوائده حتماً كثيرة لا تحصى».

قال أبو نواس: «من البديهي أن وجود راقصات بين الجنود سيثبّع المرح، ويرفع من معنوياتهم، وإذا ارتفعت معنوياتهم قاتلوا بشجاعة وبسالة، كما أن فرقة الراقصات ستكون عنصر مباحة للعدو في أي معركة. تخيل يا مولاي معركة من المعارك: جيش العدو يتأهب لقتالنا، فينفخ في الأبواق، وتقرع الطبول معلنة بدء المعركة، فتتقدم أولاً وفي الطليعة فرقة الراقصات وهي ترقص. ما الذي سيحدث في تلك اللحظات؟ لا بد من أن جيش العدو سيرتبك ويباغث ويحملق الى الراقصات مبهوراً غير مصدق ما يرى، ولا يدري كيف يتصرف، فيستغل جيشنا هذا الوضع، ويهجم بهجمة رجل واحد على جيش العدو المضطرب الصفوف، فيحرز النصر سهلاً مؤكداً».

قال هارون الرشيد: «اقتراحك غريب حقاً».

قال أبو نواس متحمساً: «ولدي أيضاً من الاقتراحات الكثير الكثير».

قال هارون الرشيد: «ها احك عنها».

قال أبو نواس: «سنؤلف فرقاً من الدجاج».

فقال جعفر البرمكي: «وهل تريد من الدجاج أن يقاتل أيضاً في صفوف الجيش؟».

قال أبو نواس: «لا لا. ستكون مهمة الدجاج هي متابعة أداء مهمته التي اعتاد دائماً أدائها، وهي أن يبيض البيض».

قال هارون الرشيد: «وماذا سيستفيد الجيش من البيض؟ هل سيستخدمه في طعامه لتقوية أجسام جنوده؟».

قال أبو نواس: «لا بل سيستخدم كسلاح. تخيل يا مولاي جندياً من جيش العدو وقد أصابته بيضة في وجهه. ماذا سيفعل؟ انه بالتأكيد سيركض مشتمراً لغسل وجهه، فينقص جيش العدو واحداً، فإذا انهال على جنود العدو يبيض لا يحصى عدده، فالنتيجة معروفة، وسيكون سلاحاً يباغت الأعداء ويثير في صفوفهم الفوضى إذ لم يستعدوا لمواجهة مثله».

قال هارون الرشيد: «وهل لديك اقتراحات أخرى؟».

قال أبو نواس: «أهم اقتراح لدي هو تجنيد الموتى في الجيش بدلاً من أن يقيموا بقبورهم بلا عمل ينفع بلدهم. انهم سيكونون فرقة مقاتلة غير مرئية، ودورها في المعارك بالغ الخطورة، فالعدو سيحارب خصماً لا يراه ولا يموت لأنه ميت. وهذه الفرقة لن تكلف خزائن مولاي نفقات

كثيرة لأن أفرادها لا يأكلون ولا يرتدون ثياباً، وسنكتفي بإعطائهم أحياناً مكافآت رمزية، وسأتولى بنفسى توزيعها عليهم تكريماً لهم».

قال هارون الرشيد: «عليك الشروع فوراً فى تنفيذ اقتراحاتك. ما أريده هو أن تصبح جيوشى قادرة على احتلال العالم كله».

فقال أبو نواس: «وستصبح يا مولاي سيداً على العالم كله».

ففكر هارون الرشيد لحظات مغموماً، ثم قال: «والموت الذى أهلك ابنى؟ هل سيظل بلا عقاب؟ من ذا الذى سيعيد ابنى الى الحياة؟».

قال أبو نواس: «لكل مهمته، ومهمتى كقائد لجيوش مولاي هى أن أطارد الموت فى كل مكان حتى أقبض عليه وينال جزاءه».

قال هارون الرشيد: «أعطيك مهلة ستة أيام ليمثل الموت أمامى وأعاقبه العقاب الذى يستحقه».

قال أبو نواس بصوت حزين: «فليأمر مولاي سيفه بقطع رأسى».

:- «لماذا؟».

:- «لأنى لا أستطيع تلبية ما طلبت إلا فى ستة أيام وساعتين».

:- «إنى أمدد المهلة الى ستة أيام وثلاث ساعات».

فصاح أبو نواس بصوت مقعم بالفرح: «هذا كرم لم

أكن أحلم بنيل مثله، فقد منحني ساعة أكثر مما أحتاج إليه وبرهنت حقاً على أنك خير من يقدر المهمات الجسام».

قال هارون الرشيد: «ومن ذا الذي سيعيد ابني الى الحياة؟».

فأشار أبو نواس بسبابته الى جعفر البرمكي قائلاً: «هذه المهمة مهمته، وكان دائماً يسخر مني ويتهمني بأني أضيع وقتك وأبدده، وقد جاء الآن الوقت ليبرهن على إخلاصه لمولاه بالعمل لا بالكلام».

قال هارون الرشيد لجعفر البرمكي: «ألم تسمع ما قيل؟ لماذا لا تجاوب؟».

قال جعفر البرمكي: «يا مولاي. ما سمعته ليس إلا كلام شاعر فاسق مهذار مهرج».

فقاطعه هارون الرشيد قائلاً بغیظ: «أنسيت أني عينته قائداً لجيوشي أم أنك لم تسمع أمري؟ ما قيل ليس كلام مهرج بل كلام قائد جيوشي».

قال جعفر البرمكي: «وما المطلوب مني؟».

قال هارون الرشيد: «أنت تحاول تجاهل ما هو مطلوب منك، ولكن هذا التجاهل لن يعفيك من مهمتك، وهي إعادة ابني الى الحياة».

قال جعفر البرمكي فرعاً متوسلاً: «هل سمعت يا مولاي أن انساناً مات ثم عاد الى الحياة؟».

قال هارون الرشيد بحنق: «يبدو أنك تنوي أن تجري لي

امتحاناً لمعرفة ما سمعت به وما لم أسمع به. أنسيت من أنا؟ أنا لست تلميذاً في مدرسة، وأريد أن يعود ابني حياً.

:- «هذا أمر لا يستطيع أيّ انسان القيام به».

فقال أبو نواس: «أياذن لي مولاي بالكلام؟».

:- «تكلم إذا كان كلامك يساعد في عودة ابني الى الحياة».

قال أبو نواس: «ما دام جعفر البرمكي يعترف بعجزه، فهذا أمر عادي لأنه حي، أما إذا مات، فسيحتاج له عندئذ مقابلة ابنك ومعرفة الأسلوب الذي يمكن عن طريقه أن يعود الى الحياة».

قال هارون الرشيد: «ما تقوله هو الصواب، ولكن لضمان نجاح هذه المهمة يجب أن نختار لها أفضل رجالي».

وفكر قليلاً، ثم قال لوزرائه: «أنتم بلا شك خير رجالي، وستؤلفون وفداً، وتذهبون لمقابلة ابني ومعرفة طريقة اعادته الى الحياة، أما جعفر البرمكي، فلن يرافقكم لأنه أثبت انه غير مخلص لي، وقد يرتكب ما يفسد مهمتكم، ولن يموت كما ستموتون بل سيبقى للعناية بخيولي».

فتبادل الوزراء نظرات الدهشة والرعب، ولكن تبادلهم النظرات لم يستمر إذ أصدر هارون الرشيد أوامره الى سيفاه، فتدحرجت رؤوسهم على الأرض، ثم التفت الى جعفر البرمكي، وقال له: «هيا اذهب وياشر عملك الجديد».

علم خيولي كيف تكف عن تحريك ذيولها حتى تصبح مختلفة عن الخيول الأخرى».

فحنى جعفر البرمكي رأسه معلناً خضوعه وطاعته، وهرول خارجاً.

ونام هارون الرشيد في تلك الليلة نوماً عميقاً، ورأى في أثناء نومه ابنه الصغير في سهل مغطى بالعشب الأخضر، يضحك ويركض لاهياً، ورأى وزراءه يقتربون منه بلا رؤوس، ويحملونه، ويسيرون بخطى متمهلة، فصاح بهم بلهجة آمرة: أسرعوا، فأنا مشتاق الى ابني، مشتاق الى ضحكته، الى صوته، الى يديه الصغيرتين لحظة تلمسان وجهي وتداعبان لحيتي، ولكن الوزراء لم يبالوا بصياحه الأمر، واستمروا في سيرهم المتباطيء، فغضب غضباً شديداً، وأفاق من نومه ليجد نفسه في سريره، فاستدعى أبا نواس، وروى له ما شاهده في أثناء نومه، فقال أبو نواس: «انهم لأنزال خانوا مولاهم، ومن الأفضل لمولاي ألا ينتظر رجوعهم».

قال هارون الرشيد بحيرة: «ماذا أفعل؟».

قال أبو نواس: «حين سيمثل الموت بين يدي مولاي ويقتله، فلا بد من أنه سيحس ببعض الراحة لأنه ثار من قاتل ابنه».

:- «اني لتواق الى تلك اللحظة».

:- «ليطمئن مولاي الى أن مقدم تلك اللحظة ليس

بالبعيد، فتحرّياتي عن الموت تحرز نجاحاً إثر نجاح، وسأعرف مكانه في أيام قليلة، وسأقتاده للمثول أمامك ذليلاً مهاناً». قال هارون الرشيد محذراً: «لا تنس المهلة التي أعطيتك إياها، فإذا انتهت، فستندم، ومصيرك معروف».

فابتسم أبو نواس ابتسامة واثقة، ثم انصرف ليعود في اليوم التالي مبتهجاً، يجرّ جنوده رجلاً ممزق الثياب، حافي القدمين، يسيل الدم من وجهه. :- «هذا خصمك يا مولاي».

:- «من هذا؟».

:- «هذا هو الموت الذي قتل ابنك».

فقال هارون الرشيد للرجل: «أنت الموت؟».

فقال الرجل بصوت متهدج: «أنا رجل مسكين».

فقاطعه أبو نواس مهدداً: «قل لمولانا الحقيقة وإلا عدت إلى التحقيق».

قال الرجل بذعر: «لا لا».

:- «قل أنك الموت».

وقال هارون الرشيد: «إياك وأن تكذب».

قال الرجل بصوت خافت: «أنا الموت».

:- «ولماذا قتلت ابني؟ ولماذا لم ترحم طفولته؟».

اضطرب الرجل، ولم يجاوب، فقال له أبو نواس: «قل لمولانا ما قلته لنا في أثناء التحقيق معك».

:- «وماذا قلت؟».

:- «قلت انك متعاون مع أعداء مولاي ونفذت رغبتهم في التخلص من المأمون».

قال الرجل: «هذا ما قمت به فعلاً».

فنظر أبو نواس الى هارون الرشيد نظرة انتصار، وقال له: «أسمعت بأذنيك اعترافه يا مولاي؟».

فتأمل هارون الرشيد الرجل بنظرات متفحصة بينما قال له أبو نواس: «ماذا ينتظر مولاي؟».

:- «لاني أفكر في الميتة التي تعذبه أشد عذاب».

:- «أحرقه حياً».

فأمر هارون الرشيد باحراق الرجل حياً، فنفذ الأمر فوراً، وتحول الموت رماداً.

وبعد أيام، قال هارون الرشيد لأبي نواس بحزن: «ما زلت أريد أن يعود ابني الى الحياة».

فقال أبو نواس: «لي ابنة هي أعقل من يحيا على سطح الأرض، ولكنها تتصنع الجنون، فإذا سألتها فقد ترشدك الى ما يحقق لك غايتك».

فأمر هارون الرشيد باحضارها بسرعة، ومثلت ابنة أبي نواس أمامه، فطلب اليها العون، ففكرت ثم قالت: «ابنك لن يعود الى الحياة كما كان، ولكنه قد يعود في صورة مختلفة، فازرع في تراب قبره شتى البذور، وما سينمو يكون هو ابنك العائد الى الحياة».

فعمل هارون الرشيد بنصحها، فنمت فوق القبر شجرة برتقال خضراء الأوراق، فتضاءل حزن هارون الرشيد،

وبات يقضي معظم أوقاته جالساً بالقرب منها، وحين يهب الهواء ويحرك أغصانها كان يسمع وحده صوتاً يقول: بابا.

ونمي يوماً الى سمع هارون الرشيد أن الموت ما زال يقضي يوماً على الناس الذين يحكمهم، فدهش، ولكن أبا نواس قال له: «نحن قضينا على الموت الجدة فقط، ولم نقض على أبنائه وأحفاده، وهم كثيرون».

:- «أمرك ألا تترك واحداً منهم حياً».

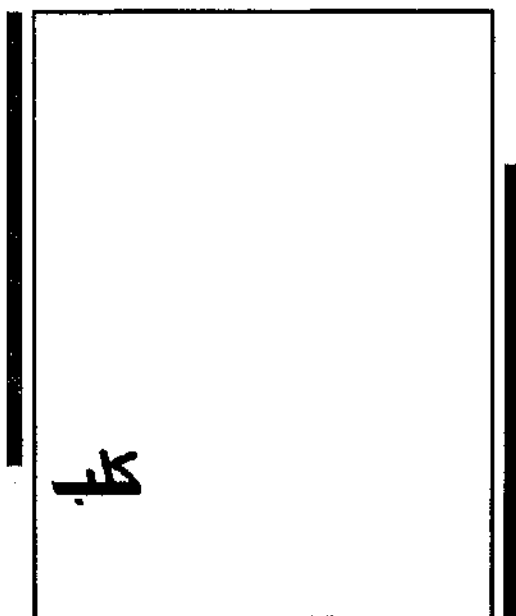
:- «انهم منتشرون في أرجاء الأرض كلها، ولكن معلوماتي عنهم وافية دقيقة، تكشفهم، وتحديد الأماكن التي يختبئون فيها».

:- «ماذا تنتظر؟».

:- «سأبيدهم أينما كانوا».

وسارت جيوشه تتقدمها الراقصات، وفرق بعضها مسلح بالبيض، وبعضها من الموتى، فاحتلت الأرض كلها، تتعقب أبناء الموت وأحفاده وفقاً لارشادات أبي نواس، وتشن عليهم حرب إبادة، ولكن هذه الإبادة توقفت لأن أبا نواس مات فجأة، وبات هارون الرشيد بلا مرشد، فعاوده الحزن، ولكنه سرّ قليلاً عندما علم أن جعفر البرمكي قد نجح في تعليم خيوله ألا تهز ذيولها.

وبعد سنوات توفي هارون الرشيد، فنزعت شجرة البرتقال لحاءها وأوراقها، وخرج منها المأمون وبادر الى القصر، وجلس على كرسي الملك، ففرح الناس، وفرحت الخيول، وعادت الى ممارسة عاداتها بهزّ ذيولها باستمرار.



١ - الملك الجديد

سعل الملك العجوز سعلة مفاجئة، فسقط أرضاً بلا حراك، فتصايح بذعر أعوانه ووزرائه وحراسه، وهرعوا الى نجدته، ففوجئوا أنه قد مات، ووجدوا أنفسهم ينتحبون بحرارة، ولكنهم بعد لحظات تيقنوا بأنه ميت، فجفت دموعهم فوراً، واختفى حزنهم، وتحادثوا بأصوات خفيضة عن ظلم الملك العجوز وحمقه وغباوته وفسقه متسائلين عن ذاك المجهول الذي سيحل محله وفقاً لتقاليد البلاد.

وبعد سبعة أيام، وقفت جموع غفيرة من الرجال في ساحة المدينة، وكان كل واحد منهم راغباً في أن يصبح ملكاً، وقد حذقوا مضطرين الى حمامة بيضاء سجيئة في قفص ذهبي، وخفقت قلوبهم بقوة لحظة فتح باب القفص وطارت الحمامة.

وحلقت الحمامة في سماء زرقاء، وبدت كمنديل دائم الارتجاف، ثم ما لبثت أن انحدرت الى أسفل، وحطت على كتف رجل رث الثياب، فتعالت الصيحات المستنكرة

الرافضة، ولكن الحمامة كانت في كل مرة تطير، تعود لتحتطّ على كتف الرجل نفسه ذي الثياب الرثة، فأعلن آنذاك الحكيم الأول في البلاد أن القدر شاء أن يكون كريماً مع المعوزين، فأتاح لواحد منهم أن يكون ملكاً.

وهكذا أصبح الرجل الفقير نور الدين السعايدي ملكاً، ففرح، وفرح كلبه الذي كان منذ أيام يعاني الجوع، ونبح آمراً بإحضار كمية كبيرة من اللحم الطازج، فظفر فوراً بما طلبه، وعندما شبع، ثئاب، واستسلم لنوم عميق.

■ ٢ - حوار تلفزيوني

المذبة: «أستطيع القول من غير أن أخشى الاتهام بالمبالغة إن الجماهير محرومة النوم بسبب توقها الى الاطلاع على آرائكم حول عدد من القضايا السياسية المصرية».

الكلب: «لا لا. أنا مضطر الى الاعتذار عن عدم التكلم في أي شأن له صلة بالسياسة».

المذبة: «والجماهير؟».

الكلب: «من المستحسن أن تظل الجماهير بلا نوم حتى يزداد نتائجها، ولا يستطيع أي عدو شن حرب غادرة عليها».

المذبة: «هل في المستطاع معرفة الأسباب التي دفعتكم الى الامتناع عن التكلم في الشؤون السياسية؟».

الكلب: «إذا تحدثت عن الأمور السياسية للبلاد فان

أعداء البلاد سيعلمون بما نفكر فيه، وإذا علموا بما نفكر فيه فانهم سينجحون في تدبير المؤامرات الهادفة الى الاستيلاء على البلاد، ولذا فمن مصلحة الوطن والشعب أن ألوذ بالصمت ويلوذ كل مواطن بالصمت».

المذيع: «الحكم القديمة تجمع على أن الصمت من ذهب، فيا له من جواب رائع شديد الارتباط بالتراث!».

■ ٣ - من كلام مختص تربوي

«... لن نتطور إذا لم نعرف أخطأنا ونحاول القضاء عليها، وينبغي لنا الاعتراف بأن مناهجنا المدرسية الراهنة معادية للتقدم، وتعاني نقصاً فادحاً، والدليل هو أنها لا تدرس لغة الكلاب مادة أساسية»...

■ ٤ - من تصريح قائد عسكري:

«... إذا كان عدونا سيحاربنا مستخدماً ما يملك من أسلحة حديثة متطورة فإننا سنهزمه بلا ريب إذا عرفنا كيف نستخدم باتقان الأناب والمخالب والنباح...».

■ ٥ - اعلان من وزارة الصناعة

تعبيراً عن الايمان العميق بحق الانسان في حياة حرة، وتلبية لمشيتة الجماهير الكادحة، فقد سارعت وزارتنا الى استيراد أحدث المعامل المختصة بصنع الذبول الصناعية. ويسر وزارتنا أن تؤكد أن تلك الذبول ستكون بعد وقت قصير في الأسواق، متاحة لكل مواطن يرغب في امتلاك ذيل، فليتم قرير العين كل من كان بلا ذيل.

■ ٦ - من مفكرة شاعر مختص بالغزل

«... سأنظم قصيدة تقطر حباً، وسأقول فيها إن حببتي جميلة ككلب أبيض صغير...».

■ ٧ - من افتتاحية جريدة

«... من هو المواطن الصالح؟ الجواب الوحيد الصحيح هو أن المواطن الصالح هو الذي يحاول باستمرار أن يزداد ارتباطاً بأرض وطنه، وهذا الارتباط المنشود لن يتحقق للمواطن إلا إذا مشى على أربع، ورفض إغراءات الامبريالية بأن يمشي على قدمين...».

■ ٨ - حديث مفكر

«أنا الآن منكم في تأليف كتاب عن المحاسن الجمّة للذيول، وسأبرهن فيه على أن الفيلسوف الاستعماري المدعو ديكارت كان مضللاً ومسيئاً إلى الإنسانية عندما قال: أنا أفكر فأنا موجود، وسأثبت أن ما قاله بعيد عن الحقيقة، وطالب الحقيقة لا يقول إلا القول الآتي: أنا صاحب ذيل فأنا موجود».

■ ٩ - خبر بالغ الأهمية

حظيت وفود عدة، تمثل مختلف طبقات الشعب بلقاء مولانا. وقد تكلم رؤساء تلك الوفود عن الحرية التي كانت مفقودة في عهد الملك السابق، فتأثر مولانا تأثراً لا يوصف،

وصدرت أوامره التي تبيح للمواطنين كافة بأن يعضوا وينبخوا، عضاً ونباحاً مؤيداً بقوة من قبل القانون.

■ ١٠ - المنام الوطني

ها هم بشر الكرة الأرضية يمشون على أربع، ويهزون ذبولهم بمرح، وينبسون معلنين انتصار الانسان على معذبيه.

لا شيء

ها هوذا الزقاق الضيق بحيطانه المهترئة
الترابية، وها هوذا البيت، فيتنهد بارتياح،
ويتضاءل لهائه، ويسارع الى الاقتراب من باب البيت،
ويضغط زر الجرس، فلا يسمع رنيناً، فيتجمد لحظات حائراً
ثم يطرق الباب الخشبي بقبضة مترددة، فيفتح الباب تَوّاً عن
امرأة في مقتبل العمر ذات عينين سوداوين كبيرتين وشعر
مشعث، وترتدي ثوب نوم عتيقاً، فيسألها بصوت خافت
متهدج: «زوجك موجود؟».

فتنظر المرأة اليه بعداء، وتقول له بصوت ساخر ذي
بحة: «لم أسمع ما قلت. عمن تسأل؟».

يقول بارتباك: «عن زوجك».

تقول المرأة: «لماذا تسأل عنه؟».

يقول: «أريد...».

فتقاطعه قائلة: «ماذا تريد منه؟».

..: «أنا صديقه».

- ١٠: «أنت صديقه؟ أنا لم أرك من قبل».
- ١١: «هو طلب مني أن لا آتي اليه إلا لسبب مهم».
- فتألمته المرأة بنظرات متفحصة صارمة، فقال لها: «أنا محتاج اليه».
- قالت المرأة: «صديقك غير موجود. ذهب وأنا نائمة».
- قال وقد تزايد اضطرابه: «متى يرجع؟».
- ١٢: «ترك ورقة قال فيها انه لن يغيب طويلاً».
- ١٣: «هناك خبر يجب أن يعلم به بسرعة».
- ١٤: «وما هو ذلك الخبر الذي يجب أن يعلم به بسرعة؟».
- لم يجب، فقالت المرأة: «ألا تريد التكلم؟ الخبر سري؟ فهمت. لا بد من أن أحداً اعتقل أو سيعتقل».
- وابتسمت ابتسامة هازئة بدت لعينيه منسجمة مع شعرها المشعث، وأضافت قائلة: «انتظره إذا شئت أو اذهب وارجع بعد قليل».
- فتطلع فيما حوله بنظرات زائغة، فقالت المرأة بصوت مرح: «اهداً. لا داعي الى الخوف. إذا أردت انتظاره في البيت فادخل واعتبر البيت بيتك».
- وتنحت عن الباب، فدخل. ولما أغلقت الباب وجد نفسه في ظلمة دامسة، وسمعها تقول بنزق: «أبناء الكلب قطعوا التيار الكهربائي لأننا تأخرنا في الدفع».
- قال: «أنا لا أبصر شيئاً».
- ١٥: «هات يدك».

فمذَّ يده نحو مصدر صوتها، فأمسكت يده، وضحكت، وقالت: «امش. امش. أعمى يقود أعمى».

وقادته المرأة الى داخل غرفة فتحت بابها بركلة من قدمها. وكانت غرفة صغيرة يأتي اليها نور الشمس من نافذة وحيدة.

لم تفلت المرأة يده. وتنبه مشمئزاً الى أن يدها كانت لزجة مبتلة بالعرق، ولكنه لم يحاول أن يسحب يده.

قالت المرأة بصوت وقور وهي تشير بيدها الطليقة الى ما حولها: «هذا هو القصر الذي نعيش فيه. انظر. ما أضخمه وما أفخمه! انه غرفة واحدة فقط».

وضحكت ضحكة خشنة شبيهة بضحكة رجل سكران ثم تابعت الكلام قائلة بلهجة اعتذار: «أنا آسفة. ذاكرتي ضعيفة. هناك أيضاً مرحاض. أتريد أن تراه؟».

فهزَّ رأسه بالنفي، فتركت يده، وتمطت وهي تتعاب بينما كان يحدق الى ما حوله.

كانت الغرفة مربعة الشكل تحتوي سريراً واحداً وطاوله تكدست فوقها كتب كثيرة ومجلات وصحف، وثمة مشجب على الحائط علقت عليه بفوضى ثياب نسائية ورجالية.

وقف حائراً إذ لم يجد أي كرسي، فأشارت المرأة بسبابتها الى السرير قائلة: «اقعد. هل ستظل واقفاً؟».

فقعد على حافة السرير. وتمددت المرأة على السرير،

وتشاءبت ثانية بصوت عال، وقالت متذمرة: «ما زلت بحاجة الى نوم».

وخيل اليه بعد لحظات انه يسمع صوت أنفاسها يتردد بانتظام ووضوح، فاعتقد انها قد نامت، ولكنها لكزت فجأة خاصرته بقدمها، وقالت: «أنت أخرس؟ لماذا لا تحكي؟ لم تخبرني باسمك».

بلل شفثيه بلسانه، وبقي ساكناً يحدق الى النافذة المفتوحة على فضاء أزرق.

قالت المرأة: «فهمت. اسمك أيضاً سري».

:- «اسمي يحيى».

:- «هذا الاسم اسمك السري أم اسمك الحقيقي؟».

لم يجاوب يحيى، فأضافت المرأة متسائلة بفضول: «قل لي بصراحة. كيف صرت واحداً منهم مع انك صغير السن؟».

فتح فمه غير انه لم يجد ما ينطق به، فقالت المرأة بازدياء: «مساكين أنتم ومضحكون! تريدون تغيير العالم؟ هيا عجلوا قبل أن نموت كالجرذان».

قال يحيى بصوت خفيض: «المستقبل..».

قالت المرأة بغضب: «اسكت. لا تحدثني عن المستقبل. سئمت الوعظ. ألك أم وأب؟».

:- «أبي ميت».

:- «أنت طالب؟».

:- «أنا أشتغل في معمل للنسيج».

ولاذت المرأة بالصمت قليلاً ثم قالت بمرح: «أنت جميل الوجه، ومن السهل أن تحبك النساء. هيّا احك لي. ألم يحبك أحد؟ أليس لك بنت جيران؟ تكلم ولا تخجل. ألم تعرف أي امرأة؟».

قال يحيى: «واحدة فقط».

قالت المرأة: «وكم دفعت لها؟».

فحملق إليها بارتباك، فقالت: «أتظن أنني غبية؟ انظر. وجهك صار بلون الدم. أنا متأكدة أنك لم تكن وحدك وكان معك ثلاثة أو أربعة من أصدقائك، والتقطتم امرأة من الشارع ودفعتم لها كل ما في جيوبكم. ها ها إذن صرت واحداً منهم لتتال النساء مجاناً؟ أف! سكوتك يضجر ولكنك بالتأكيد حين تحضر اجتماعاً من اجتماعاتهم لا تظل مقفول الفم وتتكلم وتتكلم حتى يعرق السقف. إذا كنت أكذب فقل لي أنك تكذابين».

لم يفه بكلمة. وبعد قليل انتظمت أنفاس المرأة، فرمقها خلسة، فوجدها مغمضة العينين، فعاود التحديق إلى النافذة، وجعلته قضبانها يرتعد، وضغط بأسنانه على شفته السفلى ليكتب لهاثاً مبالغاً شبيهاً بلهاث عجوز ركض ساعات.

وتنبه إلى أنفاس المرأة اضطربت، ووجد نفسه ينظر إليها، فإذا هي لا تزال مغمضة العينين غير أن فمها كان منفرج الشفتين، وجسدها يتحرك كأن رجلاً يجثم فوقه.

وندت عنها آهات خافتة متقطعة، فأدار وجهه مجفلاً، وهم بالوقوف، ولكنه لم يستطع التحرك، ثم بلغ سمعه صوت أسنانها تصطك وتتبعث من بينها صيحات قصيرة منتشية، فأغمض عينيه، وأبصر بشر الأرض يدبون على أربع تطاردهم سياط وصرخات حيوانية، وأبصر جده يقطع رأسه ويسلخ جلده ويحشى تبناً، وأبصر أباه يكي بينما فوهة مسدس تلتصق بصدغه وينطلق منها النار، فارتجف، وتقلصت أصابعه حول مقبض سكين وهمية، وأبصر آلات تمحو بيوتاً عتيقة وتبني محلها بيوتاً جديدة شبيهة بأشجار خضر في حقل فسيح يغطي أرضه ورد ذو ألوان بهيجة متنوعة، وأبصر رجالاً يضحكون ونساء يضحكن وأطفالاً يضحكون، وأبصر الشمس وقد تحولت امرأة ذهبية الشعر تمشي ويبدأ في شارع وتدفع أمامها عربة طفل بحنو ورفق، وأبصر سجوناً تهدم ومشائخ تحرق ومدافع وبنادق تصهر وتصنع منها أواني للمطابخ ودمى للصغار، فغمرته غبطة عارمة منحتة قوة مفاجئة دفعته الى النهوض واقفاً، ونظر بإشفاق الى المرأة المستلقية على السرير، وغادر البيت صافقاً الباب خلفه بقوة، متنهداً بارتياح، ولكن رجالاً عديدين ذوي وجوه عابسة أحاطوا به، فعرف توأ من هم وما هي غايتهم، فقال لهم بصوت حاول جهده أن يكون هادئاً: «ماذا تريدون؟».

فقال واحد منهم لامع الشعر ذو ثياب أنيقة وهو يشير الى باب البيت: «نحن نريد أن نشكرك لأنك أرشدتنا الى

بيته، ونريد منك أيضاً أشياء أخرى كثيرة ستعلم بها فيما بعد».

فحملق يحيى مذهولاً، فضحك الرجل الأنيق، وقال: «أنت مذهوش؟ طبعاً كنا نراقبك ونتبعك، وكنت كالحمار الخائف فلم تنتبه لنا».

وأشار الرجل الأنيق الى رجلين من رجاله قائلاً بصرامة: «أنت وأنت خذاه. وإذا هرب منكما فأسلخ جلديكما».

قال أحد الرجلين: «اطمئن سيدي. إذا جرؤ على التنفس أطلقنا عليه النار».

فقال الرجل الأنيق بنزق: «لا أريده ميتاً يا غبي».

ثم ربت على كتف يحيى كأنه صديق قديم، وقال له: «أما أنت فاطمئن ولا تقلق، وإن كنت مشتاقاً الى رفيقك الذي أتعبنا التفتيش عنه فنحن ننتظره وستره قريباً وتلتقي بما يتبقى منه».

ومشى يحيى بين الرجلين محني الرأس، وأبصر رجالاً يضاجعون أخته فلا تقاوم، فلم يصرخ مستغيثاً انما نظر الى السماء الزرقاء كأنه عطشان يشرب ماء بارداً، فلكره أحد الرجلين بقسوة متسائلاً: «الى ماذا تنظر؟ هل تتوقع أن تأتي طائرة لرفاقك وتنقذك؟».

قال الرجل الثاني: «من المؤكد انه يودع الشمس».

فابتسم يحيى، فقال الرجل الأول له هازئاً: «هيا تصنع انك بطل وابتسم كما يفعلون في الأفلام».

وتقهّل يحيى في سيره، وأشار الى دكان بائع سجائر، وقال: «أريد شراء علبة سجائر».

قال أحد الرجلين: «ممنوع».

قال الرجل الآخر: «اطلب أيضاً شراء زجاجة ويسكي».

قال يحيى: «سأشتري لكل واحد منا علبة سجائر».

قال الرجل الأول للرجل الثاني: «أسمع؟ انه ينبغي رشوتنا».

قال الرجل الثاني ضاحكاً: «أتريد رأيي؟ يستحسن أن نوافق على طلبه حتى نسدد ضريبة الى ميزانية الأعداء».

قال الرجل الأول ليحيى: «هيا اشتر ثلاث علب سجائر، وليكن معلوماً لديك اننا لا ندخن إلا أفخر الأنواع».

واشترى يحيى ثلاث علب سجائر، وأعطى لكل من الرجلين علبة سجائر، ولكنه ما إن مزق طرف علبة سجائره وأخرج منها سيجارة ووضعها في فمه وهمّ بإشعالها حتى قال له الرجل الأول: «التدخين ممنوع».

قال يحيى: «ألم نتفق؟!».

قال الرجل الأول: «اتفقنا على أن تشتري سجائر ولم نقل لك اننا موافقون على أن تدخن».

قال يحيى: «سيجارة واحدة فقط».

:- «ممنوع».

قال الرجل الثاني: «اشفق عليه. ألا تراه مصفر الوجه من الرعب؟ دعه يدخن سيجارة ويتشجع».

قال يحيى: «أنا لست بخائف».

قال الرجل الأول: «حين تعلم يا مسكين ما سيحل بك لن تشعر بالخوف بل ستمنى لو أن أمك ولدت فأراً ولم تلدك».

قال الرجل الثاني: «كن لطيفاً وأخبره بما سيحل به».

قال الرجل الأول: «ولماذا لا أخبره؟ أليس الانسان أخاً للانسان؟».

ثم تأمل يحيى بنظرة متفحصة، ثم قال له: «اسمع يا ولد. ما اسمك؟».

:- «يحيى».

:- «اسمع يا يحيى. ما إن تصل حتى تستقبل باللكمات والصفعات والركلات حتى يصبح وجهك كتلة لحم لو أبصرتها حبيبتك لأغمضت عينيهما قرفاً، ثم توضع قدماك في الفلقة وتضرب حتى ترغم على النباح ككلب، وبعدئذ ستسأل عن اسمك».

فتذكر يحيى جوريه العتيقين المثقوين، وتخيل معذيه يضحكون ساخرين منه، فأحس بخوف حقيقي، ووهنت قواه، فقال له أحد الرجلين: «ما بك؟ تشجع ولا تسقط أرضاً وتعبنا بحملك. السيارة قريبة».

فتزايد خوف يحيى، ووجد نفسه بغتة ينطلق الى الأمام راكضاً بأقصى ما يملك من قوة، تطارده صرخات غاضبة

تأمره بالوقوف، وتلاها دوي رصاص، ولكنه استمر في
الركض بينما البيوت الطينية على جانبي الزقاق تزداد
تلاصقاً وشيخوخة.

الصفحة

بلغ الجنين من العمر تسعة أشهر، وحان وقت
خروجه من بطن أمه الى العالم كي يظفر
باسم وحارة ومدينة ووطن وأهل وأصدقاء، ولكنه لم يصدر
عنه ما ينم عن عزمه على مغادرة بطن أمه الذي يقيم به،
فقالت له أمه متسائلة بغيط وسخرية: «الى متى ستبقى في
بطني؟ هل تنتظر حتى تصبح رجلاً ذا شاربين؟ ينبغي لك
أن تشفق علي فقد صرت ثقیل الوزن الى حد أنني بت لا
أستطيع المشي».

قال الجنين: «أنا لا أحب السير في الظلام، ولن أغادر
بطنك إلا إذا عرفت أولاً أي نوع من الحياة ينتظرني في
العالم الذي سأصبح واحداً من أفراد».

فكرت الأم قليلاً، ثم قالت لجنينها: «أترید كذباً
يخدعك ويسعدك أم تريد صدقاً يقول لك الحقيقة
ويشقيك؟».

قال الجنين فوراً: «أريد الصدق وحده ولا سيما أن
الصدق ينجي والكذب يودي».

- قالت الأم: «إذن انصت لما سأقوله».
- قال الجنين: «قولي ما تشائين، فكلي أذان صاغية».
- قالت الأم: «العالم الذي ستحيا فيه معنوه فظ قاس لا يرحم ولا يشفق».
- قال الجنين: «ما من قوي إلا وفوقه من هو أقوى منه، وما من قاتل نجا من قاتل آخر أهرق دمه».
- قالت الأم: «ستزرع الورد، ولكنك لن تقطف سوى الشوك وحده».
- قال الجنين: «لن أزرع إلا الشوك كي أقطف الورد».
- قالت الأم: «من السهل أن تحزن، ومن الصعب أن تفرح».
- قال الجنين: «لن أحزن ولن أفرح».
- قالت الأم: «ستحلم وتتمنى وتحب، فلا تحصد إلا الحيات وموت الأحلام والآمال».
- قال الجنين: «سأطعم قلبي لهرة جائعة أو أحوله صخرًا باردًا».
- قالت الأم: «إن تكلمت ندمت، وإن صمت ندمت».
- قال الجنين: «سأعرف متى أتكلم ومتى أصمت، وسيندم غيري».
- قالت الأم: «الشجرة ذات الشمار الطيبة محكوم عليها بالهلاك بسبب طيب ثمرها».
- قال الجنين: «لن أكون شجرة بل سأكون فأسًا».

قالت الأم: «الأنهار تظل عذبة الماء حتى تصب في البحار المالحة، والأنهار أقلية والبحار أغلبية».

قال الجنين: «بحر كبير مالح خير من نهر صغير عذب المياه».

فقالت الأم: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

قال الجنين: «لا فائدة في العلم لا في الصغر ولا في الكبير».

قالت الأم: «واجب العاقل إصلاح عيوب نفسه قبل انتقاد عيوب الآخرين».

قال الجنين: «عيوبي محاسن يليق بها الشناء، وفضائل الآخرين عيوب شائنة».

قالت الأم: «قد تضطر في أحيان كثيرة الى أن تغضب، والغضب من شيم الحمقى».

قال الجنين: «أن أغضب ويقال عليّ لاني أحقق أفضل من أن أصبح طعاماً لكل الأفواه».

قالت الأم: «من افتقر قلبه لم ينفعه غناه».

قال الجنين: «هذا كلام لا يؤبه له، وأزدرى قائله الذي لا بد من أنه كان فقيراً يوشك أن يموت جوعاً، ويده قصيرة وعينه بصيرة».

قالت الأم: «ستلتي أناساً يدفنون الحسنة ويظهرون السيئة».

قال الجنين: «الكلب إذا أكل وشبع اشتد نباحه».

قالت الأم: «وقد تفقد أصدقاءك صديقاً بعد صديق، ولا غم يشابه غم فقد الأصدقاء».

قال الجنين: «الأصدقاء هم أصدقاء في أيام الرخاء وأعداء في أيام البلاء».

قالت الأم: «اللئام كثيرون، واللئيم كالحية لا يوجد عندها إلا السم».

قال الجنين: «لن أكون الطبيب الذي يشرب السم اتكالاً على ما لديه من أدوية».

قالت الأم: «تنبه الى أن الغالب بالشر مغلوب».

قال الجنين: «الماء مهما سخن يطفىء النار إذا صب عليها».

قالت الأم: «لا نفع في لؤلؤ لا يخرج من بحره».

قال الجنين: «من طمع الى امتلاك اللؤلؤ، فليدفع الثمن للبحر».

قالت الأم: «سعادة المرء أن يكون رزقه في بلده».

قال الجنين: «سعادة المرء أن يكون رزقه من غير تعب».

فصاحت الأم بنزق: «إذا كانت لك هذه الآراء، فما مبرر بقائك في بطني؟».

قال الجنين: «أنا أنتظر أن تطلقني أبي الفقير وتتزوجي من آخر ذي ثراء وجاه ونفوذ».

فركضت الأم الى أقرب مستشفى مشتمزة مستغيثة.

المباراة

تحركت شفتاي، وانبعث من فمي صوت
قال الجرسون المقهى: «هات كأس ماء بارد».
أحضر الجرسون كأس الماء، ووضعها على سطح
الطاولة.

قلت ليدي اليمنى: «امسكي الكأس».
قالت يدي اليمنى للأصابع: «امسكي الكأس».
فأمسكت الأصابع كأس الماء، فقلت لها: «احملها
وارفعيها الى فمي».
فحملت الأصابع الكأس، ورفعتها نحو فمي، وأدنتها
منه، وأمالتها، فدخل الماء الى فمي.
وعندما فرغت الكأس من الماء، أعادتها الأصابع الى
سطح الطاولة.

قلت لعيني: «انظرا الى السماء».
فتطلعت عيناى عبر الحائط الزجاجي للمقهى. السماء
زرقاء اللون والشمس مشرقة.

نهضت واقفاً، وأعطيت الجرسون ثمن فنجان القهوة الذي كنت قد احتسبته، ثم غادرت المقهى، ومشيت على رصيف الشارع بخطى متمهلة. كان الناس كثيرين، فسلكت طريقاً فرعياً.

قلت: «الى أين أذهب؟».

قالت قدماي: «سنمشي حتى نتعب».

قالت عيناى: «اذهب الى بيت سلمى كي نتمتع برؤية وجهها الجميل. ألسنت متفقاً معها على زيارتها؟».

قال لحمي: «ما هذا الكلام المراهق؟ وجهها فقط؟».

قالت يداى: «حين ندنو منها لن نترك قطعة ثياب واحدة على جسمها».

قالت عيناى: «ما أجمل جسدها!».

فسارعت قدماى الى السير بسرعة حتى وصلنا الى بيت سلمى، وهناك تجمداً، وضغطت سبابتي زر جرس الباب. فتحت سلمى الباب، وعبست متصنعة الغضب، قائلة: «تأخرت حتى ظننت انك لن تأتي».

قلت: «الشوارع مزدحمة كأن الناس كلهم خرجوا من بيوتهم».

وسألتني وأنا مستلق لصقها على السرير: «أتحبني؟».

ثم أضافت متسائلة بحق ودهشة: «ما بك تحملق إليّ كأنني أتكلم باللغة الصينية؟».

قال صوتي: «سؤالك غريب. أنت تعرفين أنني أحبك».

قالت ضاحكة: «ماذا أفعل؟ هذه نقطة ضعف في شخصيتي. أحب دائماً أن أسمعك تقول لي: أحبك».

قال صوتي: «أحبك أحبك».

قلت لصوتي باحتقار: «أيها الكاذب المنافق».

قال لساني: «اخرس. لولا كلامي لما نلت أي شيء».

وتفرجت بمكر وفضول على ما جرى بعدئذ، فكل عضو في جسمي تحول حيواناً مفترساً انقض بضراوة على جسد سلمى.

ولما هدأت حيواناتي المفترسة، ظلت سلمى مغمضة العينين، ساكنة.

قلت لها: «أأنت نائمة؟».

قالت: «لو مت الآن لما شعرت بأي ندم لأنني عشت لحظات لا أعتقد ان امرأة تمتعت بمثلها».

قال صوت لم يسمعه غيري: «تكلم وقل لها ما يبهجها».

قلت حائراً: «ماذا أقول؟».

قال الصوت آمراً: «قل لها انك تتمنى لو انها تنجب لك بنتاً تشبهها».

قلت: «أنا أكره الأطفال».

قال الصوت: اكذب. ماذا ستخسر؟».

فقلت لسلمى بصوت متهدج: «أتعرفين ما أرغب فيه؟».

قالت: «أن تصبح غنياً».

قلت: «أمنيته الآن أن تكون لي ابنة أنت أمها وأنا أبوها وتشبهك تماماً».

قالت: «هذه أمنيته أيضاً، وأنا مستعدة لتنفيذها، فهل أنت مستعدة؟».

لم أدر ما أقول أو أفعل، ولكن حيواناتي المفترسة استيقظت من جديد، وانقضت على جسد سلمى مزمجرة شرسة عنيفة، فعاودت التفرج على ما يحدث بمرح ممزوج بقليل من الملل.

- ٢ -

وصلت الى مقر عملي في الساعة الثامنة صباحاً، وطلبت الى الأذن أن يجلب لي فنجاناً كبيراً من القهوة، فبادر الى تلبية طلبي بسرعة، فابتدأت أرتشف القهوة المرة على مهل وأدخن السيجارة تلو السيجارة.

وفي الساعة العاشرة رنّ جرس الهاتف الموضوع على مكثبي، وتكلم معي سكرتير الوزير، وأبلغني أن الوزير يريد رؤيتي كعادته كل صباح، فسارعت الى الذهاب الى غرفة الوزير.

قلت له بصوت مفعم بالبهجة والاحترام: «صباح الخير».

قال: «اجلس».

فجلست على مقعد قريب من مكتبه، وكان مقعداً مريحاً ذا وجه من جلد بني اللون.

قال الوزير ان اليوم رائع.

قلت إن مصلحة الأرصاد الجوية قالت ان الجو سيكون رائعاً ومحرضاً على العمل بنشاط.

قال اني موظف غريب الأطوار ويجب أن أقصد مستشفى للمعالجة.

قلت: «غداً سأذهب الى المستشفى».

قال: «وهل تعرف أي مرض أنت مصاب به؟».

قلت: «ما دمت قد طلبت مني الذهاب الى المستشفى، فلا بد من أنني مصاب بمرض ما، وسيشخصه الأطباء بعد فحصي، وسيجدون أن سببه هو حسد الموظفين لي لأنني أنا الموظف الصغير أحظى بمقابلتك كل صباح».

ضحك وقال لي: «أنت مصاب بحب العمل فقط، ولا تحب شيئاً في الدنيا غير العمل».

فقلت إنني آتي صباحاً الى العمل وفق الأنظمة وأنصرف عند انتهاء ساعات العمل وفق الأنظمة.

قال إن العمل لا ينتهي والعمر ينتهي، فهزرت رأسي كأنني موافق بحماسة على كلامه.

رنّ جرس الهاتف، فتناول الوزير السماعة، وتحدث بصوت خافت، ضاحك الوجه، ثم أعاد السماعة الى مكانها، وقال بتذمر: «هذه زوجتي الجديدة. اشتاقت إلي مع أنني تركت البيت منذ أقل من ربع ساعة».

فقلت بثقة انها لا تلام.

قال: «يخيل إلي أنني لم أغلط عندما طلقت زوجتي القديمة».

قلت: «الثوب مهما كان جميلاً ستضجر منه وتكرهه إذا لبسته كل يوم».

ضحك بمرح، وقال: «ليت النساء يسمعنك تتكلم عنهن هذا الكلام!».

فقلت ان المرأة حين تكبر تصبح كالجورب العتيق، أما الرجل حين يكبر فينضج، ويعرف كيف يتذوق الثمار الطيبة، كما أن الثمار الطيبة تكون سعيدة لأن آكلها ليس مغفلاً ساذجاً بل هو خبير.

قال: «ولكن هناك نساء كالمطحنة لا يفرقن بين قمح وشعير».

قلت: «وهناك أيضاً نساء يجعن سنوات ولا يأكلن إلا القمح، ويعرفنه منذ النظرة الأولى، وأفضل دليل هو الموظفة الجديدة سلمى الحلبي».

قال بفضول: «ما بها؟».

قلت: «لقد رأيتك أول مرة في أثناء جولتك على الموظفين في الأسبوع الماضي، وبدت في عينيها نظرة واضحة المعنى صريحة».

قال بسرور خفي: «من الطبيعي أن تحترم الموظفة وزيرها».

قلت: «هناك فارق كبير بين الاحترام و...».

قال: «أكمل كلامك».

قلت: «أنا خجل وقد...».

فقاطعني قائلاً: «قل ما تشاء، فأنت تعرف أنني أحب سماع آرائك السخيفة».

قلت: «أنا لست أعمى. نظرتها لم تكن نظرة احترام بل كانت نظرة شهوة».

قال: «أنت سيء الظن بالنساء. هذه الموظفة الجديدة.. ما شكلها؟ أنا لا أذكرها».

قلت: «اسمها سلمى الحلبي، وهي نشيطة في عملها».

قال: «أهي جميلة؟».

قلت: «علمت انها مطلقة منذ سنة».

قال: «كم عمرها؟».

قلت: «سأراجع ملف تعيينها وأخبرك».

قال: «أظن أنني لمحتها. أبلغ عمرها الأربعين؟».

قلت: «لا لا. عمرها لا يتجاوز السابعة والعشرين وجميلة جداً، ولها شعر أسود طويل وبشرة بيضاء وجسم متناسق لا عيب فيه، وعلمت انها تسكن وحدها».

قال: «وما سبب طلاقها؟».

قلت: «لا أعرف السبب بالضبط، فهي لا تتحدث عن حياتها الخاصة، ومتكبرة، وتعامل من حولها كأنهم ذباب، ولكن عينيها وهما تنظران الى الرجال تكشفان سبب طلاقها».

قال: «وما هو ذلك السبب؟».

قلت: «واحدة مثلها تحتاج الى رجل، وربما كان زوجها نصف رجل».

قال: «إذا كان تخمينك صحيحاً، فهي محقة في ترك زوجها، فمن حق المرأة أن يكون لها رجل يرضيها».

قلت: «هذا صحيح، ولكن المشكلة أن الرجال في هذه الأيام قلائل».

فضحك، وقال: «وأنت سيء الظن بالرجال أيضاً».

فنهضت واقفاً راجياً السماح لي بالانصراف بحجة أن عملاً عاجلاً ينتظرني، وغادرت مكتبه، وقصدت غرفة سلمى، فوجدتها منهمكة في قراءة جريدة بينما كانت زميلاتها يثرثن بأصوات عالية، فقلت لها بصوت خافت: «اسمعي يا سلمى. علمت الآن أن وزيرنا المجنون المعقد ينوي نقلك الى مدينة أخرى بعيدة».

قالت غير مبالية: «ليفعل ما يشاء».

قلت: «أنت لا تفكرين إلا في نفسك ولا تفكرين فيّ. إذا نقلت حرمت رؤيتك كل يوم».

قالت: «ماذا تقترح أن أفعل؟».

قلت: «أنا أعرف الوزير وأعرف عقليته. اطلبي فوراً مقابلته».

قالت: «وماذا أقول له إذا قابلته؟ هل تريد مني أن أبكي وأتوسل إليه؟».

قلت: «اطلبي نقلك الى مدينة أخرى، وأنا واثق انه سيرفض طلبك وتبقين هنا».

قالت: «فكرتك معقولة وغير معقولة».

قلت: «جربي».

قالت: «سأجرب».

قلت: «ماذا تنتظرين؟ هيا حاولي الآن مقابلته».

فنهضت واقفة، وقالت: «أتمنى ألا يسمح لي بمقابلته حتى لا تفسد صباحي رؤية ذلك القرد العجوز الأصلع».

وخرجت من غرفتها، فتبعته، ورأيتها تدخل غرفة سكرتير الوزير، وتكلمه، فيترك طاولته مبتسماً، ويدخل الى غرفة الوزير، ويبقى فيها لحظات، ثم يخرج منها، ويتكلم مع سلمى، فتمشي سلمى نحو باب غرفة الوزير، وتفتحه، وتدخل مغلقة الباب خلفها.

ظلمت أحوص في الممر وأنا أنظر بين الفينة والفينة الى ساعة معصمي. وعندما لم تخرج سلمى من غرفة الوزير بعد مرور ربع ساعة، ذهبت الى غرفتي، فوجدت زملائي ينتقدون البرامج التي قدمها التلفزيون في ليلة أمس، فشاركته في حديثهم ثم تركتهم، وذهبت الى غرفة سلمى، فلم أجدها، فسألت الآذن عنها، فأجاب انها في غرفة الوزير منذ أكثر من نصف ساعة، فرجعت الى غرفتي، وشرعت في مراجعة بعض الملفات، وعندما شارفت ساعة العمل على الانتهاء غادر زملائي الغرفة

وبقيت وحدي، فجاءت سلمى، وقالت لي بصوت عاتب: «لو كنت تحبني لأتيت لتعرف ما جرى لي مع الوزير».

قلت بلهجة معتذرة: «ألهاني عمل طارئ عاجل. هيا احكي لي عما حدث».

قالت: «انتهت المسألة في دقيقة. طلبت نقلي فرفض طلبي كما توقعت».

قلت: «وماذا حدث أيضاً؟».

قالت: «أمرني بالعودة الى العمل وعدم اضاءة وقته». تأملتها، فإذا نظرات عينيها كالنظرات التي اعتدت أن أراها لحظة تشبع حيواناتي المفترسة من لحمها وتفلتها لتظل أمدأ عاجزة عن الحركة.

قلت لها: «وكيف رأيت الوزير؟».

قالت: «رأيت فيه لم يتغير: قرد عجوز أصلع يجلس على كرسي وزير».

قلت: «أنت تظلمينه».

قالت: «قد أكون أظلمه، ولكن مقابله مدة تقل عن دقيقة لا تكفي لجعلي أغير رأيي فيه».

فضحكت، فسألتني: «لماذا تضحك؟».

قلت: «أنا أضحك فرحاً بنجاح اقتراحي».

قالت: «هل تأتي معي الى البيت لتتغدى معاً؟».

قلت: «لدي عمل عاجل سأنتهي منه وألحق بك».

وما إن غادرت سلمى الغرفة حتى جاء إلي سكرتير

الوزير عابس الوجه، وسلمني قراراً صادراً عن الوزير يقضي بنقلي لا الى دائرة أخرى بل الى بلدة نائية.

رجوت السكرتير الانتظار، وسارعت الي كتابة استقالتني من العمل، وقدمتها الى السكرتير قائلاً: «يرجى رفعها الى السيد الوزير».

وتركت غرفتي، وخرجت الى الشارع رجلاً من غير عمل.

- ٣ -

قالت سلمى: «أسرع. الطعام أوشك أن يبرد».

قل: «لدي ما أحكيه لك».

قالت: «سنحكي ونحن نتغدى».

قلت: «ما ستسمعيه أهم من الطعام».

قالت: «هيا احك فأنا أكاد أموت جوعاً».

فحكيت لها عن قرار الوزير واستقالتني، فقالت: «أنت دائماً عنيد. كان عليك تنفيذ قرار الوزير ثم التفتيش عن عمل آخر».

قلت: «أنا لست محتاجاً الى العمل».

قالت: «وكيف ستعيش وأنت لا مورد لك إلا الراتب؟».

قلت: «ومن قال لك اني محتاج الى الراتب؟».

قالت: «هيا قل لي انك مليونير».

قلت: «أنا لست مليونيراً، ولكنني إذا استثمرت أموالني
بذكاء صرت مليونيراً».

قالت: «هيا نأكل. الجوع جعلك تهذي».

قلت: «ألا تصدقين ما أقول؟».

قالت: «سأكون مجنونة إذا صدقت كلامك».

قلت: «اسمعي. ألم أخبرك أن أبي مات؟».

قالت: «ومات منذ سنوات».

قلت: «ولكنني لم أخبرك أنه ترك لي ولأخي أموالاً
كثيرة مودعة في البنوك وعقارات لا يحصى عددها».

قالت: «أخوك؟ كنت دائماً تقول أنك لا أخ لك ولا
أخت».

قلت: «كنت أكذب عليك لأنه أخ حقير طعن في
وصية أبي، وجرحني إلى المحاكم، ولكن أبي كان واضحاً
في وصيته، وترك لي كل ما يملك».

قالت: «أنا لا أصدق ما أسمع».

قلت: «وقبل أسابيع أصدرت المحكمة حكمها
بالتصديق على صحة وصية أبي».

قالت: «كأنني في منام».

قلت: «وكنت أنوي الاستقالة، فأتى قرار الوزير في
الوقت المناسب».

قالت: «وماذا ستفعل الآن وقد صرت غنياً؟».

قلت: «سأسافر الى سويسرا لأسحب من بنوكها ما أودع أيي فيها من أموال».

قالت بحزن: «سأشتاق اليك».

قلت: «لن تشتاقي الي».

قالت: «ألا تصدق أنني سأشتاق اليك؟».

قلت: «لن تشتاقي إليّ وستملين مني لأنك ستسافرين معي وستتزوج في سويسرا».

قالت: «نتزوج؟».

قلت: «هل أفهم من سؤالك انك لست موافقة على الزواج مني؟».

فعانقتني هامسة: «سأنتحر إذا لم تتزوجني».

قلت: «غداً اذهبي الى العمل وقدمي الى الوزير استقالتك بينما أذهب أنا لإنجاز معاملات السفر وشراء بطاقات الطائرة».

قالت: «سأقدم استقالتني، وإذا حاول اقناعي بالعدول عنها، فسأبصق في وجهه».

قلت: «لا لا. أنا أريد أن تكون زوجتي مهذبة السلوك».

فضحكك، وضحكك، ولكن أسباب ضحك كل منا كانت مختلفة.

تخيلت سلمى امرأة جميلة بلا عمل، يفترسها القلق والاضطراب والحيرة، وتنتظر مقدمي عبثاً، وتبحث عني فلا تعثر علي لأنني هجرت البيت الذي كنت أسكنه، وها أنا في البيت الجديد الذي نجحت في استجاره بعد بحث لم يدم أكثر من ساعة، أحصي النقود التي كانت سلمى تقتصدها وتخبئها في خزانة ثيابها، وأخذتها بينما كانت غارقة في النوم، فإذا هي أكثر مما توقعت، فبعثرتها على أرض الغرفة، ثم استلقيت على السرير، ونمت على الرغم من أن الليل سيأتي بعد ساعات.

وشاهدت في أثناء نومي رجالاً اقتحموا غرفتي، وأحاطوا بجسدي الممدد على السرير، وانتضوا السكاكين، وبدأوا يقطعون جسدي إلى قطع صغيرة ليأكلوها نيئة، ثم انتزعوا قلبي، ورموه أرضاً، فأخذه واحد منهم، ودسه في كيس ورقي، وحمله إلى بيته، وأطعمه لقطته التي أكلت معظمه، ثم تمطت وتشاءبت وتمددت على الأرض ونامت.

وشاهدت في أثناء نومي مكتبة كبيرة، فحاولت قراءة كتاب ما، فإذا صفحات الكتب كافة ييضاء.

قالت عيني اليمنى: «أبصرت طفلاً يحلم بذبح أمه وأبيه وأخوته».

قالت عيني اليسرى: «رأيت معلمة تحلم بذبح تلاميذها الأطفال».

قالت يداي: «لو كنا نملك سكيناً لذبحنا الأشجار والأنهار».

قال فمي: «سئمت الكلام».

قال أنفي: «الجيف تغطي سطح الأرض».

قالت أذني الأولى: «ليتني كنت صماء!».

قالت أذني الثانية: «ليتني كنت صماء!».

وقال دمي: «أنا غبار».

وشاهدت في أثناء نومي أمي تصيح بي: «أفق من نومك أيها الولد الكسلان ستتأخر عن مدرستك».

فاستيقظت من نومي، وغسلت وجهي بماء بارد، وغادرت البيت، وسرت في الشوارع طفلاً يحث خطاه نحو مدرسته.

الثاني

أفاق حمدي الصايغ من نومه بغتة، فرأى رجلاً غريباً يقف بالقرب من سريره، فاستولى عليه الرعب، وقال له بصوت مرتجف: «من أنت؟».

لم يجب الرجل، فقال له حمدي بصوت متحشرج: «ماذا تريد؟ كل ما معي من نقود موجود في ثيابي المعلقة هناك».

وأشار بيده الى مشجب مثبت بالحائط، فضحك الرجل ضحكة مرحة، ثم قال لحمدي متسائلاً بهزاء ولوم: «هل ظننت أنني لص؟».

قال حمدي: «إذا لم تكن لصاً، فمن تكن وكيف دخلت غرفتي؟».

قال الرجل: «لا بد من أنك سمعت عني الكثير. أنا الذي يفرق بين الآباء والأمهات والأبناء، ويهزم القوي والضعيف، ويخرب الدور والقصور، ولا يستطيع أحد الهرب مني ولو التجأ الى حصون مشيدة في آخر الأرض».

فتمنى حمدي أن يكون ما يشاهده ويسمعه ليس سوى منام، وقال للرجل: «لم أفهم قصدك، ماذا تريد مني؟».

فقال الرجل: «سؤالك مضحك وغبي لأنك تعرف جوابه، فأنا الذي سيجعل ابنك يتيماً وزوجتك أرملة ومالك موروثاً».

قال حمدي: «من حرصك على قتلي أعطاك عني معلومات مخطئة، فأنا رجل مسكين، وأسكن وحدي في هذا البيت، ولا زوجة لي ولا أبناء ولا مال».

قال الرجل: «لو كان ما تقوله صحيحاً، فلماذا تحرص على البقاء حياً ولم تمت من غير أن تضطرنني إلى الهجاء اليك، ولكنك تكذب، فأنت ذو مال كثير تحبه، ولك زوجة وابن شاب، وهما مسافران، وسيعودان غداً صباحاً».

فأحس حمدي بوهن غامض يجتاحه، وبلغ سمعه صوت خافت يقول له متسائلاً بشماتة: «أقتلت الدنيا أم الدنيا قتلتك؟ ستترك الدنيا وتركك الدنيا».

فهتم بالكلام، ولكن الرجل دنا منه، صارم الوجه، ويده الخطي، فأطلق صرخة استغاثة لم يسمعها أحد.

وفي ظهر اليوم التالي، اكتشف حمدي الصايغ ميتاً في سريره، فبكت زوجته، وبكى ابنه، وبكى أقاربه وأصدقائه.

وعزى حمدي من ثيابه، ومدد على لوح خشبي، وشرع رجل ما في غسل جسم حمدي بالماء والصابون، فقال حمدي له متوسلاً: «لا تجعل ماءك حاراً أو بارداً، فجسمي يفترسه الألم».

ولما انتهى الرجل من غسله، ابتداءً يلفه بكفن أبيض، فقال له حمدي: «تمهل حتى أرى وجوه أهلي، فهذه آخر مرة أراهم فيها».

فلم يأبه الرجل لحمدي. وتعاون عدد من الرجال على حمل جسد حمدي، ووضعوه في نعش، ثم حملوا النعش على أكتافهم، فصاح حمدي: «لا داعي إلى العجلة. أريد سماع أصوات أهلي وأصدقائي وجيران، فاني اليوم أفارقهم فراقاً لا لقاء بعده».

وحمل النعش إلى المقبرة، ووضع على أرضها بينما كانت الولاويل تتعالى، ثم أخرج حمدي من النعش، ووضع في داخل حفرة، فصاح: «لا تتركوني وحيداً».

فلم يبال به أحد، وغُطيت الحفرة بقطعة من الرخام، ثم انهال فوقها التراب والحجارة، فأغمض حمدي عينيه، وانتحب طويلاً. وعندما فتح عينيه خيل إليه انهما ظلنا مغمضتين عشرات السنين على الرغم من ثقته بأن وجوده في القبر لم يستمر سوى وقت قصير، وتطلع إلى ما حوله بفضول، فأدهشه أن يبصر جهاز هاتف، ووجد يده تمتد إلى السماعة وتمسكها وترفعها إلى أذنه اليمنى، وتدير اصبعه قرص الهاتف، فأتاه صوت رجل خشن، فقال له حمدي: «من أنت؟».

:- «لماذا تسأل؟».

:- «أريد زوجتي».

:- «لا بد من أنك أخطأت في الرقم».

- :- «أليس هذا بيت حمدي الصايغ؟».
- :- «صحيح. هنا بيت حمدي الصايغ».
- :- «ومن يتكلم؟».
- :- «حمدي الصايغ».
- :- «ولكني أنا حمدي الصايغ».
- :- «صحيح ما تقوله، ولكنك أنت الآن ميت لأنك غير جدير بالحياة بينما أنا حيّ لأنني أستحق أن أظل حياً».
- :- «ما هذا المزاح؟ ناد زوجتي لأتكلم معها».
- :- «لماذا تريدها وأنت تشمئز منها؟».
- :- «لا تتدخل في ما لا يعنيك».
- :- «زوجتك غير موجودة».
- :- «أين هي؟».
- :- «طلقتها، ولا أعلم كيف تحملتها كل هذه السنين، فهي ثرثرة سمجة صفراء، كتلة من اللحم الرخو المتغضن المقرف».
- :- «وابني؟ أين هو؟».
- :- «غير موجود».
- :- «أهو في الجامعة؟».
- :- «لا لا.. أخرجته من الجامعة».
- :- «ماذا تقول؟».
- :- «لماذا تصرخ مستنكراً كأن تركه الجامعة جريمة؟».

:- «ماذا يفعل الآن؟».

:- «يحيى كما يشاء.. يسكر يقامر يسرق يحتال يلاحق النساء».

:- «كيف تفعل هذا بزوجتي وابني؟».

:- «أنا حر، أفعل ما أرغب فيه، فالزوجة زوجتي، والابن ابني».

:- «أنت بالتأكيد ابليس».

:- «لا لا.. أنا الذي يعرف كيف يعيش ويتمتع بالحياة، وأنا الأب المثالي الذي يحرص على أن يحيى ابنه حياة سعيدة. بالأمس أحضرنا مومساً جميلة الى البيت وتسلينا نحن الثلاثة كثيراً. قلنا لها: نحن نحب التمثيل. قالت: أنا أيضاً أحب التمثيل وأمنيته أن أصبح ممثلة مشهورة. قلنا لها: ما رأيك في أن نمثل الآن؟ أنت ستمثلين دور الفتاة البريئة ونحن ستمثل دورى ذئبين بشريين يهجمان عليك ويمزقان ثيابك ويغتصبانك بينما أنت تقاومين. قالت: أنا موافقة ولكن ثيابي.. فقاطعناها قائلين اننا سنشتري لها ثياباً أغلى وأفخر وأجمل، وانقضضنا عليها، ومزقنا ثيابها بينما كانت تقاوم بأقصى ما تملك من قوة، ولكن التمثيلية انتهت نهاية غير متوقعة، فابني الذي هو ابنك ضغط بأصابعه على عنقها بعنف فخنقها».

:- «وماذا فعلتما بالجثة؟».

:- «أية جثة؟».

:- «جثة المومس».

:- «لا وجود للجثث، فالمومس الحبيثة كانت ممثلة رائعة تصنعت الموت وخذعتنا».

:- «ومتجري.. لا بد من انك استوليت عليه وتشتغل فيه».

:- «ولماذا أشتغل؟ لقد بعته».

:- «وأموالي في المصارف؟».

:- «أوشكت أن تنفذ، فابنك وأنا مبذران مسرفان، نحن نعرف كيف نحيا، أما أنت، فلم يكن في حياتك سوى العمل وجمع المال بمختلف الوسائل. ولم تعرف يوماً مسرات الدنيا».

فأقلت حمدي الصايغ سماعة الهاتف، وأغمض عيني، ولم يحاول فيما بعد أن يفتحهما، وظلنا مغمضتين.

عنبرة
النفطي

كان رجل الأعمال المعروف عنترة العبسي يحوص في منزله في منطقة الـ«ماي فير» بلندن، متجهم الوجه، قلقاً، متوتر الأعصاب، يرمق بين الفينة والفينة جهاز الهاتف بسخط لا يخلو من رجاء، فهو ينتظر مكالمة من مدير مكتبه بباريس كي يبلغه نتائج صفقة ينظر إليها على أنها صفقة العمر، وإذا ما تحققت فلن يقبل أن يكون أغنى الأغنياء خادماً من خدمه. وبغته رن جرس الهاتف، فهرع اليه بلهفة، ورفع سماعة الهاتف الى أذنه وفمه، وقال: «آلو»، فلم يسمع صوت مدير مكتبه كما كان يتوقع انما سمع صوت امرأة يقول متسائلاً: «من المتكلم؟».

عنترة: «من تريدين؟».

المرأة: «أريد التكلم مع السيد عنترة».

عنترة: «أنا عنترة».

المرأة: «أنت عنترة؟ غريب! كيف لم أعرفك؟ صوتك

تبدل كثيراً، كان في السابق خشناً، فصار الآن ناعماً
كصوت البنات».

عنترة: «ومن أنت؟».

المرأة: «ألم تعرفني؟ لا لا. أنا عاتبة عليك».

عنترة: «من أنت؟».

المرأة: «أنا عبلة».

عنترة: «أية عبلة؟ عبلة الخوري المديعة؟».

عبلة: «أنا عبلة.. عبلة ابنة عمك التي كنت تحبها
وتنظم لها الأشعار وتخوض المعارك دفاعاً عنها».

عنترة: «غير معقول! لقد ظننت أنك مت».

عبلة: «لن تبدل أبداً. ستظل فظاً. أهكذا يتكلم العاشق
مع حبيبته السابقة؟».

عنترة: «لا يحق لك الزعل لأنني منذ سنوات كثيرة لم
أسمع عنك أيّ خبر. من أين تتكلمين؟».

عبلة: «من «مارييا» حيث أصطاف كل سنة مع
زوجي».

عنترة: «وما الذي جعلك تتذكريني بعد كل هذه
السنين الطويلة؟ هل اشتقت إليّ فجأة؟».

عبلة: «المسألة ليست مسألة تذكر واشتياق. المسألة
تنحصر في أن زوجي شديد الغيرة عليّ».

عنترة: «انه رجل شهم، وكل رجل ذي كرامة يغار على
زوجته».

عبلة: «ولكنه يغار منك».

عنترۃ: «ماذا تقولین؟ زوجک بالتأکید مجنون. هل یظن اننا نلتقي خفية حتى يغار؟».

عبلة: «لا لا. هو عاقل جداً ویثق بی وبأخلاقی ثقة عمیاء، ولكنه یغار بسبب تلك الكتب الكاذبة التي تحكي عن قصة حبنا حکياً ملفقاً لا صحة له».

عنترۃ: «أرجوك. قولي لي ما تريدین باختصار لأنني أنتظر مکالمۃ هاتفیۃ جد مهمة».

عبلة: «مسکینه أنا. كنت أظن انک ستجبن فرحاً حين تسمع صوتي».

عنترۃ: «ظنک صحيح. سأجن جنوناً خطراً إذا لم تختصری فی الكلام. لا وقت لديّ أبده فی الثروة مع نساء. وقتي كله مكرس للعمل. أنا مستعد لخدمتك إذا كان لديك ما ترغبین فی بیعه أو شرائه، وأي حديث آخر أعتذر عن عدم سماعه».

عبلة: «سمعت انک صرت مليونيراً».

عنترۃ: «هذا غلط. أنا لست مليونيراً. أنا ملياردير».

عبلة: «وسمعت انک تملك بنکاً».

عنترۃ: «وهذا أيضاً غلط. أنا أملك أربعة بنوك لا بنکاً واحداً».

عبلة: «وسمعت شائعات تزعم انک جمعت ثروتک من تهريب السلاح وبيعه فی السوق السوداء».

عنترة: «لا تصدقي كل ما تسمعين. ثروتي جمعتها لا عن طريق تهريب السلاح وبيعه بل عن طريق تهريب المخدرات. تهريب المخدرات يحول الألف دولار مليون دولار».

عبلة: «ما هذا؟ أتحدث عن الدولار ولا تتحدث عن الدرهم والريال والدانق والدينار؟ هل تنكرت أيضاً لجنسيتك العربية؟».

عنترة: «لا تتسرع في قذف الاتهامات يمنية ويسرة على الطريقة العربية. تطوري يا امرأة. الى متى ستبقى عقليتك متخلفة متحجرة؟ رجل أعمال شهير مثلي لا يلق به أن يكون ذا جنسية واحدة فقط إذ سيتهم بالشفونية وضيق الأفق وقلة الذكاء. في دروج مكثبي العديد من جوازات السفر، وكل جواز سفر يثبت أنني ولدت في دولة من الدول العظمى، ولست بالمخطيء، فالجواز العربي ينظر اليه برية حتى في المطارات العربية والحدود العربية، أما الجواز الأجنبي فهو مكرم موقر مبجل».

عبلة: «يقال انك تنجح في صفقاتك وتجنّي الأرباح الطائلة لأنك تدفع الرشاوي بسخاء».

عنترة: «هذا كلام أعداء يأكلهم الحسد. أعوذ بالله. أنا لا أقدم أية رشاوي. أقدم أحياناً بعض الهدايا. والهدية لا ترد لأنها تعبير عن الايمان بأن الانسان لم يخلق إلا ليساعد أخاه الانسان».

عبلة: «إنني أرى باستمرار صورتك منشورة في المجلات».

عنترۃ: «ما الغرابة في الأمر؟ أنا مشهور بأعمال البر والاحسان، والمجلات تنشر صور المشهورين أمثالي».

عبلة: «ولكن الصور المنشورة لا تشبهك، فهي لرجل أبيض الوجه، أزرق العينين، أشقر الشعر. وأنا أعرفك رجلاً أسود البشرة، غليظ الشفتين. هل نسيت سخريتي من شعرك الشبيه بالشوك؟».

عنترۃ: «وهل نسيت أن العلم قد تطور، ومن يمتلك المال ينل كل ما يشتهي؟».

عبلة: «أما زلت تحتفظ بسيفك الذي كنت تعتر به وتستخدمه لحماية القبيلة من أجل الحصول على ابتسامة مني؟».

عنترۃ: «ولماذا أحتفظ به؟ بعته لرجل أجنبي من هواة جمع الآثار العتيقة، وسعدت لأنني تخلصت منه، فأنا لا علاقة لي البتة بالقتال، ومن يحب القتال فليقاتل حتى يهلك، أما أنا فشديد الحرص على بقائي حياً كي أستمتع بأموالي».

عبلة: «ما دمت مهماً الى هذا الحد، فينبغي لك أن تفعل شيئاً من أجل تصحيح حكاية حينا».

عنترۃ: «ماذا تقترحين أن أفعل؟ هل أمنع الناس من الكتابة؟».

عبلة: «قل الحقيقة فقط. أأنت ثرياً؟ ما أكثر الكتاب المستعدين لكتابة كل ما تشاء شرط أن لا تكون بخيلاً معهم. قل لهم ما جرى فعلاً بيننا. قل لهم اننا افترقنا

لأسباب لا علاقة لها بالأهل والقبيلة والاختلاف في المستوى الاجتماعي».

عنترة: «هل تريد أن أدعو مراسلي الصحف العالمية وأحكي لهم عن أمور غرامية تافهة؟».

عبلة: «أتصف قصة حبنا بأنها تافهة؟».

عنترة: «إنها أكثر من تافهة. مجرد نزوة مراهقين انتهت بالخلاف والفراق».

عبلة: «ومن كان المسؤول؟ لا أحد غيرك. كنت دائماً كلما التقينا نتعمد أن تشتم الفنان الكبير فريد الأطرش».

عنترة: «وأنت أيضاً كنت تسبين سعاد حسني ونادية الجندي وشادية كلما سنحت لك الفرصة من غير أن تبالي بمشاعري».

عبلة: «أنا حرة أقول ما أشاء. الحمد لله لأنني لم أتزوجك».

عنترة: «لو تزوجتك لشنقت نفسي بعد يومين».

عبلة: «ليمتني تزوجتك حتى أقدم لك مجاناً الحبل الذي ستشنق به نفسك».

عنترة: «لو تزوجتك لظللت حتى يوم موتي أستقبل وفود المعزين».

عبلة: «لو تزوجتني لحسدك رجال الأرض».

عنترة: «ما زلت كما أعرفك مغرورة تافهة سخيفة».

عبلة: «وأنت ما زلت غيباً سمجاً غليظاً قبيحاً».

عنترۃ: «اخرسي...».

ووجد عنترۃ يده تعيد سماعة الهاتف الى مكانها بحركة نزقة، وشرع يفكر في كيفية الثأر من عملة الوقحة، وقرر أن يعطي أصدقاءه من الصحافيين صوراً لعبلة في أوضاع شائنة، ولكن رنين جرس الهاتف جعله ينساها نهائياً، وكان المتكلم مدير مكتبه بباريس، وقد أبلغه أن رغبته في شراء جمهورية قد تحقق، ووافق قائد جيشها على أن يقوم بانقلاب عسكري، وأن ينصب نفسه حاكماً يتلقى توجيهاته سرّاً من ولي أمره، فضحك عنترۃ، وقال: «أبلغ الجنرال أنني ديموقراطي، وأريد بعد الانقلاب أن ينتخبه الشعب رئيساً».

قال مدير المكتب متسائلاً: «وكم تريد أن تكون نسبة المشاركين في الانتخابات، ونسبة المؤيدين والمعارضين؟».

قال عنترۃ: «هذه شؤون ثانوية سأفكر فيها فيما بعد».

وتخيل عنترۃ الكرة الأرضية يحكمها جنرالات يأتمرون بأمره، وغمرته بهجة عارمة، فما تخيله سيتحقق، فكل جنرال ووطن ثمن ما يزيد أو ينقص لاعتبارات تتعلق بالعرض والطلب في السوق الدولية.

المغارة

تكلمت الشمس في آخر النهار، وقالت: «آن وقت رحيلي».

فنظر ابراهيم إليها بحنق، وعاد الى مغارته أسفاً خائباً إذ لم يوفق في صيد أرنب أو غزال أو طير، فوجد عائشة مرحة الوجه، تقف أمام مرآة، تمشط شعرها الأسود الطويل، مترنمة بلحن شبيه بماء يركض نحو بحر، فقال لها بنزق: «اتركي المشط. أنا جائع، وأريد أن آكل فوراً».

قالت عائشة بهزة: «قل هذا الكلام في مطعم. هنا لا يوجد أي طعام».

قال ابراهيم مقطب الجبين: «وأين قطعة اللحم الكبيرة التي تركتها صباحاً؟».

قالت عائشة: «أنسيت أنني مثلك أجوع وأكل؟».

قال ابراهيم: «وأنا ماذا سأكل؟».

قالت عائشة وهي تتابع تمشيط شعرها بحركات مزهوة: «ماذا أفعل؟ أنت مضطر الى النوم بلا أكل».

احمر وجه ابراهيم، وهم بالكلام، ولكن عائشة قالت له مازحة: «اسمع لا داعي الى الغضب. لدي حل يعجبك. ما دمت جائعاً ومضراً على أن تأكل، فهيا كلني إذا كنت تحبني».

قال ابراهيم متسائلاً بدهشة: «ماذا تقولين؟ أنا آكلك؟ أتظنين أنني وحش مفترس؟».

قالت عائشة بلهجة عتاب: «تعودت دائماً سماع مدحك للحمي. أكنت تكذب علي؟».

فأهوى ابراهيم على عائشة بفأسه التي كان يحملها، واختار قطعة لحم طرية، وأكلها نيئة، ثم حمل ما تبقى ودفنه في التراب خارج المغارة.

وبعد أسابيع عندما جاء الربيع، تنبه ابراهيم الى نبتة غريبة الشكل انبثقت من التراب الذي كان يغطي جثة عائشة، وما لبثت النبتة أن نمت، وكبرت بسرعة، وصارت شجرة خضراء، تزهر ولا تثمر.

وكانت الشجرة كلما هبّ الهواء وحرك أغصانها، انبعث من جوفها صوت يشبه صوت عائشة، وكان الصوت ينادي: «ابراهيم... ابراهيم...».

ومنذ ذلك الحين، ما إن يستسلم ابراهيم للنوم حتى يرى عائشة سحينة في جسم الشجرة، تنتحب، وتطالبه بانقاذها، فيصحو من نومه مضطرباً لا عنأ كل النساء، ثم اضطر ذات يوم الى الهرب من المغارة والعيش في مدينة نائية.

وبينما كان يسير يوماً في شارع مزدحم لمح امرأة تشبه عائشة، فحملق اليها.

كانت امرأة بيضاء، ممشوقة القوام، جميلة الوجه والجسد، وذات شعر أسود طويل.

قالت المرأة لابراهيم: «من أرى؟ ابراهيم؟».

قال ابراهيم: «من أنت؟ وكيف عرفت اسمي؟».

قالت المرأة ضاحكة: «ألا تعرف المرأة رجلها الذي عاشت معه طوال أعوام؟».

قال ابراهيم مبهوراً: «أأنت عائشة؟».

قالت المرأة: «لماذا تستغرب؟ أنا عائشة».

ونظرت اليه بعتاب، وقالت له: «ألم تحن إلي؟».

قال ابراهيم: «ستعرفين الجواب حين تغادر هذه المدينة ونرجع الى المغارة».

ولما وصلا الى قرب المغارة، لاحظ ابراهيم ان الشجرة اختفت.

وعاش ابراهيم وعائشة في المغارة سعيدين، ولكن عائشة لم تنس فعلة ابراهيم، وانتهزت ليلة كان فيها نائماً نوماً عميقاً وثارت منه من غير أن تفقده حياته، فأطلق صرخة ألم ورعب مدوية بينما كانت عائشة تضحك بمرح ملطخة القم بالدم.

وخسر ابراهيم، وخسرت عائشة، وانتظرا الربيع بلهفة.

يا سامع الدعاء!

حث محمد حصانه على الجري السريع إذ
ينبغي له الوصول الى القرية في الوقت
المناسب قبل أن يضيع كل شيء.

وجرى الحصان بأقصى قوة عبر سهل فسيح توشك
الشمس أن تشرق عليه وتغمره بضياؤها. وما إن دنا محمد
من القرية حتى رأى دخاناً أسود كثيفاً يتصاعد من بيوتها،
فقال لنفسه قانطاً: «ضاع كل شيء».

وترجل عن حصانه، وربط مقوده الى جذع شجرة،
وركض الى القرية.

كانت البيوت تحترق بينما النساء يولولن، والأطفال
يتواثبون فزعين فرعاً لا يخلو من مرح، والرجال يتصايحون
حيارى لا يدرون ماذا يفعلون.

وصاح أحد الرجال مخاطباً محمداً: «أترى يا شيخ
محمد أية مصيبة حلت بنا؟».

فقال محمد له: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

وقال رجل آخر لمحمد: «انظر يا شيخنا. تعب العمر كله كأنه لم يكن».

فقال محمد له: «لا حول ولا قوة إلا بالله. المهم أنك بخير وعائلتك بخير».

وحديث محمد إلى النساء الباقيات، وازداد ندمه، فلو لم يصل صلاة الفجر وينهيها بالتضرع إلى الله بأن يحرق القرية عقاباً لأهلها الفاسدين المفسدين لما حدث ما حدث، ولكن أهل القرية بدوا لعينيه في تلك اللحظات مساكين جديرين بالشفقة والثناء.

وأشرقت الشمس على قرية بيوتها تحترق، ومسجدها يحترق، ولكن بيت أفسق النساء المتزوجة من أسفه الرجال ظل سليماً لم تمسه أية نار، فنظر محمد إلى السماء بعينين حائرتين ثم خلع عمامته عن رأسه، فإذا هي ملطخة بالسواد.

الخارجون
من الكف

■ الأول

صرخنا: «يا الله»، وذرفنا دموعاً رجونا أن
تعيد إلينا من لن يعود، ولم يكن باب بيتنا مفتوحاً، ولم
نعرف كيف دخل إليه ذلك الرجل الغريب العجوز.

كنا متحلقين حول أمنا الميتة المسجاة على السرير نبكي،
ونظرنا بدهشة وخوف واستنكار إلى الرجل العجوز من
خلال دموعنا، فسألنا عما بنا، فقلنا له إن أمنا قد ماتت
وتركتنا أيتاماً، فبدا عليه الشك في قولنا، فأكدنا له أنها قد
ماتت، وقرر الأطباء أنها ميتة، فابتسم ساخراً مما قلناه، ولكن
بيده كتف أمنا، ففتحت عينيها، وتساءبت، ونهضت من
سريرها أكثر شباباً منا، ففرحنا فرح من كان ميتاً وعاد إلى
الحياة، ولكننا بعد قليل سألناها عما ستطهو لنا للغداء،
فضحكت وقالت إنه ليس في البيت ما يصلح للطهو،
فنظرنا إلى العجوز بخجل، فوضع يديه على بطنه قائلاً إنه
لم يأكل منذ أن وجد، فرثينا لحاله وحالنا، وشعرنا أننا أيتام
على الرغم من أن أمنا لا تزال حية، ولم يكن ما شعرنا به
وهماً.

| اليوم الجديد

كان البستان كثير العشب والشجر والماء. وفجأة انبعث صوت رجل من مكان ما يصيح بلهجة ممطوطة: «يا محمد...».

فلم أجاب أو أكرث، فاسمي هو أحمد، وبقيت قاعداً على العشب الأخضر مستنداً بظهري إلى جذع شجرة.

وفجأة انتصب أمامي رجل ضخمة الجثة، غاضب الوجه، رث الثياب، وقال لي متسائلاً بنزق: «أنت أطرش؟».

ولم أكن أعاني أية علة في أذني، فقلت له: «أنا والله الحمد سليم السمع».

قال: «ما دمت تسمع، فلماذا لم تجاب؟ يخ صوتي وأنا أنادي عليك».

قلت: «اسمي أحمد وليس محمداً».

قال: «ما الفرق بين محمد وأحمد وعبد الله؟ كلها أسماء».

قلت: «ولماذا تريد مني أن ألبي نداءك وأنا لا أعرفك؟».

قال: «أنت لا تعرفني؟ صرت الآن لا تعرفني؟».

قلت: «أنا والله الحمد قوي الذاكرة لا أنسى وجهاً رأيته في حياتي، ولا أذكر أنني رأيته من قبل».

فقال الرجل وقد تزايد حنقه: «وتزعم أيضاً أنك لم

ترني؟ لم أكن أصدق من كان يقول ان الدم يتحول أحياناً ماء وينكر الأخ أخاه».

قلت: «أنت أخي؟».

قال: «لا بد من أنك جنتت. أنا بالطبع أخوك، وكنا قبل قليل نشذب الأشجار معاً، وتركنا العمل لتستريح دقائق لأنك مزكوم».

قلت: «انظر إليّ. أنا لست أخاك، ولست مصاباً بأيّ زكام».

فأشار الرجل بسباته الى بيت من طين ليس بالبعيد عنا، وقال لي: «هل أنادي أمنا لتشهد؟».

قلت: «ربما كان أخوك يشبهني. أنا اسمي أحمد، وأشتغل معلماً في مدرسة، وجئت الى البساتين في نزهة، وأمي ميتة، ولا أخوة لي، وأعيش وحدي في غرفة استأجرتها قبل أربعة أشهر وثلاثة أيام».

فحملق الرجل إليّ جاحظ العينين، وسألني: «من أين لك هذه الثياب؟ ومن هو المسكين الذي سرقت ثيابه؟ أنت كالعادة لا تسمع النصيحة ولا تتخلى عن هوايتك بالسرقة».

قلت: «هذه هي ثيابي، واشتريتها من راتبي، ولم أسرق أحداً طول حياتي».

فضحك الرجل بهزء، وقال لي: «أتريد أن تعرفني بك؟ أنا أعرفك كما أعرف يدي».

وأردف قائلاً عابس الوجه: «هيا قم الى العمل. لا وقت لديّ أضيعه في المزاح وسماع ثرثرة مجانين».

وأمسك الرجل بي من كتفي، وشدني الى أعلى، وأرغمني على الوقوف والسير معه.

وهكذا صار لي أخ وأم وبيت وعمل جديد، ولم أعد أذهب كل صباح الى المدرسة لأعلم تلاميذي الذين اشتقت اليهم والى كتبي المتكدسة في غرفتي، ولكنني في أحد الأيام عثرت على جريدة ملقاة على الأرض، فاكتشفت أنني صرت أيضاً أجهل القراءة.

■ المهنة

كان الشرطي مستلقياً على سريره عارياً بجوار زوجته التي تأملها كأنه لم يرها من قبل، فهي جميلة وشهية، ويزداد جمالها وهي تضحك عارية، وستزداد جمالاً حين ترتجف ويتغير لون جلدها الأبيض وتطلب الرجل وتتشي. قال لها وهو يلمس لحمها الناعم بيد مرتعشة الأصابع: «ماذا سمعت اليوم من أخبار الجيران؟».

قالت وهي تمسك يده وتضعها على نهدها: «تشاجرت جارتنا ميادة مع جارتنا سلمى».

فقال لها بينما فمه يدنو من نهدها: «أسمعيني أخبار من سب الحكومة ومن ينتسب الى حزب».

قالت: «تمهل. أنت تؤلمني».

قال: «لا تغيري الموضوع».

قالت وهي تلهث: «سمعت...».

قال: «ماذا سمعت؟».

قالت: «زوج جارتنا...».

قال: «أي زوج وأية جارة؟».

قالت: «جارتنا أم محمد...».

قال: «وزوجها أبو محمد. أعرفه. ما به؟».

قالت: «صار يصلي».

قال: «زوري غداً أم محمد».

قالت: «سأزورها».

قال: «وافهمي منها بلباقة سبب صلاة زوجها. مجرد تقوى أم انتسب الى حزب؟».

فقالت له وهي ترتعد وتتشبث أصابعها بخاصرته وتمنعه من الحركة: «أمرك.. أمرك».

وتلاشى صوتها، ولم تعد تسمع.

■ الانقراض

انهارت بناية من أربعة طوابق على سكانها، فهلك الجميع البالغ عددهم زهاء ثلاثين شخصاً، ولم ينج سوى طفل واحد عمره سنة واحدة وعشرون يوماً، ولم يصب إلا ببعض الكدمات والرضوض غير الخطيرة.

وعقد الطفل مؤتمراً صحافياً في غرفته بالمستشفى قال

فيه إن سكان البناية أجمعين نالوا ما يستحقون من جزاء عادل، فكلهم جواسيس ومعارضون.

سألته صحافية شابة: «وأملك وأبوك وأخوك؟».

فقال الطفل: «أبي جاسوس لجنوب أفريقيا، وأمي عميلة للسلطات الصومالية، وأخي الكبير سفيه بذيء وقع لا يكفّ عن سبّ الحكومة، وخالتي خبيثة تتآمر سراً لتحقيق غاية مشبوهة دنيئة لم أدركها. وما حل بهم هو جزء بسيط مما يستحقونه، فكلهم كانوا يتكلمون أمامي عن مآربهم الخسيسة ظانين أنني مجرد صغير لا يفقه شيئاً».

فقال أحد الصحفيين للطفل: «علم أن المتعهد الذي شيد البناية هو المسؤول عن انهيارها لأنه غشّ في الأسمنت والحديد في أثناء البناء، وهو الآن معتقل ويجري التحقيق معه لتحديد مسؤوليته ومعاقبته حتى يصبح عبرة لغيره من الغشاشين».

فقال الطفل: «يجب أن يطلق سراحه فوراً، وما جرى له هو من غرائب الدنيا، فبدلاً من أن يشكر ويقدر ويكرم ويحاط بالاجلال يسجن تمهيداً لمحاكمته».

وبعد ذلك المؤتمر الصحفي، تبارت الجرائد في تبيان محاسن المتعهد المسجون مما أدى إلى الافراج عنه والاعتذار إليه ومعالجته طبياً على نفقة الدولة وتعيينه وزيراً للبناء مطلق الصلاحية، فكان أول قرار اتخذه هو الاستغناء عن الاسمنت والحديد اللذين لا يصنعان في البلاد ويستوردان من خارجها بالعملات الأجنبية، والعودة إلى استخدام التراب والخشب في تشييد الأبنية، فنال قراره الكثير من

الاطراء والثناء، وقيل ان الانسان قد خلق من تراب، والى التراب سيعود.. إما الى حفرة اسمها القبر، وإما الى تحت أنقاض بناية.

وكان ثاني قرار للوزير هو تعيين الطفل مستشاراً له، ولكن الطفل رفض المنصب رفضاً صارماً قائلاً انه لا يزال صغيراً، وكل ما يملكه من طاقات يجب أن يخصص للحصول عل مزيد من العلم في المدارس الحكومية، ولكنه أعلن انه حينما سيكبر يأمل في أن يصبح وزيراً للاقتصاد حتى يلغي الثياب التي تبدد مالا كثيراً من أجل غاية تافهة، وتساءل: «هلي كان جدنا آدم يرتدي ما نرتدي؟ وهل نحن أحسن منه؟ أليس العربي أروع تحقيق للمساواة؟».

فتعالت أصوات المحيطين به مؤيدة معجبة، ولكن كثيرين من الفقراء سخروا من كلامه، فما يقترحه ويطمح الى تحقيقه لا داعي اليه، فالعراة كثيرون، وتزايد أعدادهم.

■ الثالث

تلاقيا ليلاً في شارع مقفر.

كان الرجل طويل القامة ذا وجه صارم كأنه لم يتسم يوماً، وكانت المرأة مرحة، مكتنزة الجسد، لا تزال محتفظة بقليل من الجمال والجازية.

اعترضت المرأة طريق الرجل، وقالت له بالفة كأنها تعرفه منذ سنين: «إذا ذهبت معي أو ذهبت معك، فستقضي وقتاً لن تنساه طول عمرك».

وقالت المرأة له: «أسعاري في هذه الليلة متهاودة وفرصة لا تتكرر دائماً. رخصة».

وقالت المرأة له: «جرب ولن تندم. أنا لم أغش أحداً في حياتي».

وتساوما قليلاً حول السعر ثم سارا معاً صامتتين حتى بلغا مبنى كبيراً، فأشارت المرأة بسباتها اليه، وقالت بصوت هازيء: «هنا أسكن.. في غرفة».

وضحكت، وقالت: «غرفة عظيمة تتسع لسرير، ولكنها لا تصلح لسباق الخيل، وأنت كما أظن لا تريد أن تشارك في سباق للخيل بل تريد أن تركب ما هو ليس حصاناً». وعندما أصبحت في داخل الغرفة، قالت المرأة للرجل: «ما اسمك؟».

فقال الرجل باستغراب: «هل سألتك عن اسمك حتى تسأليني عن اسمي؟».

ولما استلقيا على السرير، قالت المرأة للرجل: «عانقني. أنا بردانة».

قال الرجل: «لو عانقتك لكسرت عظامك».

قالت المرأة: «أنا أحب الرجال العنيفين».

قال الرجل: «المسيحي. أنا لست مثلك. أنا من حديد».

قالت المرأة: «هذا خبر يسرني ولا يحزنني ويستحق أن يستقبل بالزغاريد، ولم أزغرد حتى لا يستيقظ الجيران محتجين مهددين باستدعاء الشرطة».

وقالت المرأة للرجل: «اسمع. أنا بصراحة جربت الصغير والكبير والضعيف والقوي والهزيل والسمين، ولكنني لم أجرب الحديد».

قال الرجل: «أنت المسؤولة عما يحل بك لأنني نبهتكَ وحذرتكَ».

قالت المرأة: «هيا لا تضيع الوقت في الكلام والمزاح». وشهقت المرأة، وتتابعت شهقاتها، وصرخت صراخ لحم يخترقه وتد من فولاذ تلاحقه ضربات متتالية من مطارق ثقيلة، ولكنها لم تحاول إبعاد الرجل عنها، وظلت يداها متشبثتين به.

وعندما استيقظت المرأة من نومها صباحاً، لم تجد الرجل بجوارها، ولم تره فيما بعد.

وبعد تسعة أشهر، أنجبت المرأة طفلاً شديداً الشبه بأبيه، ولم يقبل بأن يرضع من ثدييها الطافحين بالحليب، ورفض أن يأكل من أي طعام قدمته إليه، ولم تحاول عرضه على أي طبيب خشية من ضجيج ليست بحاجة إليه، وأدهشها أن طفلها معافى وينمو باستمرار على الرغم من أنه لا يأكل.

وفي أحد الأيام طلبت المرأة من جارة لها صبية أن ترعى طفلها إبان غيابها، ولما عادت إلى غرفتها وجدت طفلها ملطخ الفم واليدين بالدم، ويحملك إليها بنظرات جائع وعطشان، ولم تعثر على الجارة الصبية.

وألصقت المرأة ظهرها بالحائط يغمرها مزيج من الرعب

والفرح بينما كان طفلها يحبو نحوها مفتوح الفم، وله تحاول الفرار أو الاستغاثة، فطفلها لا يزال جائعا.

■ في صيف غامض

كان الصيف حاراً لزجاً ثقیلاً لا يطاق ولا يصبر عليه، فهربنا من المدينة الى قرية ملأى بالشجر وينابيع الماء، يقصدها عادة المصطافون غير الأثرياء، وتقع عند أسفل جبل يجلل الثلج قمته باستمرار.

وهناك استأجرنا غرفة واسعة في أحد البيوت تتسع لأربعة أسرة.

وكنا أربعة أصدقاء قدامى، نحيا في حارة واحدة، ونعمل في مهنة واحدة. أنا عبد الله وأصدقائي الثلاثة ناجي وسمير وطلال.

في اليوم الأول، تجولنا في طرقات القرية كلها، وجلسنا في مقاهيها، وأكلنا في مطاعمها، وتعرفنا الى الكثير من رجالها ونسائها وأطفالها، وسهرنا حتى آخر الليل وضحكنا أكثر مما نضحك في سنة كاملة، ولما عدنا الى غرفتنا اتفقنا على أن يومنا كان من أجمل الأيام.

وفي اليوم الثاني فوجئنا باختفاء صديقنا طلال، فبحثنا عنه في كل مكان، ولم نجده، فقلقنا عليه أشد القلق خصوصاً وأن وسيلة النقل العامة الوحيدة من القرية الى المدينة ليست سوى باص واحد يغادرها صباحاً ويرجع اليها مساءً، وتضاءل فرحنا، وظل اختفاء طلال الغريب موضوع أحاديثنا حتى نمنا النوم المضطرب.

وفي اليوم الثالث ظهراً اختفى صديقنا سمير، ففتشنا عنه، ولم نترك أحداً في القرية لم نسأله عنه حتى أوشكنا أن نسأل عنه دجاج القرية، ولكننا لم نسمع جواباً يطمئن البال أو ينبيء بما جرى له.

وفي اليوم الرابع مساءً اختفى عبد الله، فبحث ناجي عنه، وراجع مخفر الشرطة، فقال له رجاله انهم لا يملكون أية معلومات عن شخص بهذا الاسم، وهو غير مسجون عندهم.

ولم تسفر جهود ناجي عن أي توفيق، وبحثت أنا أيضاً عن عبد الله مثلما بحث، ولم أوفق إلى العثور عليه، واستغربت ما حدث له، فهو وديع مسالم، لا مال لديه يغري لصوصاً، ولا أعداء له قد يخططون لاختطافه أو اغتياله، فحزنت أياماً ثم اعتبرت ما جرى أمراً عادياً.

■ الخزن العربي

أراد سرحان العاصي شراء جوارب جديدة بدلاً من جواربه التي اهترأت وباتت مخجلة وملأى بالثقوب، فدخل أول مخزن صادفه في أثناء سيره في الشارع، وكان مخزناً كبيراً، ولكن سرحان العاصي بوغت بأن الخزن لا يحوي سلعاً كالتي اعتاد أن يراها في مخازن أخرى، فلا ثياب، ولا أحذية، ولا أثاث، ولا عطور، ولا تلفزيونات، ولا أدوات للمطبخ، فدهش، وتجمد في مكانه حائراً محملاً إلى ما حوله ببلاهة، فلاحظ ما به أحد موظفي الخزن، وكان قصير القامة، بدنياً، ذا وجه ودي، باسم

دائماً، وقد دنا بخطى سريعة من سرحان العاصي، وخاطبه كأنه صديق قديم: «هذا أمر عادي. ولا داعي الى أن تشك في عينيك، فكل من دخل مخزننا أول مرة تصرف مثلك، فمخزننا ليس كالمخازن الأخرى، وهو مختص ببيع ما لا يمكن أن يباع في مخزن آخر، وهذه مزية مخزننا، وبفضلها حصل على شهرته وسمعته العطرة وثقة الزبائن، ولم يشك أحد في أي يوم من غش. لدينا كل شيء، وكل شيء للبيع ما دمت تملك الثمن المطلوب، وأسعارنا معقولة لا تراحم. ومن الممكن الشراء بالتقسيط المريح على سنتين».

قال سرحان العاصي: «وماذا تبيعون؟».

قال الموظف: «لدينا كل شيء: أمراء.. أميرات.. ملوك.. أوطان.. بحار.. رجال.. أطفال.. أنهار، ولدينا رؤساء جمهوريات ووزارات ووزراء ونواب. ولدينا تشكيلة لا تضاهي من النساء ترضي كل الأذواق: شقراوات، سمرات، بدينات، نحيلات. ولدينا نساء خاصات للشبان ذوي الدم الساخن.. نساء كلما أعطين طلبن المزيد. ولدينا نساء حوامل في الشهر التاسع. غيرك يزرع ويتعب وأنت تحصد بلا عناء. وكل امرأة لها بالطبع سعر مختلف حسب جمالها وخبرتها وثقافتها وشهادتها، فالجاهلة الأمية سعرها أقل بكثير من سعر المتخرجة من الجامعة، وطاعة المرأة للرجل تلعب دوراً مهماً في تحديد سعرها».

وقال الموظف وهو يشير الى رجل صارم الوجه: «انظر الى هذا الرجل. انه حاكم للبيع، يستطيع اخضاع أي شعب مهما كان عاصياً ويجعله في أشهر مجموعة من

الخراف والأرانب. انظر الى هذا الأمير. إذا اشتريته وأتحت له الظروف المناسبة استطاع أن يعطيك كل تسعة أشهر أميراً جديداً. ألا ترى انها صفقة نادرة؟ تشتري أميراً واحداً فيصبح لديك بعد سنوات مجموعة من الأمراء والأميرات، تبيعها وتحقق أرباحاً لا تصدق. انظر انظر الى هذا الملك المهاب. هل تريد أن تشتريه؟ ما أبهاه! انه يقطر جلالاً. إذا جلس على كرسي العرش وجاء السياح جنيت ثروة طائلة».

وأشار الموظف الى خارطة كبيرة معلقة على الحائط، وقال: «هذه بلاد معروضة للبيع أرضاً وناساً. ادفع السعر المطلوب تصبح مالكةا، ولا أحد فيها يتنفس إلا بأمرك».

وأشار الموظف الى صورة ملونة لبحر، وقال: «وهذا البحر معروض للبيع. أسماكه كلها لك، ولا سفينة تجرؤ على عبوره إلا إذا دفعت لك الأجر الذي تطلبه. من المؤكد ان شراء هذا البحر استثمار ناجح للمال مردوده مضمون».

وأشار الموظف الى رجل بدين، وقال: «هذا أمير لا أنصحك بشرائه، فهو لا يتوقف عن الأكل، ولا يقبل إلا بأفخر الأطعمة وأغلاها. كلفته باهظة ومردوده لا شيء».

وتنبه الموظف الى أن أحد الزبائن يشير اليه طالباً منه المجيء اليه، فقال لسرحان العاصي: «أعذرني دقيقة. هذا زبون لدينا قديم.. رجل مليونير يلعب بالمال لعباً».

وهرع الموظف نحو الزبون، وتحدث اليه ثم عاد الى سرحان العاصي مهتلل الوجه، وقال له: «جاءتك فرصة لا تسنح دائماً. هذا المليونير أعجب بك منذ النظرة الأولى، ويرغب في شرائك. وإذا وافقت فلن نختلف على السعر».

قال سرحان: «إذا اشتراني، فماذا سيفعل بي؟».

قال الموظف ضاحكاً: «هذا سؤال غريب فعلاً. حين تشتري رغيف خبز هل يسألك الرغيف ماذا ستفعل به ويفرض عليك شروطه؟ لماذا أنت ساكت ومتردد؟ أنا نفسي أتمنى أن يشتريني واحد مثله».

قال سرحان: «أنا أبيع وأشتري؟».

قال الموظف: «لا تتسرع وفكر في الفائدة التي ستجنيها. ستضع ثمنك في البنك. وكل سنة سيعطيك البنك فوائد على أموالك المودعة لديه، وبعد سنوات تجد أن أموالك قد تضاعفت وصرت من الأغنياء».

قال سرحان: «وكم سنة سأظل ملكاً له؟».

قال الموظف: «هذا موضوع سيناقش ويتفق عليه قبل اتمام صفقة البيع. أظن انه يريد الشراء لمدة عشر سنوات. كم عمرك الآن؟ ثلاثون سنة أو أقل. تخيل ما سيحدث. بعد عشر سنوات حين يصبح عمرك أربعين سنة تعود كما كنت بالاضافة الى ثروة تتيح لك التقاعد والعيش براحة. اسمح لي بأن أكون فضولياً وأتدخل في شؤونك الخاصة. ما عملك؟».

.. «موظف في إحدى الدوائر الحكومية».

.. «أي انك تشتغل في الشهر ثلاثين يوماً، وكل يوم تشتغل على الأقل ثماني ساعات، ورؤساؤك لا يرضون عن عملك ويؤنبونك ويوجهون اليك كتب الإنذار والتوبيخ والحسم من الراتب، وينظرون اليك من أعلى كأنك أقل

قيمة من ذبابة، وفي آخر الشهر تعطى راتباً لا يكفي لاشباعك».

:- «أنا خريج جامعة، وكنت في دراستي متفوقاً».

:- «أفحمتني. أعرف خريجي جامعات يعملون في الصيف بائعي بطيخ، وفي الشتاء بائعي شوندر. قل لي هل أنت متزوج؟».

:- «لا. أنا عازب».

:- «هل تحب أحداً؟».

:- «لا».

:- «استخدم عقلك. ألا تلاحظ أن حياتك غير جدية بالحرص عليها بينما إذا وافقت على أن تباع استرحت وتخلصت من كل مسؤولية، فهناك من يؤمن لك النوم والأكل مجاناً، وليس لك سوى أن تفعل ما يطلب اليك؟».

:- «وماذا سيطلب مني؟».

:- «ليس من تقاليد مخزننا سؤال الزبون عما يريد أن يفعل بالسلعة التي نشتريها، ولكن مشتريك لن يطلب منك الصعود مشياً إلى القمر. مجرد طلبات غير مستحيلة تستطيع تنفيذها».

:- وإذا تمت عملية البيع، فماذا يستفيد مخزنكم؟».

:- «لنا نسبة مئوية من ثمن كل سلعة نبيعها».

وعندما غادر المخزن الرجل الغني الراغب في شراء

سرحان العاصي، كانت السلعة التي اشتراها ودفع ثمنها نقداً تتبعه محنية الظهر والرأس، متعثرة الخطى ومن دون أن تشتري ما كانت تحتاج إليه من جوارب جديدة.

■ النهاية

ينتظرني أصدقائي في المقهى.

تنتظرني حبيتي قبالة إحدى دور السينما.

تنتظرني الأشجار في الشوارع.

ينتظرني الورد العطشان في حديقتي الصغيرة.

تنتظرني في بيتي قطتي الجائعة وكتبي التي لم أقرأها بعد، ولكنه يأمرني أمراً لا يعصى، فأطيعه، وأتبعه، فيبتسم بتشف، يقول لي: «ها أنت أخيراً صرت ملكاً لي».

فأطلع إلى ما حولي مستغيثاً، فأبصر امرأة سوداء الشعر، تضحك بمرح وتلاعب غزلاً صغيراً، فأتعهد بارتياح غير أن رجالاً في ثياب سود ينبثقون بغتة ويطوفون المرأة، ويخنقون ضحكاتها، ويجدلون من شعرها الأسود حبلاً يشنق الغزال، فأغمض عيني، ويرتطم رأسي بالحجر الذي يسد فوهة حفرتي، فيبتل وجهي بدموعي، وأقول له بتوسل: «دعني على الأقل أودع الذين ينتظرونني».

فيقول لي بصوت أجش: «لا تكذب، فلا أحد ينتظرك، ولن ينتظرك أحد ولو عشت ألف سنة».

فأهّم بالاعتراض والاحتجاج على ما قاله، ولكنني أسكت خجلاً، ويختفي ويتركني وحيداً في قاع حفرة،

فألصق وجهي بالكفن الأبيض الناعم منتظراً الدود، وآخر
هوانٍ لن أصبر عليه هو ألا يعجب العدود بما سيأكله.

آخر
المرافق

لما حطمت العاصفة السفينة، وجد السندباد نفسه وسط بحر كقبر مظلم يتسع لملايين من الرجال والنساء والأطفال والأبنية، فأيقن انه هالك لا محالة، واستسلم للأمواج مودعاً الحياة، ولكنه فجأة اصطدم بلوح خشبي من ألواح السفينة المحطمة، فتشبث به، وحمله اللوح، وألقاه على شاطئ ماء، فأغمض السندباد عينيه، ونام فوراً.

وصحا السندباد من نومه على ضياء شمس حارة وصوت يقول مستغرباً: «ما هذا الشيء؟».

ثم سمع الصوت نفسه يقول: «لا بد من انه حيوان ميت من حيوانات البحر الغريبة قذفت به الأمواج في الليل الى شاطئ جزيرتنا».

ففتح السندباد عينيه، فرأى حماراً يقف قربهِ، فتطلع فيما حوله، وصاح: «من الذي كان يتكلم؟».

قال الحمار: «أنا الذي كنت أتكلم».

فشهق السندباد متعجباً، وصاح: «حمار يتكلم اللغة العربية الفصحى؟ كأني في منام! هذا شيء لا يصدق!». فقال الحمار باستياء: «ما لا يصدق هو أن تستطيع أنت أن تتكلم كما أتكلم أنا».

قال السندباد: «أين أنا؟».

قال الحمار: «أنت في جزيرة الحمير. ولا أحد يعيش فيها سوى الحمير».

قال السندباد: «وهل الحمير كلها هنا قادرة على أن تتكلم كما تتكلم أنت؟».

فهز الحمار رأسه بالايجاب، وشرع في التحديق الى السندباد بنظرات متفحصة، ثم سأله: «من أنت؟ لقد صرت عجوزاً ولم أشاهد في حياتي كلها مخلوقاً مثلك». قال السندباد مدهوشاً: «ماذا تقول؟ ألم تعرفني؟ أنا الانسان الذي تقول الكتب عني إني أثمن رأس مال، وأوصف بأني سيد الأرض».

فقال الحمار بنزق: «كن مؤدباً. لا سيد هنا إلا الحمير». قال السندباد ضاحكاً: «ولكن الأمر في أماكن أخرى من العالم يختلف عن جزيرتكم».

فقال الحمار بلهجة تهديد: «هيا امشِ معي».

قال السندباد: «هل هزل الزمان الى حد أنني ألتقي الأوامر من حمار؟».

قال الحمار غاضباً: «اسمع. سأرفسك بقوة إذا لم

تطعني، وتكفي صيحة مني حتى تتجمع حولك حمير لا يحصى عددها وتلقنك درساً لا تنساه».

ففكر السندباد لحظات، ثم قال للحمار: «أنا متعب، فدعني أركب على ظهرك».

قال الحمار باستنكار: «ماذا أسمع؟ أتريد الركوب على ظهري؟».

قال السندباد: «ولماذا تستغرب؟ ما طلبته منك تقوم به الحمير يومياً في بلادنا».

فقال الحمار بازدياء: «لا بد من أن الحمير في بلادكم ذليلة أو بلهاء».

قال السندباد: «والى أين ستأخذني؟ إلى رئيسك؟».

قال الحمار بلهجة من أهين إهانة بالغة: «لا رئيس لي. كل حمار هو رئيس نفسه. نحن لا نحتاج الى رؤساء وقوانين، ولا سبب يدفعنا الى النزاع والاختلاف، فمن يجع، فالعشب موجود بكثرة، وفي مقدوره أن يأكل منه حتى يشبع، ومن يعطش، فالماء العذب غزير ويشرب منه حتى يرتوي، ومن يرغب في النوم فالأرض واسعة».

قال السندباد: «إذن الى أين تريد أن تأخذني».

قال الحمار: «سأخذك الى حيث تعيش الحمير لتراك، ولا أعتقد أن حماراً من حمير جزيرتنا قد رأى مخلوقاً مثلك».

فخضع السندباد لمشية الحمار، ورافقه الى سهل كثير

العشب والماء والشجر، وتحتشد فيه أعداد عظيمة من الحمير.

وما إن رأت الحمير السندباد حتى تحلقت حوله، وراحت تحديق اليه بنظرات ساخرة، فأحس السندباد بأن نظرات الحمير لا تهينه وحده بل تهين بني البشر أجمعين، فصاح: «أنا أحتج على هذه المعاملة غير اللائقة. لماذا تتفحصوني كأني ذبابة أو جرادة أو ضفدعة؟ ينبغي لكم أن تحترموني، فأنا واحد من الجنس البشري الذي حوّل الأرض من أدغال للوحوش الى مدن زاخرة بالرقى والحضارة، ولتعلموا أن البلاد التي جثت منها بلاد عظيمة لا تقارن بجزيرتكم هذه التافهة».

فقال حمار من الحمير للسندباد: «ما دمت تتباهى ببلادك فما الذي يوجد فيها ولا يوجد لدينا؟».

قال السندباد: «وما الذي يوجد في جزيرتكم غير العشب والماء والشجر؟ في بلادى، عندنا عشب وماء وشجر، وعندنا أيضاً بيوت للأحياء ومقابر للموتى. عندنا برلمانات وانتخابات وصحف ومجلات وكتب وإذاعات وتليفزيونات. عندنا مدارس وجامعات وملاعب رياضية. عندنا أدباء وكهرباء وشوارع ووسائل وحدود بين الدول. عندنا جيوش وأسلحة من مختلف الأنواع. عندنا مركبات فضائية ورجال مشت أقدامهم على أرض القمر. عندنا سيارات وطائرات وثلاجات وثورات وانقلابات...».

فهيمن سكون غريب على الحمير، فتأملها السندباد بنظرات مزهوة.

وفجأة قال أحد الحمير: «يجب أن نعترف بأنه لا وجود في جزيرتنا لشيء مما ذكرت، ولكن هل أنتم سعداء؟».

ففوجيء السندباد بالسؤال، وأحنى رأسه، وفكر طويلاً متجهماً الوجه، وها هو ذا يرى الناس يتقاتلون على القمامة، وكل شيء للبيع وذو ثمن محدد، وحتى الإنسان يباع بأبخس الأسعار، ولا يجد من يرحب بشرائه، فالمعروض أكثر من المطلوب. كل شيء يتردى ويتدهور، فالأب يتنكر لأبنائه، والأبناء يعاملون آباءهم كأنهم خصوم ألداء، والزوجة تستشهد في سبيل زوجها إذا كان قرداً ثرياً، وتهمله إذا كان فقيراً ولا تأبه له حتى إذا كان مالكاً لكل فضائل الدنيا، والرجال نساء، والنساء رجال، والصدق مفقود محتقر، والكذب مبجل، والدعي يحتل كرسي الأصيل، والأصيل منبوذ مهان تطارده الكلاب، ودماء الأبرياء تسفك كل يوم ولا منتقم لها، والأخ يقتل أخاه إذا كان سيفوز بفردة حذاء، والفساد له الصدارة والتمجيد، والصالح يعامل كأنه قاتل أمه، والصديق وقت الضيق لا وجود له إلا في الحكايات الكاذبة التي تروى للأطفال.

وقال الحمار للسندباد: «لماذا لم تجاوب عن سؤالي؟ هل أنتم سعداء؟».

فأحنى السندباد رأسه، ولم يفه بكلمة.

وفيما بعد، بحث السندباد عن وسيلة تمكنه من الهرب من جزيرة الحمير، فأخفق، واضطر إلى العيش فيها، وتحمل الكثير من سخرية الحمير، فهو يفكر ويمشي على قدمين، وصوته ليس بالمنكر، ولكنه شيئاً فشيئاً تعود ألا يفكر إلا في

التهام العشب الأخضر الطازج، وبات يمشي على أربع،
وينهق ويرفس، فظفر باحترام الحمير، وعاش سعيداً، وتخلّى
عن التفكير في الفرار.

الخوف

منذ أن خضع للخوف، وهجر البندقية، وآثر
البقاء حياً، يعلم بأنهم سيبحثون عنه،
وسيعثرون عليه..

ويعلم بأنهم قد يدقون المسامير في يديه وقدميه،
وسيتألم المأمر غمه على النظر الى أعلى مستغيثاً، والصياح
باحتجاج: «لماذا تركتني؟»..

يعلم بأنهم قد يحرقونه حياً..

يعلم بأنهم قد يقتلونه قتلاً بطيئاً بسكاكينهم المثلومة
الحد عن عمد.

ويوم خيل اليه انهم طوقوا غرفته، اختبأ في جوف
تفاحة، ولم يحاول أن يصرخ لحظة بدأت دودة بالتهامه.

وتمكنت الدودة فيما بعد من ثقب التفاحة والخروج
منها والوصول الى حديقة، وهناك تمتع بالهواء وضياء
الشمس والعشب الأخضر، ولم يطل تمتعه إذ انقض
عصفور دوري على الدودة، وابتلعها، فابتهج إذ أصبح

قادراً على الطيران من مكان الى مكان، ولكنهم بعد أيام قليلة قبضوا على العصفور الدوري.

الاطال

■ مجالس الأدباء

كان كامل الكيلاني جالساً في مقهى اعتاد الموتى التردد اليه، وكان مستغرقاً في التفكير في السنين التي عاشها على الأرض مواطناً عريباً، فرأى أن كل ما فعله في حياته كان أمراً حسناً، وبدت له حياته سحابة مثقلة بالمطر وشجرة تمنح ثمارها في الفصول الأربعة، فابتسم راضياً، عندئذ سمع صوتاً خشناً يقول له: «أسمح لي بالجلوس معك؟».

فتطلع الى صاحب الصوت، فألفاه رجلاً ذا وجه غريب هو في آن واحد وجه شاب ووجه عجوز، فقال له مرحباً: «تفضل».

فجلس الرجل على أحد الكراسي بينما كان كامل الكيلاني يحدق اليه محاولاً تذكر متى سبق له أن رآه، فقال له الرجل: «لا تتعب عينيك، ولا تظن ان ذاكرتك قد أصبحت ضعيفة ولم تسعفك في الوقت المناسب، فأنت لا تعرفني، ولم تقابلني في أي يوم من الأيام، ولكنني أعرفك، فأنت كامل الكيلاني الأديب الذي اشتهر بكونه من أوائل

من تنبهوا الى أهمية الكتابة للأطفال، وكرست لهم الكثير من جهده حتى تمكنت من أن تقدم اليهم ما يمكن أن يشكل نواة لمكتبة لهم حافلة بكل ما هو نافع ومثقف ومسل، أما أنا فاسمي أمل دنقل، وليست سوى شاعر يؤمن بالنار التي تحرق الأوثان وصانعي الأوثان، ونظمت الأشعار لايقاظ النائمين، فأبادني المرض قبل أن أحقق غايتي، وما يؤلني هو أن عدد النائمين لم ينقص بل هو في ازدياد.

كامل الكيلاني: «لا تويخ نفسك. الكلمة مهما كانت نبيلة القصد تظل مجرد كلمة، وإيقاظ النائمين يحتاج الى دوي مدافع، والكلمة ليست مدفعا».

أمل دنقل: «قبل أن أكلمك تمتعت بمراقبتك لأنك كنت سعيداً أقصى سعادة. ولما كان السعداء في هذه الأيام أقلية والباكون أغلبية، فهل من الممكن معرفة السبب الذي جعلك سعيداً؟».

كامل الكيلاني: «السبب ليس سريراً. كنت أفكر في حياتي تفكيراً نقدياً، فوجدت أنها لم تكن بالعقيم».

أمل دنقل: «هذا رأي صحيح، فمن المعروف انك في بداية حياتك الأدبية عانيت بالتراث العربي تحقيراً ودراسة ونشراً».

كامل الكيلاني: «فعلت ما فعلت لأنني كنت أعتقد أن الاطلاع على أمجاد الماضي سيساعد على الخلاص من مساوئ الحاضر».

أمل دنقل: «ولكنك لم تستمر في هذا النهج بل انتقلت

الى الاهتمام بأدب الأطفال، وقدمت لهم نتاجاً ضخماً متنوعاً.

كامل الكيلاني: «لم أكتب للأطفال إلا لأنني تنبّهت الى أن الماضي هو مجرد ماضٍ ولن يعود، وإن الحاضر هو الذي ينبغي له أن ينال أكبر قدر من الاهتمام، وبناء الحاضر يبدأ من الأطفال الصغار، وقد حاولت في نتاجي أن أقدم الى الجيل الجديد أفكاراً اعتقدت انها ستساهم في تربية الصغار تربية تؤهلهم لأن يكونوا في المستقبل ناجحين ومن ذوي الأخلاق الحميدة».

أمل دنقل: «إتهمني بالوقاحة، ولكني سأغامر وأقول لك الحقيقة التي قد تفضيك. كتبك مهمة منبوذة، والأفكار التي كنت تؤمن بها لم تعد رسمياً تصلح للصغار بناء المستقبل، وحتى إذا كانت تصلح فهي منسية أو محاربة. الأطفال لم يعودوا أطفالاً، والخطط لافسادهم وتشويههم تحرز النجاح تلو النجاح، والصخر مهما كان صلباً سيتفتت إذا انهالت عليه بلا توقف ضربات مطارق من فولاذ».

كامل الكيلاني: «أنت بالتأكيد واحد من المتشائمين الجاهلين بحقائق الحياة البشرية».

أمل دنقل: «إذا لم تكن تصدق كلامي، فما عليك إلا أن تعود الى عالم الأحياء، وتطلع بنفسك الى ما يجري فيه لتأكد من صدقي».

كامل الكيلاني: «وهذا ما سأفعله فوراً، فقد أثرت فضولي وشكوكي».

■ مدرسة للربيع والخريف

ما إن اقترب كامل الكيلاني من مبنى إحدى مدارس الأطفال حتى بلغت سمعه صيحات مرحة منبثقة من أطفال صغار يلعبون، فابتهج، وازداد اقتناعاً بأن ما قاله أمل دنقل مجرد كلام أسود طائش، وحث خطواته ودخل مبنى المدرسة. وبعد لحظات كان واقفاً في ساحة المدرسة تحيط به مجموعة من التلاميذ الأطفال، وكان أكبرهم سناً لا يتجاوز العاشرة من العمر.

قال كامل الكيلاني للأطفال: «أحب أن أسألكم بعض الأسئلة».

فتعالت أصوات الأطفال تتساءل: «هل أنت شرطي؟ هل تعمل في الإذاعة أو التلفزيون؟ هل أنت صحفي تريد كتابة تحقيق مصور عن مدرستنا؟».

وقال أحد الأطفال لكامل الكيلاني بصوت مفعم بالعداء والتحدى: «أنا سأجوب عن أسئلتك نيابة عن زملائي. هيا اسأل عما تشاء».

كامل الكيلاني: «ماذا تتمنى أن تصبح في المستقبل؟».

الطفل: «لديّ أمنيّتان، وأنا في الحقيقة حائر لا أدري أية أمنية أختار».

كامل الكيلاني: «ما هي أمنيّتك الأولى؟».

الطفل: «أن أصبح لصاً دولياً تكتب عني الصحف كل يوم وتطاردني شرطة العالم».

كامل الكيلاني: «السرقه عيب».
 الطفل: «لو لم تكن عجوزاً لما قلت إن السرقه عيب.
 كل من لا يسرق هو غبي ولا يعرف كيف يتعامل مع
 حقائق الحياة».

كامل الكيلاني: «وما هي أمنيته الثانية؟».
 الطفل: «أن أصير طياراً».
 كامل الكيلاني: «هذه أمنية عظيمة! أنت بالطبع تريد
 أن تصبح طياراً من أجل أن تحارب الأعداء وتحمي سماء
 الوطن؟».

الطفل: «لا. هدفي الوحيد هو أن أستطيع أن أبصق
 على الدنيا من أعلى».
 كامل الكيلاني: «ومن تحب؟».

الطفل: «نجوى فؤاد ونادية الجندي وعادل إمام ودريد
 لحام».

كامل الكيلاني: «وتحب طبعاً والديك ومدرستك
 وقومك ووطنك؟».

الطفل: «عمّ تتحدث؟ أحدثك عن الثريا فتحدثني عن
 الثرى؟».

كامل الكيلاني: «ومن هو البطل العربي الذي تحترمه
 وتتخذة قدوة؟».

الطفل: «أرسين لويين وجيمس بوند».

كامل الكيلاني: «إذا رأيت أعمى يسير في طريق مملوء
 بالحفر، فماذا تفعل؟».

الطفل: «أمسك يده وأقوده الى أعماق حفرة وأدفعه كي يسقط فيها».

كامل الكيلاني: «ما رأيك في الكذب؟».

الطفل: «أهم سلاح ابتكره العلماء، ومن يستخدمه ينجح، ومن لا يستخدمه يخفق ويندم».

كامل الكيلاني: «وما رأيك في المنافقين؟».

الطفل: «انهم أروع الأذكاء».

كامل الكيلاني: «أتهوى قراءة الكتب؟».

الطفل: «ولماذا أقرأ؟ أنا مثقف بلا قراءة».

كامل الكيلاني: «هل ما قلته من أجوبة يعبر عن رأيك أم انه يعبر أيضاً عن آراء رفاقك؟».

فتصايح الأطفال معلنين انهم مؤيدون بحماسة لكل ما قاله زميلهم، فحملق كامل الكيلاني اليهم مبهوراً، ثم غادر مبنى المدرسة راكضاً بذعر، وهرع من مكتبة الى مكتبة، وشرع في جمع كتبه الموجهة الى الأطفال، ثم أحرقها بتشفٍ لا يخلو من غبطة، ولم يعلم أن الأطفال بعد خروجه من المدرسة تكلموا عنه مقتنعين أنه موظف حكومي مكلف بمهمة محددة، وضحكوا ساخرين مؤكدين أن النجاة من بطش عدو لا يعرف الرحمة تتطلب خداعه واقناعه بأن أهدافه قد تحققت.

الشمس منبوذة

أشار العالم بسببته الى قفص سُجِنَ فيه جرد،
وقال لتلاميذه المحيطين به: «هذا الجرد جائع
ولم يأكل طعاماً منذ أيام حتى بات مستعداً لأن يأكل أي
شيء يقدم له».

ثم رمى العالم للجرد فستقاً بلا قشور، فانقض الجرد
على الفستق والتهمة بنهم.

وبعد أيام، عاود العالم وقوفه أمام القفص، وقال
لتلاميذه: «الجرد الآن جائع كالمرّة الماضية، ولكنني اليوم
سأطعمه طعاماً مختلفاً».

وألقى العالم للجرد بأقذر ما يمكن أن يوجد في قمامة،
فأكلها الجرد بشراهة.

وبعد أيام أخرى، قاد العالم تلاميذه نحو قفص الجرد،
وقال لهم بصوت وقور مهيب: «اليوم يوم تجربة علمية
فريدة، فتنبهوا لها ولمعانيها. الجرد الآن أكثر جوعاً من أي
مرة سابقة».

ووضع العالم على أرضية القفص فستقاً، ثم وضع

بجوار الفستق قمامة تتصاعد منها الروائح الكريهة، فاتجه
الجرذ تواءً ودونما تردد نحو القمامة، وأكلها متلذذاً، وأهمل
الفستق ولم يأبه له.

بيروت

في ليلة من الليالي، استدعى هولاء وزيره ومهرّجه، وقال لهما: «أنا ضجر، فاقترحا عليّ ما يسليني، وإياكما وأن تقترحا الغناء أو الرقص».

فتبادل الوزير والمهرج النظرات الحاقدة، فقد كان كل منهما يكره الآخر، ويحسده على منصبه، ويدبّر له المكاييد.

قال الوزير لهولاءكو: «يا مولاي... السجنون مملوءة بالسجناء من مختلف الأمم، وهم يأكلون يومياً من طعامكم ولا يفعلون شيئاً، وقد يزول ضجرك إذا أمرت بقتلهم، وهل هناك ما يسلي أكثر من أن تتفرج عليهم وهم يموتون، بعضهم يقطع إلى أجزاء، وبعضهم يسلخ جلده، وبعضهم يحرق، وبعضهم يخنق».

فصاح المهرج: «أنا أعترض. هؤلاء المساجين أعداء مولاي هولاءكو، وإذا قتلوا استراحوا من السجن، ومن يقتلهم يحقق لهم أمنية يسعدهم الفوز بها، والموت بالنسبة إليهم عذاب لحظة يخلصهم من عذاب سنين».

قال الوزير للمهرج متسائلاً بحق: «أنتهمني بخدمة أعداء مولاي؟».

فقال هولاء بصوت أمر: «كفّا عن التشاجر، وإذا لم تعثرا فوراً على وسيلة تسليني دفتكما أحياء في التراب».

قال الوزير: «الكتب القديمة تقول إنه لا شيء يسلي أكثر من سماع الحكايات الغريبة».

فسارع المهرج إلى القول بثقة: «أنا لديّ حكاية جد غريبة، وإذا رويتها لك فقد يزول ضجرك».

فحملق الوزير إلى المهرج بغيظ بينما قال هولاء للمهرج: «هيا أسمعني حكايتك».

قال المهرج: «في غابر الأزمنة، استولى أحد الملوك على مدينة من المدن، وكان ملكاً عادلاً يؤمن بأن الانسان ولد حراً ويحق له أن يحيا حراً، فنقم سكان المدينة عليه، وتصنعوا الاستسلام لمشيئته، مصممين على العمل خفية للقضاء عليه».

فصاح الوزير مقاطعاً: «ما هذا الهراء؟ أمن المعقول ان يتذمر الناس من الحرية والعدل؟».

فقال المهرج للوزير بلهجة تأنيب: «حين تكون الحكاية تروى لمولانا هولاء، فمن الطبيعي ان يكون الناس كارهين للعدل والحرية».

قال هولاء لمهرجه: «تابع حكايتك».

قال المهرج: «ابتدأ أهل المدينة يتآمرون ضد الملك، ولكن كل محاولة للخلاص منه كانت تؤدي إلى هلاك

الكثيرين منهم، فساد القنوط، وقرر معظمهم الهرب والرحيل بعيداً، ولكنهم لم يعرفوا أرضاً خصبة يقصدونها وتصلح لأقامتهم، فقال لهم جواد أبيض: أنا أعرف مكاناً مثل المكان الذي تبحثون عنه».

قال هولأكو لمهرجه: «ما هذا الكذب؟ الجياد لا تتكلم».

قال المهرج: «الجياد كانت تتكلم، ولكنها امتنعت عن الكلام خوفاً من مولانا هولأكو».

فابتسم هولأكو، وقال: «أكمل رواية حكايتك التي يبدو انها ستريد من ضجري».

قال المهرج: «لما سمع أهل المدينة كلام الجواد، فرحوا، وقالوا له: وأين هو ذلك المكان؟ قال الجواد الأبيض: لا أعرف. فقالوا له باستياء: ما هذا الكلام السخيف؟ كيف تقول انك تعرفه ولا تعرفه؟ قال الجواد الأبيض: جدي أخبرني به قبل وفاته، وقال لي: اركض صباحاً نحو الشمس لحظة تشرق، واستمر في الركض، وحين تهوي على الأرض منهكاً فهذا دليل على انك وصلت إلى أروع مكان. فتشاور أهل المدينة مطولاً، ثم قالوا للجواد الأبيض: غداً صباحاً اركض نحو الشمس وسنتبعك. ولما أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي، ركض الجواد الأبيض نحوها بأقصى ما يملك من قوة وسرعة، وتبعه كثيرون من أهل المدينة يسرون غير آبهين لما في طريقهم من مشاق، صابرين على التعب والإرهاق، ولم يتوقفوا عن المسير إلا لحظة شاهدوا الجواد الأبيض طريحاً على الأرض يحتضر،

فتطلعوا فيما حولهم، فتبين لهم ان الجواد الأبيض وجدّه لم يكذبا، فالأرض التي بلغوها كثيرة الماء والشجر، تقع على شاطئ البحر، فقرروا الإقامة فيها، وشيدوا مدينة صغيرة تشبه زهرة وأغنية، وأطلقوا عليها اسم الجواد الأبيض، وكان اسمه بيروت.

صاح الوزير قائلاً للمهرج بنزق: «ألا تخجل من الكذب على مولانا؟ هذه الحكاية عن بيروت ملفقة، أما الحكاية الحقيقية فهي مختلفة».

قال هولاء لوزيرهم: «وما هي الحكاية الحقيقية؟».

قال الوزير: «في قديم الزمان، عاش أناس على شاطئ بحر قريب من جبل صخري شامخ، وكانوا سعداء على الرغم من أنهم كانوا لم يتكروا بعد لغة يتخاطبون بها، فصيحاتهم المتبانية علواً وانخفاضاً ورقة وحدة كانت وسيلتهم الوحيدة للتفاهم فيما بينهم، ولم يكونوا يقطنون البيوت، فحين يأتي الليل يأوون إلى الجبل القريب وينامون في كهوفه، وكان طعامهم من ثمار الشجر ونبات الأرض ومما يصيدون من الحيوان والسمك.

وفي يوم من الأيام، غطت سماءهم سحب سود كثيفة، فحدقوا إليها برعب وعجب، فالوقت صيف وليس هذا أوان قدومها، وتجمعوا جسداً واحداً مرتجفاً لحظة تعالى هزيم الرعد، ثم تساقطت من السحب بيوت ذات غرف وجدران وستوف ونوافذ، وانحدرت إلى أسفل على مهل كأنها مالكة لأجنحة قوية، واستقرت على الأرض، لتلتصق بها، وتصبح بمجموعها مدينة صغيرة وديعة، فتصايح الناس

فرحين مدهوشين، وهرعوا إليها، وأقاموا بها نابذين كهوف الجبل. وفيما بعد، تمكنوا من ابتكار لغة خاصة بهم، فأطلقوا على مدينتهم اسم (بيروت)، وكان الاسم في لغتهم السائدة آنذاك هو وصف لمدينتهم بأنها ابنة السحاب».

فتشاءب هولاكو، وقال لوزيره ومهرجه: «يا لكما من أحمقين! أتحدثاني عن بناء المدن وأنا المختص بهدمها؟ قولاً لي: ماذا يوجد في بيروت؟».

قال الوزير: «لا شيء فيها مهماً. يوجد فيها ناس وحرية وصحافة وأحزاب ودور نشر وفرصة لمن يشاء ان يحيا حياة سعيدة».

فضحك هولاكو، وقال: «غداً سأرحل إليها مع جيوشي وسأهدمها وأبيد سكانها».

ولم يتح لهولاكو تنفيذ وعيده لأن الموت وافاه في الليلة نفسها، ولكن بيروت لم تنج من الهدم والسبي والقتل على أيدي رجال يقال إنهم تفوقوا على هولاكو.

السجن العربي

قال عبد الله الكبير أحسن الله خاتمته: «لما عدت إلى حارتي، تعالى التهليل والتكبير، وزغردت النساء، وتصايح الأطفال فرحين، وتحلق الرجال حولي مهئين بعودتي سالماً، فقلت لهم باستغراب ولوم: ما بكم يا رجال؟ لماذا تستقبلوني كأني العائد من القبر؟

فقال لي واحد من الرجال: ألم تكن معتقلاً طوال ثلاثة أيام؟ لقد شاهدنا جميعاً رجال الشرطة عندما أتوا إلى بيتك وقبضوا عليك، فهل تريد منا أن نكذب عيوننا؟

فقلت للرجل: لا داعي إلى تكذيب عيونكم لأن ما رأيتموه كان صحيحاً.

عندئذ تصاعدت أصوات تتساءل بفضول: ما الذي جرى معك؟ كيف عذبت؟ كيف ضربت؟

فقطبت جبیني، وقلت لهم متسائلاً باشمئزاز: ما هذه الأسئلة الغبية؟

فقال أحد الرجال: لماذا تستغرب وتستنكر؟ أسألتنا عادة توجه إلى كل من كان معتقلاً.

فضحكت بسخرية، وقلت لرجال الحارة إن أسألتهم متخلفة فكرياً وسياسياً واقتصادياً، وتصلح لأن تستخدم فقط في المجتمعات الرجعية المعادية للتطور. وما دام مجتمعنا تقدماً ويتقدم، وحياتنا متطورة وتتطور، فمن البديهي أن تتبدل أحوال الاعتقال والسجن والتحقيق.

فقال لي رجل من رجال الحارة: هيا حدثنا عما جرى معك؟

قلت: سأروي لكم كل ما حدث لي إبان الأيام الثلاثة من دون أي كذب. عندما قبض عليّ رجال الشرطة، استولى عليّ الخوف، ولكني ما إن دخلت مخفر الشرطة حتى زال خوفي وحلّت محله الطمأنينة والمرح، فقد عزفت فرقة موسيقية السيمفونية التاسعة لبتهوفن ترحيباً بي، واستقبلني أحد المحققين استقبالاً جعلني أعتقد أنني أنا الذي فتح الأندلس، وكان شاباً وسيم الوجه، أنيق الثياب، يقطر ذكاء ورقة ودماثة ووداعة وعدوبة، وله يد إذا صفعت رضيعاً بأقصى ما تملك من قوة، فلن تبكيه. وأول ما فعله هو مصافحتي بحرارة، وابتسمنا معاً بحبور للمصور الفوتوغرافي الذي صورنا عدة صور تذكارية ملونة، ثم سمح المحقق لرجال مفتولي العضلات من هواة جمع توابيع المشاهير بالحصول على توقيعِي، ولكني لم أكن أحمل قلماً، فاضطرت إلى أن ألطخ أصابعي العشر بالحبر، وأطبع بصماتها على دفاترهم، ثم جاءت مذيعة تلفزيونية، وأجرت

معني حديثاً مسهباً حول الوسائل الكفيلة بدعم ترابط الأسرة، فامتدحت الزوجة التي لا تسمح لزوجها بأن يقبلها إلا في المناسبات الوطنية والقومية».

وقال عبد الله الكبير: «ما إن رويت لأهل حارتي ما رويت حتى حدث ما أثار خنقي إذ قاطعني أحد الرجال قائلاً لي بلهجة تأنيب وهزء: كان عليك ان تمتدح الزوج المسكين المحكوم عليه باستمرار بأن يقبل زوجته».

فصحت مهدداً: إذا قاطعني أحد امتنعت عن الكلام. فتعالت الأصوات تعاهدني على السكوت. وعندما ساد الصمت، تابعت الكلام قائلاً: وبعدئذ حاول صحافي ان يغريني بالإدلاء بتصريح مناوئ للحكومة الحالية، فرفضت ووبخته، وقلت له: لو كنت ذا ضمير حي لما عملت في جريدة ترفض الفئران قرضها، وتفضل ان تظل نقية طاهرة وتموت جوعاً.

فخجل الصحافي، وانسحب يجر أذيال الفشل والخيبة. فصاح بي رجل من أهل الحارة متسائلاً: والمحقق؟ نسيت المحقق.

فقلت: لكم أتمنى لو يتاح لي قبل موتي أن ألتقي والديه حتى أهشهما على تربيتهما الرائعة! تصوروا ما جرى. أشار المحقق إلي كرسي وثير راجياً ان أجلس، فقلت له: عشت واقفاً وسأموت واقفاً.

فامثل لرغبتني توأ، واحمر وجهه خجلاً وأسفاً، وقال لي: أنت تعرف أنني لست سوى موظف ينفذ الأوامر التي

يصدرها رئيسه، ورئيسي له رئيس، ورئيس رئيسي له رئيس.

فتشاءبت ضجرًا، وقلت له: لماذا لا تقول ما تبغي قوله بلا لف ودوران؟ اسألني أي سؤال، وسأجوب عنه بصراحة وصدق وجرأة.

قال المحقق: كل ما أبغيه ويبغيه رئيسي ورؤساؤه هو معرفة السبب الذي جعلك ترفض الزواج وتصر على أن تظل عازبًا.

قلت بدهشة: وما علاقة الدولة بحياتي الجنسية؟

قال: أنت مواطن واع لا تجهل أن الدولة الحريضة على مصالح مواطنيها لا بد لها من أن تعنى بمستقبل الوطن، ومستقبل الوطن يصنعه الأطفال خصوصاً الأطفال أبناء المواطنين الصالحين، ولذا فمن واجبها تشجيع المواطنين الصالحين الواعين سياسياً أمثالك على أن يتزوجوا وينجبوا البنين والبنات.

قلت: سأبقى عازبًا. هذا قرار اتخذته، وسأظل ملتزمًا به طول حياتي.

قال المحقق: لماذا؟ نريد فقط معرفة السبب.

قلت: لن أحكي عن الأسباب.

قال: هل مررت بقصة حب انتهت بالاخفاق؟

قلت: لا. لم أحب أحداً، ولا أحد أحبني.

فقال المحقق وهو يتسم بمرح ومكر: هل السبب من نوع لا يمكن البوح به؟

قلت مرفوع الرأس: إذا كنت تحاول المسّ برجولتي، فأنت مخطيء.

فقال المحقق بصوت متوسل: رئيسي ورئيس رئيسي ورئيس رئيسي مصريون على معرفة السبب.

قلت: لن أجاب، وسأرسل شكوى عاجلة إلى مجلس الأمن الدولي، فالإنسان أهم من النفط.

اصفر وجه المحقق خوفاً، وقال لي بصوت متهدج: لا داعي إلى خلق المزيد من الأزمات الدولية. وإذا استأث من كلامي، فأنا مستعد للاعتذار اعتذاراً عملياً.

قلت: وكيف يكون اعتذارك العملي؟

قال: ستحل ضعفاً على الدولة مدة ثلاثة أيام، وثق بأنها ستكون أياماً زاخرة بكل ما يهيج ويسر.

قلت: أنا موافق لأثبت لك مدى حبي للدولة وتراب الوطن.

ففرح المحقق بجوابي كأنه قاد انقلاباً عسكرياً ناجحاً، واستدعى رجال الشرطة، وأصدر إليهم أوامره، فاقفادوني برفق إلى قصر كقصور الملوك في الحكايات. وهناك سئلت عن طعام العشاء الذي أفضله، فأجبت بصرامة أنني لا أحب تغيير نهجي في الحياة اليومية، وسأكتفي بقطعة جبن ورغيف خبز، واشترطت أن يكون الرغيف من نوع قادر على امتحان قوة الأسنان وسلامة المعدة والأمعاء. وبعد

انتهائي من تناول طعام العشاء، حاولت النوم، فلم أنجح لأن السرير المخصص لي كان مختلفاً عن الفراش الذي تعودت النوم عليه. ولما تنبه رجال الشرطة إلى أن النوم هارب من عيني، حاولوا تسليتي بكل ما لديهم من وسائل، فأخفقوا. وحينئذ أحضروا لي راقصة مشهورة، فطردها من دون أن تحظى بهز رديها هزة واحدة أمامي، وقلت لها: من ترقص لمن هبّ ودبّ لن ترقص لي.

اضطرب رجال الشرطة، واستدعوا بسرعة ممثلة فرنسية خبيرة آملين أن تنجح في الترفيه عني، فبادرت إلى دخول غرفتي مرتدية ما قل ودل من الثياب، وقالت لي: مرحباً يا أخا العرب.

فدهشت وقلت لها: متى تعلمت اللغة العربية؟

قالت: هذا سؤال لا يوجه إليّ ولا سيما واني كتبت مقالات عديدة نددت فيها بالعامية بوصفها أداة تفريق بين الشعوب العربية.

فأعجبت بنضجها ووعيها، ولكنها عندما حاولت استخدام جمالها لاغرائني، صددتها بقسوة وقلت لها: لن تنجح في القضاء على عفتي التي أعتر بها.

فاغرورقت عيناها بالدموع، وقالت انها معجبة بي اعجاباً بريئاً نزيهاً، فقلت لها إنني سأمتحنها، فإذا نجحت في الامتحان، فمن المحتمل أن أغير موقعي منها، فهزت رأسها بفرح موافقة، فسألتها: ماذا تعرفين عن معركة ذات الصواري؟

فتصبب العرق غزيراً من جبينها، ولم تفه بكلمة، فقلت لها وأنا أشير بسباتي إلى باب غرفتي: هيا اخرجي، فماذا أفعل بامرأة لا تعرف شيئاً عن معركة ذات الصواري؟ فخرجت الممثلة الفرنسية من غرفتي محنية الرأس.

وقال عبد الله الكبير: «ما إن وصفت طردني للممثلة الفرنسية الجميلة حتى تصايح رجال حارتي مدهوشين حانقين، وسألني أحدهم: ألم تندم بعد ذهابها؟ قلت: أنا أندم؟! لم أندم أبداً بل شعرت أنني تأثرت لكل البلاد العربية التي كانت فرنسا تحتلها.

وسألني رجل آخر: وهل نمت بعد طردك لها؟ قلت: نمت نوماً عميقاً، ولم أستيقظ إلا بعد مرور مدة الضيافة؟

قال رجل ثالث: كيف؟ هل ابتلعت حبوباً منومة؟ قلت: لا بل اسمعني رجال الشرطة خطباً رسمية عن العدل والحرية والمساواة، فنمت ذلك النوم العميق الطويل. وقال عبد الله الكبير: «فجأة تنبّهت إلى عدد من أهل حارتي يتهايمسون، فسألتهن: ما بكم؟ فقال واحد منهم: إذن في السجن يقدمون الطعام كما تطلب ومجاناً؟

قلت: هذا صحيح.

وقال رجل ثانٍ: والنوم أيضاً مجاناً؟

قلت: هذا صحيح.

وقال رجل ثالث: وفي الليل أحضروا لك راقصة ومثلة؟

قلت: وعندما أفقت من نومي أحضروا أجمل ممثلة عربية لتقدم لي طعام الإفطار.

عندئذ تركني رجال حارتي، وتراكمضوا نحو مخافر الشرطة والسجون يتبعهم أطفالهم وزوجاتهم، فتابعت مسيري نحو بيتي بخطى متثاقلة.

وعندما رأنتي أُمِّي داخلاً إلى البيت، حملتني إليّ مدهوشة، وقالت لي: لماذا تحمل حذاءك بيدك ولا تلبسه؟

فلم أجاب إنَّما سرت نحو غرفتي بينما كان الدم يلطخ الأرض أثر كل خطوة أخطوها، فتبعنتني أُمِّي وسألتني عن قدميّ المتورمتين النازفتين دماً، فقلت لها: الطريق إلى القمة مملوء بالأشواك، والوطن لن يتطور بغير ضحايا.

وقلت لها: إذا أردت أن توقدي ناراً بالخطب الكبار فستخفقين، ولكنك ستنجحين إذا استخدمت صغار الخطب.

فهزت أُمِّي رأسها أسفة، وقالت لي: ما هذا الكلام؟ هل جنت؟

فقلت لها: إن الدنيا نذلة، وهي إلى كل نذل تميل». وقال عبد الله الكبير: «فلما غادرت أُمِّي الغرفة، تنهدت بارتياح، ولكن أخي الطفل الصغير دخل عليّ وهو يصيح: غبت ثلاثة أيام، واشتقت إلى حكاياتك.

قلت له: سأحكى لك من الحكايات ما تشاء.

قال: هيا احك.

قلت: ذهب رجل يوماً إلى المقابر، فإذا بمجنون قاعد على الأرض، فقال له: أي شيء تصنع ههنا؟
قال المجنون: أجالس قوماً لا يؤذونني.

فغادر الرجل المقبرة، وقصد الصحراء، فالتقى فتى يرتدي ثياباً رثة، فسأله: إلى أين ذاهب؟
قال الفتى: لا أدري.

قال الرجل: من أين جئت؟

فقال الفتى: لا أدري.

وجاع الرجل، فرأى شجرة تفاح، فمد يده ليقطف من ثمارها، فقالت له الشجرة: لا تأكل مني لأنني ملك البلاد..

فتشاءب أخى الصغير، وقال لي: ما هذه الحكاية المملة؟
قلت: سأروي لك حكاية أخرى. اسمع. كان أحد القضاة غنياً، فجاءه يوماً أحد الفقراء، وقال له: أعز الله القاضي. أنا رجل فقير ذو عيال، وأتيت إليك مستنجداً.
فلم يعطه القاضي شيئاً، فلما كان الليل ونام القاضي، سمع هاتفاً يقول له: ارفع رأسك.

فرفع القاضي رأسه، فرأى قصرأً مبنياً بلبنة من ذهب ولبنة من فضة، فقال: ما هذا القصر؟

فقال له: هذا كان لك لو أعطيت بعض مالك للفقير.
فأفاق القاضي من نومه مرعوباً، وندم أشد الندم.

فعاود أخى الصغير الشاؤب، وقال لى: حكاياتك اليوم لا تعجبني.

فقلت له: سأحكى لك حكاية ستعجبك. فى يوم من الأيام القديمة، ظهرت علة بأحد الملوك أعيت الأطباء، فقالوا له: فى مملكته رجل تقى صالح، لو دعا لك لعل الله يستجيب له ويشفيك.

فاستحضر الملك الرجل الصالح، وقال له: ادع الله لى. فقال الرجل الصالح: كيف يستجيب لدعائى فىك وفى حبسك مظلومون؟

فغضب الملك، وأمر بالقبض على الرجل الصالح، فازداد المظلومون عدداً، وشفى الملك من علته بعد فترة من الزمن.

فقال لى أخى الصغير وهو يهم بمغادرة الغرفة: حكاياتك اليوم مثيرة للملل.

وغادر الغرفة، وبقيت وحيداً محاولاً نسيان ثلاثة أيام مرت بى، ولكنى ظللت أرتجف كأنى مدفون تحت جبال من ثلج.

وقال عبد الله الكبير: «ولم أتخلص من رعبى إلا بعد أن تحولت ذبابة».

**نبوءة
كافور الأخشيدي**

صاح كافر الأخشيدى بأعوانه: «قبل ثلاثة أيام دخل البلاد رجل غريب اسمه المتنبي، وأمركم بإحضاره إليّ فوراً حياً أو ميتاً».

وكان المتنبي آنذاً يمشي في شوارع القاهرة، ويبدو الخطي، متنقلاً من شارع إلى شارع، وكل شارع يبدو لعينه عالماً جديداً سحرياً قادراً على أن يهب بهجة تحول الرمل عشباً أخضر.

وبلغت بهجة المتنبي الذروة عندما رأى نهر النيل، فتوقف عن المسير، ونظر إلى ماء النهر كأنه طفل يشاهد بحراً أول مرة في حياته.

قال النيل للمتنبي: «اهرب. الهرب مما ينتظرك جرأة وشجاعة وبطولة».

فلم يسمع المتنبي ما قاله النهر إنما تدفقت إلى مخيلته كلمات كثيرة تتنافس على وصف نهر وامرأة ومملك عادل.

قال النيل للمتنبي: «اهرب اهرب اهرب».

ولكن المتنبي كان يجهل لغة الأنهار، واستمرت كلماته في التنافس على وصف نهر عظيم وامرأة جميلة وملك رحيم متسامح، ثم تبددت فجأة حين انقض على المتنبي عدد من الرجال الأقوياء، القساة الوجوه والأيدي، واقتادوه إلى قصر كافور الأخشيدي غير مبالين بتساؤلاته وصياحه النزق المحتج.

كافور الأخشيدي: «المعلومات المتوفرة لدي تقول انك لست مصرياً».

المتنبي: «إذا كنت مولوداً بالكوفة وجئت مصر زائراً، فهل هذا مبرر لاعتقالي ومعاملتي أسوأ معاملة؟».

كافور الأخشيدي: «لا تكن وقحاً. تتكلم فقط حين يطلب إليك ان تتكلم».

المتنبي (بهزاء): «أمرك مطاع».

كافور: «اخرس. ألم أمرك بألا تتكلم؟».

المتنبي: «لن أتكلم».

كافور: «ليس من حقلك ان تتكلم أو تسكت إلا وفق أوامري. قل لي: ما اسمك؟».

المتنبي: «المتنبي.. أبو الطيب المتنبي».

كافور: «ماذا تشتغل؟».

المتنبي: «لا مهنة لي سوى الكتابة. أنا شاعر».

كافور: «لا تتحلق. الشعر أيضاً مهنة لا تختلف عن مهنة الحداد والنجار والدهان وحفار القبور. اسمع. ما

دمت تزعم أنك شاعر، فهل نلت إذناً من السلطات المختصة؟».

المتنبي: «وهل تطلب السحابة إذناً إذا أرادت أن تمطر؟».

كافور: «إني أكلمك عن قوانين وأنظمة، فلا تجاوبني بكلام منمق سخيف يصلح لأن يوجه إلى مراهقات. أنت الآن لست في الصحراء. أنت في بلاد يسودها التنظيم، وكل عمل لا بد لصاحبه من أن ينال إذناً رسمياً قبل أن يمارسه، وأنت خالفت القوانين عندما نظمت شعراً من غير إذن».

المتنبي: «لقد جئت إلى مصر قبل ثلاثة أيام فقط، ولم أنظم بعد أية قصيدة، ولم أخالف أي قانون من قوانين البلاد».

كافور: «أنت تدعي أنك شاعر، فما الدليل على أنك شاعر حقاً؟».

المتنبي: «أشعاري مشهورة في البلاد العربية كلها، ولا أحد يجهلها».

كافور: «يا لك من وقح! أتجرؤ على اتهامنا بالجهل؟».

المتنبي: «كل ما أردت قوله هو اني شاعر ذائع الصيت. ونظمت كثيراً من الأشعار».

كافور: «هل غنّى أشعارك مشاهير المغنين والمغنيات؟ أم كلثوم.. لبليلة.. وردة الجزائرية.. أحمد عدوية.. محرم فؤاد.. شادية.. عبد الحليم حافظ؟ ما بك صامت؟ لماذا لا

تجاوب؟ أرى أن وجهك قد احمرّ.. احمرّ خجلاً من
افتضاح كذبك. سأتيح لك الفرصة لتثبت أنك شاعر. هيتا
اسمعني بعض أشعارك».

المتنبي:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيدها نظرات منك صادقة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

كافور: «ما سمعته ليس سيئاً. أتعجيد نظم قصائد
المدح؟».

المتنبي: «سبق لي أن مدحت الكثير من الملوك والأمراء.
إنني أتقن المدح إذا كان من سأمده يليق به المدح».

كافور: «مادمت تتقن المدح، فينبغي لك ان تنظم
قصيدة في مدحي. أنت الآن في مصر، وأنا حاكم مصر،
وإذا كنت لست عميلاً لأعداء مصر وتحب مصر فمن
واجبك مدح حاكمها».

المتنبي: «أنا لم أمدح في حياتي سوى رجال عرفتهم،
وعرفت ما لهم وما عليهم».

كافور: «أتلمح إلى أنك لا تعرفني؟ ها أنا قاعد قبالتك وقد صرت تعرفني».

المتنبي: «لم أعرفك بعد المعرفة التي تتيح لي نظم قصيدة في مدحك».

فابتسم كافور الأخشيدي، وأشار بيده إلى أعوانه، فهجموا على المتنبي، وطرحوه أرضاً، ووضعوا رجله في فلقة، وانهال بعضهم بالعصا ضرباً على باطن قدميه بينما راح بعضهم الآخر يركل رأسه وجسمه ركلاً شديداً.

تألم المتنبي، ورغب في أن يصرخ متوجعاً، ولكنه قاوم، وكظم رغبته، وما لبث الألم أن دفعه إلى الصراخ شاتماً، مستغيثاً، فضحك كافور، وقال: «ما هذا الصوت الجميل؟ أنت لست شاعراً. أنت تصلح لأن تكون مغنياً. الله! ما أجمل هذا الصوت! تابع.. أطربنا».

وحين تحول صراخ المتنبي بكاء ذليلاً، أمر كافور بالكف عن ضربه.

ووقف المتنبي أمام كافور الأخشيدي محني الرأس بذل، مبتل الوجه بالدموع والدماء.

كافور: «ستنظم قصيدة مطوَّلة تمتدحني».

المتنبي: «سأفعل ما تأمر به».

كافور: «سأعطيك مهلة مدتها سبعة أيام لنظم القصيدة، وستنجزو من القتل إذا أعجبتني».

وهم المتنبي بالخروج، فقال له كافور: «قف واسمع يا

متنبى. إياك وإن تظن أنى كغيري من الحكام. إذا أعجبني قصيدتك فلا تحلم بنيل درهم واحد من أموالى».

وعاد المتنبى إلى كافور الأخشيدي بعد أربعة أيام، وأسمعه ما نظم من شعر في مدحه، فطرب كافور، وانتشى، وقال: «أنت شاعر حقاً».

وفكر كافور الأخشيدي لحظات، ثم قال للمتنبى: «سأعرض عليك عرضاً لا مثيل له. اختر إما الضرب حتى الموت وإما الحصول على ألف دينار».

المتنبى: «لا أحد يفضل الضرب على ألف دينار».

كافور: «ستال ألف دينار إذا نظمت قصيدة تهجوني فيها أقذع هجاء».

حاول المتنبى أن يتكلم، ولكن كافور قال له: «اسكت ولا تنطق بكلمة واحدة. إذا لم تنظمها ضربت، وإذا هجوتني نلت ألف دينار».

فوعده المتنبى بأنه سيهجو، وبزّ بوعده، ونظم قصيدة في هجاء كافور الأخشيدي، ونال ألف دينار.

وما إن خرج المتنبى حتى تصايح أعوان كافور الأخشيدي مستغربين مستنكرين، فقال لهم كافور بصوت صارم: «ستظلون أغبياء تجهلون التعامل مع البشر والحياة. سأشرح لكم ما فعلت وأسبابه. المتنبى شاعر متكبر، متعجرف، معتد بنفسه، ويجب أن يعاقب ولا سيما أنه سيكون في المستقبل من الشعراء الخالدين، وقد عاقبته شر عقاب. لقد أرغمته على مدحي ثم أرغمته على هجائي،

وهذا التناقض سيصبح في المستقبل تهمة شائنة تدين المتنبي، وتبرهن على أنه مجرد مرتزق صغير غير جدير بالاحترام».

وفيما بعد، أغتيل المتنبي، ومات كافور الأخشيدي، ولكن ما تنبأ به كافور تحقق وعوقب المتنبي شرّ عقاب حياً وميتاً.

الجالس والواقف

كان الشنفري جالساً في أحد المطاعم، يأكل لحم دجاج مشوياً على نار فحم تنضج ببطء ولا تحرق، وكل لقمة يضعها في فمه ويمضغها، تمنحه الغبطة والنشوة والشعور بأنه يطير بغير جناح في سماء فسيحة زرقاء.

وبغته طوقه رجال الشرطة، وأمروه بأصوات صارمة بمرافقتهم من دون مقاومة، فرجاهم أن يأذنوا له بإكمال الطعام الذي دفع ثمنه، فرفضوا، واقتادوه إلى أحد المخافر. وما ان رأى الشنفري الرجل الذي يبدو عليه انه المسؤول عن التحقيق معه حتى صاح به محتجاً: «لماذا قبض عليّ؟ أنا لست جاسوساً ولا نشالاً ولا لصاً ولا معادياً للدولة، ومن المعروف للقاصي والداني أنني في حياتي كلها لم أنتسب إلى حزب سياسي وأكره السياسة».

المحقق: «اسكت وكن مؤدباً، ولا تجبرنا على تعليمك كيف تكون مؤدباً. ولا تظن أن تمثيلك دور البريء المظلوم سيخدعنا، ففي كل يوم نرى مئات من أمثالك».

الشنفرى: «أنا بريء فعلاً، ونموذج للمواطن الشريف الصالح».

المحقق: «أأست خصماً لقبيلة سلامان؟».

الشنفرى: «هذا موقف معروف عني، فأنا أكره هذه القبيلة، ولكنني أعتقد ان القوانين تخلو من أية مادة تحدد للمواطن ماذا يحب وماذا يكره».

المحقق: «ألا تعرف ان هذه القبيلة مؤيدة لنظام الحكم؟ ومادمت تكرهها، فهذا يعني أنك تكره نظام الحكم».

الشنفرى: «هذا أمر خطير، وأعترف بأنني لم أتنبه إليه. ولكنني أعاهدك على أنني منذ هذه اللحظة سأكف عن بغض قبيلة سلامان، وأي واحد منها أعزّ من أمي وأبي».

المحقق: «لديّ أقوال من شهود موثوق بهم تؤكد أنك أقسمت بأن تقتل مائة شخص من أفراد تلك القبيلة، فما ردك؟».

الشنفرى: «أعوذ بالله! أسأل عني، وسيثبت لك ان هذه الأقوال مجرد أكاذيب وشائعات مغرضة، ومن السهل عليّ تنفيذها. أولاً: أنا لا أملك سيفاً. ثانياً: أنا هزيل الجسم لا أستطيع قتل ذبابة، فكيف أقوى على قتل مائة شخص؟ ثالثاً: أنا شاعر. والشاعر دائماً مرهف الأحاسيس وذو قلب رقيق كاره للدماء وإراقتها».

المحقق: «هذا نبأ جديد بالنسبة إليّ. أنت شاعر أم تمزح؟».

الشنفرى: «أنا شاعر، وفي استطاعتك ان تسأل عني أي

اتحاد من اتحادات الأدباء. أنا شاعر، وشاعر شهير. ولي قصيدة ذائعة الصيت معروفة باسم لامية العرب. وإذا سجنتم فسأحرم انجاز تأليف أروع كتاب شعري مكرس كله لتبيان محاسن الدولة الغراء.

المحقق: «وما محتوى كتابك بالضبط؟».

الشنفرى: «إنه يتألف من مائة قصيدة، وكل قصيدة تتمدح مسؤولاً من مسؤولي الدولة. المدير له قصيدة، ووكيل الوزارة له قصيدة، والوزير له قصيدتان، ورئيس الوزراء له عشر قصائد، الجيش له قصيدة، وقائد الجيش له سبعون قصيدة».

المحقق: «ورئيس الدولة المفدى؟».

الشنفرى: «سأكون خائناً إذا نسيت، ولكني رأيت انه من غير اللائق أن أتحدث عنه في كتاب يتحدث عن موظفيه وخدمه، انه سيكون الموضوع الأوحده لكتائبي الثاني الذي سيشتمل على ألف قصيدة، وكل قصيدة تمجد جزءاً من أجزائه. قصيدة عن أسنانه. قصيدة عن لثته، قصيدة عن انتصاراته الحربية، قصيدة عن أنفه، قصيدة عن قدمه اليمنى، قصيدة عن قدمه اليسرى».

المحقق: «وما علاقتك بالمدعو تأبط شراً؟ إياك وان تنكر صلتك به».

الشنفرى: «لا لا. انه واحد من أصدقائي».

المحقق: «لدينا أدلة تبرهن على انه يمارس سراً نشاطاً مناوئاً للدولة».

الشنفرى: «إنه منذ هذه اللحظة ليس صديقي ولن أكلمه في أي يوم».

المحقق: «بل ستظل صديقاً له، وستراه كل يوم كعادتك، ولكنك إذا كنت وطنياً حقاً، فمن واجبك أن ترفع إلينا تقريراً بكل ما يقوله ويفعله وبأسماء الأشخاص الذين يقابلهم».

الشنفرى: «وهذا التقرير.. أتريده يومياً أم اسبوعياً؟ شعراً أم نثراً؟».

المحقق: «اكتبه كما تشاء وقدمه كما تشاء. المهم ان يتضمن معلومات مفيدة للجميع».

الشنفرى: «أنا أعرف الأسعار التي تدفع للتاج الأدبي من قبل الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون، ولكنني أجهل أسعاركم».

المحقق: «اكتب ما يرضينا ويرضي الوطن وستنال ما يسرك».

الشنفرى: «والدفع كيف سيكون؟ في داخل البلد أم خارجه؟ وبأية عملة؟ بالدولار أم بالجنيه الاسترليني أم بالمارك الألماني؟».

من قتل الجنرال؟

كانت السماء زرقاء، والغيوم بيض رقيقة،
والأرض خضراء، ملأى بالشجر، والطيور
تطير بمرح من شجرة إلى شجرة غير خائفة من أن يباغتها
أي صياد.

وكان سليمان الحلبي في تلك اللحظات رجلاً مرتجف
القلب، يحدق إلى نهر تنساب مياهه مرتعشة، منتشية،
مغمورة بأنوار شمس ساطعة، وقد خضع لفرح غريب
خفي، وخيل إليه أن هدير النهر هو أغنية أو كلام عذب
بلغة يجهلها، ثم اقتنع بأن ما يبلغ سمعه ليس إلا أغنية
قديمة تعود سماعها من أمه التي كانت ترددها قبل نومه أيام
كان طفلاً.

وتزايد فرح سليمان الحلبي حتى أحس أن فرحه هو
مخلوق حي منفصل عنه، ويملك أجنحة تستطيع أن تزدري
أكثر القمم علواً.

وقد تلاشى فجأة فرح سليمان الحلبي لحظة رأى رجلاً
يمشي باعتداد، ورأسه مرفوع بصلف، وقامته منتصبه

مشدودة، وخطواته وثيدة واثقة بأنها تطأ أرضاً شديدة الصلابة.

وعرف سليمان الحلبي الرجل فوراً على الرغم من انهما لم يتلاقيا إلا مرة واحدة، وقبل أكثر من مئة سنة.

هذا الرجل هو بالتأكيد خصمه الجنرال كليبر، فاندفع نحوه، واعترض طريقه اعتراضاً عدائياً استفزازياً، وقال له متسائلاً بسخرية: «لماذا تمشي كالطاووس مع انك لست طاووساً؟».

الجنرال كليبر (بدهشة واحتقار): «ابتعد عن طريقي حالاً، فليس من عاداتي التحدث إلى المتسولين والرعاع». سليمان الحلبي: «كن متواضعاً، فالتواضع مطلوب ومستحسن في الدنيا والآخرة».

الجنرال كليبر: «التواضع صفة الناس المغمورين فقط، أما أنا فيحق لي ما لا يحق لغيري، فالبحر ليس كالنهر، والنهر ليس كالساقية، وما يحق للبحر لا يحق للنهر، وما يحق للنهر لا يحق للساقية».

سليمان الحلبي: «اني أنصحك بالنظر إلى أية مرآة لتدرك أنك لست ببحراً ولا نهراً ولا ساقية ولا مستقعا». الجنرال كليبر (يبتسم كأنه يخاطب طفلاً): «لو كنت تعرف من تكلمه لما جرؤت على ارتكاب هذه الوقاحة، ولركضت هارباً مرعوباً».

سليمان الحلبي: «أتظن أنني لا أعرفك؟ أنا أعرفك وأعرف من تكون».

الجنرال كليبر: «هذا أمر طبيعي. لا بد من أنك رأيت صوري في الكتب التاريخية، وقرأت الكثير عن انتصاراتي الحربية. أنا الجنرال كليبر أشهر قائد عسكري في فرنسا في عهد نابليون بونابرت، وكنت حاكم مصر سنة ١٨٠٠».

سليمان الحلبي: «لا داعي إلى الإسهاب في الحديث عن نفسك، فأنا كما قلت لك أعرفك، وأنت أيضاً تعرفني».

الجنرال كليبر: «من الطبيعي أن تعرفني، ولكني لا أعرفك ولا أتذكر أنني رأيتك من قبل. من أنت؟ هل كنت جندياً من جنودي أم كنت موظفاً صغيراً تعمل في دائرة خاضعة لاشرافي؟».

سليمان الحلبي: «اسمي سليمان الحلبي، فهل عرفتنني الآن؟».

الجنرال كليبر: «أنت سليمان الحلبي؟».

سليمان الحلبي: «أنا سليمان الحلبي».

الجنرال كليبر: «أنت سليمان الحلبي الرجل الذي قتلني؟».

سليمان الحلبي: «أنا نفسه».

الجنرال كليبر: «كنت دائماً أتساءل عن حرضك على قتلي ولا أصل إلى جواب شاف، فهل لك ان تطلعني على اسم محرضك ولا سيما أنك الآن لست واقفاً في محكمة؟».

سليمان الحلبي: «راجت شائعات كثيرة، ولكن ما هو

حقيقي هو أن المخرض الأساسي كان نابعاً من عقلي وقلبي».

الجنرال كليبر: «ولماذا قتلتنني؟».

سليمان الحلبي: «أنا لم أقتلك. أنا طعنتك بخنجري حتى مت».

الجنرال كليبر: «ما هذا الكلام المتناقض؟ أنت تقول إنك قتلتنني وتقول أيضاً إنك لم تقتلتنني».

سليمان الحلبي: «أنا لست بقاتلك الحقيقي. قاتلك الحقيقي هو من أتى بك من بلادك حيث ولدت إلى مصر لتشارك في غزوها واحتلالها وتصبح حاكماً عليها، ومصر ليست وطنك، وليست بالبلد الذي ولدت فيه».

الجنرال كليبر: «ومصر أيضاً ليست بلادك ولم تولد فيها. أنت من بلاد الشام، من حلب».

سليمان الحلبي: «أي بلد في العالم يحتله جيش أجنبي ويحرمه حريته واستقلاله وينهب خيراته هو بلدي ووطني، وأي شعب يتعرض للاحتلال هو شعبي، وينبغي لي الدفاع عنه والتضحية في سبيله، ومحاربة المحتل حتى يهزم ويرغم على الانسحاب».

الجنرال كليبر: «عندما قتلتنني كنت شاباً متحمساً في الثالثة والعشرين من العمر، ويبدو أنك لم تتعظ بما جرى لك، وإعدامك لم يجعلك تغير من آرائك الطائشة، وما زلت تتكلم كأنك تخطب أمام جمهور غفير».

سليمان الحلبي: «لقد حكمت عليّ محكمتكم

العسكرية بأن تحرق يدي اليمنى التي طعنتك بالخنجر، فأحرقت يدي اليمنى. وحكمت عليّ محكمتكم بأن أموت على خازوق، فنفذ حكمها. وحكمت عليّ محكمتكم بأن تظل جثتي مصلوبة طعاماً للنسور والعقبان، فأكلتني النسور والعقبان. ومع ذلك فأنا المنتصر لأنكم اضطررتم إلى الإنسحاب من مصر بعد سنة واحدة من إقدامي على قتلك، وعادت مصر حرة».

الجنرال كليبر: «لا تخدع نفسك. إذا كنت قد قتلت الجنرال كليبر، فالجنرال كليبر ليس واحداً، وهناك جنرالات آخرون كثيرون».

سليمان الحلبي: «إذا كان هناك جنرالات مثلك، فهناك أيضاً رجال مثلي متأهبون للانقضاض بخناجرهم طالبين الحياة أو الموت».

فنظر الجنرال كليبر إلى سليمان الحلبي نظرة هازئة، ثم استأنف سيره الوثيد المتعجرف، وبقي سليمان الحلبي وحده يحملق مبهوراً واجماً، ووجد نفسه يتخلى عن زهوه وحماسه رويداً رويداً، وهيمن عليه الحزن والخجل، فهو يكره الكذب ويحتقره، وها هوذا يتبين له أنه قد كذب كذباً شائناً، فسيظهر في البلاد العربية جنرالات كالجنرال كليبر، ولن يكونوا أجانب، ولكن أمثال سليمان الحلبي سيكونون عزلاً، وسيقبض عليهم ويعمدون قبل أن يتاح لهم التسليح بأي سلاح، وسيبقى الجنرالات أحياء.

یحکی عن
عباس بن فرناس

■ الحكاية الأولى

يحكى أن عباس بن فرناس قد استدعاه يوماً ملك بلاده، فمثل فوراً بين يديه محني الرأس، مرتجف القلب.

الملك: «بلغني أنك اخترعت ثوباً ذا جناحين وذيل، فإذا لبسته أتيح لك الطيران كما تطير الطيور، فهل هذا صحيح؟»

عباس بن فرناس: «ما بلغك يا مولاي ليس بالشائعة الكاذبة بل هو نبأ صادق، وسيكون أول انسان في العالم ينجح في أن يطير في الفضاء هو واحد من رعيتك».

الملك: «ما أعرفه ان السمك يحيا في الماء والطيور في السماء والناس على الأرض، فلماذا تريد أن تطير؟».

عباس بن فرناس: «إني أعتقد أن لا شيء في الحياة أروع من التحليق عالياً في الفضاء».

الملك: «أنت تكذب، فكن جريئاً واعترف بالسبب الذي حَضَّكَ على التفكير في الطيران».

عباس بن فرناس: «لا سبب لديّ سوى الذي ذكرته». الملك: «أنت تريد ان تطير هرباً مما تدعي أنه ظلمي وجوري وبطشي واستبدادي».

عباس بن فرناس: «يخيّل إليّ أن خصوصاً لي يحسدونني قد لفقوا هذه الإدعاءات ونسبوها إليّ ليغضب مولاي عليّ».

الملك: «إذا كنت مصراً على الانكار والمكابرة، فلتعلم أن لديّ تسجيلات بصوتك، وتتضمن كل كلمة قلتها، فهل تبغي سماعها كي تكف عن التظاهر بالبراءة؟».

فلم يفقه عباس بن فرناس بكلمة، وأحنى رأسه بخوف وحزن، فقال له الملك: «سأثبت لك الآن مدى حرصي على تلبية كل رغبة من رغبات الناس الذين أحكمهم. أنت تريد ان تطير وستطير».

وتحدث الملك بصوت خفيض مخاطباً أعوانه، فبادروا إلى اقتياد عباس بن فرناس إلى أعلى قمة جبل في البلاد، وتطل على واد لا تُبصر أرضه، وهناك حملوه، وقذفوا به إلى أسفل، فهوى، وارتطم بأرض الوادي الصخرية، وتناثر أشلاء، ومات.

■ الحكاية الثانية

يحكى أن عباس بن فرناس كان رجلاً ذا أخلاق حميدة وسمعة حسنة، ويعدّ من أكابر العلماء في عصره، ولكنه كان كأبي مخلوق بشري من لحم ودم يخضع أحياناً لنزوة من النزوات الطائشة.

وفي يوم من أيام الربيع، كان عباس بن فرناس جالساً في بستان أخضر، يحدق إلى ما حوله ببهجة، فشاهد عصافير تطير من مكان إلى مكان، فحسدها، واستولت عليه نزوة حمقاء، ورغب في أن يطير كما تطير العصافير، ولكنه كان يعلم أن تحقيق أمنيته ليس بالأمر السهل، فظل طوال أشهر يفكر ويعمل ويجرب حتى تمكن أخيراً من صنع جناحين كأجنحة الطيور، ويختلفان عنها في الحجم اختلافاً يكمن سببه في الفرق بين وزن جسم الانسان وجسم الطير.

وذات صباح، ثبت عباس بن فرناس الجناحين على ذراعيه، ووقف على سور قلعة عالية، ورمى جسده في الفضاء، وحرك ذراعيه، فإذا هو ينجح في الطيران، وتغمره نشوة لم يعرف مثلها أي انسان.

واستمر عباس بن فرناس يطير من بلد إلى بلد محملاً إلى أسفل، فرأى شعوباً تتقاتل، ورأى دماء تراق كأنها المياه الوسخة، ورأى أطفالاً تهلكهم الأمراض بلا طبيب أو دواء، ورأى سجوناً ومشانق ومحاكم قضاتها من القتل، ورأى رجالاً أحراراً يرحبون بالقيود التي تنقذهم من الجوع، ورأى الأخ يقتل أخاه ويسير في جنازته غير نادم، ورأى اللصوص مكرمين والشرفاء منبوذين محتقرين، ورأى الخيانات تعامل بوصفها أحداثاً تاريخية، ورأى الصفقات التجارية تنجز باسم المبادئ، فانتحب دونما خجل، وامتألت عيناه بالدموع الغزيرة بينما كان يطير بسرعة

وبكل ما يملك من قوة، فلم ينتبه إلى جبل شاهق ينتصب
أمامه، واصطدم به صدمة عنيفة، فتمزق جسده، ومات.

ما أكثر الأراانب!

كان أحد الذئاب شرساً، محباً للحم
الأرنب، فأباد الأرنب ما عدا أرنب واحد
كان ماكرأ سريع الركض.

وعندما يش الذئب من صيد ذلك الأرنب، وقف يوماً
على مبعدة منه، وصاح: «أيها الأرنب.. ما رأيك أن نعقد
اجتماعاً خاصاً نكرسه للتفاوض؟».

قال الأرنب وهو يتأهب للركض: «نتفاوض؟ لا بد من
ان موضوع التفاوض لن يكون سوى لحمي. كن صريحاً
ولا تراوغ. كيف تريد ان تأكلني؟ مسلوفاً أم مشوياً أم
نيئاً؟».

قال الذئب: «أنت مخطيء لأنني صرث من المهتمين
بالشؤون الروحية بعد ان أدركت خطأ الاهتمام بالمعدة
وحدها».

قال الأرنب متسائلاً بسخرية: «هل تبغي ان نعقد مؤتمراً
فلسفياً أم انك ترغب في مناقشتي واقناعي بالانتساب إلى
حزب معين؟».

قال الذئب: «لا داعي إلى الهزء بي. أنا أزمع أن أعاهدك بألا أطاردك إذا قمت بما أرغب فيه».

قال الأرنب: «وما الذي ترغب فيه؟».

قال الذئب: «في بعض الأحيان أفكر في أحوال الكون، فأحزن حزناً قاسياً يعذبني، ولذا احتاج إلى من هو قادر على محو حزني وإضحائي، فهل تستطيع القيام بهذه المهمة النبيلة؟».

قال الأرنب بلهجة مزهوة: «أنا أرنب موهوب. ولو كانت الأرانب التي سبق لك أن أكلتها ما زالت حية لشهدت لي بقدرتي على إضحائك حتى المحتضرين».

قال الذئب: «إذن اتفقنا.. أنت تضحكني وأنا لن أطاردك، ولن أحاول صيدك وأأكلك».

قال الأرنب: «باستطاعتك ان تقول بثقة اننا اتفقنا».

قال الذئب: «ألا نتصافح لنعبّر عن نياتنا السلمية؟».

قال الأرنب: «لا لا. أعتقد ان المصلحة العامة تقتضي الآن تأجيل المصافحة».

وبرهن الأرنب فيما بعد على انه أرنب موهوب حقاً، فكلما حزن الذئب جعله الأرنب يضحك كأن الحزن لم يوجد يوماً على سطح الأرض.

وفي يوم من الأيام، جاع الذئب، فقصد الأرنب، وقال له: «اسمع. أنا اليوم مشتاق إلى أن أبكي».

قال الأرنب: «ولماذا هذا الشوق الغريب إلى البكاء؟».

قال الذئب: «لا أدري. قد يكون السبب هو ما أحسّ به من ندم لأنني أكلت من الأرناب ما لا يمكن إحصاء عدده».

قال الأرنب: «إذا كان هذا هو السبب الحقيقي، فهيا ابك».

قال الذئب: «لا أستطيع البكاء، وجئت إليك لتجعلني أبكي، فهل تستطيع تحقيق رغبتني؟».

قال الأرنب: «من المؤكد أنني أستطيع ان أرغم الدموع على أن تنهمر من عينيك كالمطر الغزير، فهل نسيت أنني أرنب موهوب؟».

قال الذئب متسائلاً بسخرية: «وإذا أخفقت؟».

قال الأرنب باعتداد: «يحق لك آنذاك ان تفعل بي ما تشاء».

قال الذئب مهدداً: «كفّ عن التحدي، وإذا أخفقت فقد أكلك».

فارتجف الأرنب وهو يحملق إلى أنياب الذئب، ولكنه قال له: «مهما حاولت إخافتي، فلن تنجح لأنني شديد الثقة بمواهيبي».

قال الذئب نافذ الصبر: «ماذا تنتظر؟ هيا حاول أن تبكييني».

قال الأرنب: «سأحكى لك حكاية تجبرك على البكاء ساعات».

قال الذئب: «احك. كلي آذان صاغية».

قال الأرنب: «كان في غابر الزمان رجل وامرأة لهما طفل واحد يشبه نسيماً يتضوع وناراً في شتاء قاس تشرق وتلتمع...».

فقاطعه الذئب وهو يتشاءب: «لا تضجرني وتكلم كالأدباء».

قال الأرنب بدهشة: «الأدباء زينة الحياة الدنيا، وأنت كما ألاحظ تتحدث عنهم بلا احترام».

فتنهذ الذئب بأسى، وقال: «أكلت يوماً واحداً من الأدباء، فظل صوته يتعالى في بطني طوال أيام متكلماً بحماسة عن فضائل الالتزام بقضايا الجماهير، فعانيت منغصاً حاداً أوشك أن يهلكني. هيا هيا أكمل حديثك، وأنصحك أن تتكلم بإيجاز وبألفاظ تخلو من التعميق».

قال الأرنب: «وأنا أنصحك أيضاً ألا تقاطعني حتى لا تتشتت أفكارى. هأنذا قد نسيت ما حكيتك. ماذا كان مطلع الحكاية؟».

قال الذئب: «سأذكرك. أنت كنت تحكي عن رجل وامرأة لهما طفل».

قال الأرنب: «وكان ذلك الطفل صغيراً. وما إن كبر حتى ابتدأ يتكلم ويسأل: لماذا القمر أبيض؟ لماذا العشب أخضر؟ ألا تتعب الأشجار من الوقوف دائماً؟ لماذا تموء القلط حين تشاهد الكلاب؟ لماذا لا تشرق الشمس في الليل؟ فكانت أمه ترمقه بحنان وفخر، وتحاول الإجابة عن أسئلته، فتخفق، وتسمع مزيداً من الأسئلة، أما الأب فيظل

سأكتأ، ويحملق بغضب، فتدهش الأم، وتقول له متسائلة:
هل يتضايق أحد من تغريد عصفور؟ فلا يجيب الأب بل
يزداد تجهماً وصرامة. وفي أحد الأيام، حمل الأب طفله،
واتجه نحو باب البيت، فسألته الأم: إلى أين تأخذه؟
قال الأب: إلى المستشفى.

قالت الأم مستغربة: ولكنه ليس بالمريض.
فلم يأبه لها، وغادر البيت حاملاً طفله، صافقاً الباب
خلفه بشدة.

وبعد ساعات، عاد الأب وطفله إلى البيت، فشهقت
الأم، وأطلقت صرخة قصيرة مفعمة بالرعب، ثم انقضت
على الأب، وأمسكت كتفه بأصابع متشنجة، وهزته
بعنف، صائحة: أنت أب؟ كنت عمياء. كنت مجنونة.
كيف لم أتنبه إلى أنك لا تحبه؟

قال الأب بصوت هادئ: لأنني أحبه فعلتُ به ما
فعلت.

قالت الأم: اسكت. لا تتحدث عن الحب.
فقال الأب بصوت متهدج: انصتي لما سأقوله. إنه ابني،
وأنا أحبه كما تحبينه، ولكنه ما دام مستمراً في التساؤل فلا
بد من مقدم يوم يسأل فيه: لماذا نحيا كالخراف والكلاب؟
ولماذا نترك عمرنا يضيع تحت أحذية مالكي الخبز
والسجون؟ فهل تفضلين ابناً ميتور اللسان أم ابناً مسلوخ
الجلد محشواً بالتبن؟ فكري كأّم ثم جاوبي.

فأفلتت الأم كتفي الأب، ووقفت لحظات حائرة، ثم ما

لبثت ان اندفعت نحو الطفل، وعانقته، وقبلت برفق وحنو فمه الصغير الملطخ بالدم، ثم التفت إلى الأب، ونظرت إليه بعينين مفعمتين بالشكر، ولكنها انتحبت فجأة قائلة: لن يقول لي: ماما.

فحنى الأب رأسه غير أن عينيه ظلتا صارمتين منتظرتين مقدم الطفل الثاني».

سكت الأرنب، وتأمل الذئب الذي قال متسائلاً: «هل انتهت حكايتك؟».

فهزّ الأرنب رأسه بالايجاب متحفزاً للهرب، ولكنه سرعان ما اطمأن لحظة أبصر الذئب يجهش بالبكاء، فأشفق عليه، واقترب منه راغباً في مواساته، فسارع الذئب إلي امساكه بحركة مفاجئة، وراح يضحك بمرح، فقال له الأرنب بخوف: «ما بك؟ هل جنت؟».

قال الذئب: «اسأل عني. لا أحد مثلي يحترم العهود، وسأكلك لأن حكايتك مضحكة، فمن يحاول ضربي أضربه قبل أن يضربني، ومن يخطط لقتلي أقتله قبل أن يقتلني».

قال الأرنب بصوت خفيض مرتعش: «تمهل. لديّ حكاية مختلفة، ستبكيك حتماً إذا سمعتها».

قال الذئب: «ما هذا الحكيم؟ ألا تلاحظ أن الشمس أوشكت أن تغرب وأنا لم أتناول بعد طعام الغداء؟».

فتطلع الأرنب فيما حوله بنظرات مودعة، ثم قال

للذئب: «أنا آسف، واعتذر بحرارة، فهلّم تغدى، وأرجو أن ينال لحمي القليل من اعجابك».

فشكر الذئب للأرنب تهذيبه الفائق، وأكله ببطء واحترام يليق بأرنب موهوب.

شهریار و شهرزاد

■ | التزوير

في الليلة الواحدة بعد الألف، قالت الملكة شهرزاد لزوجها شهریار: «ما بك ساكت في هذه الليلة؟ لماذا لا تحكي لي كمادتلك حكايات تسليني وتنسيني هموم الحكم والحقيقة المرة البشعة القائلة إن الرجال غير مخلصين لزوجاتهم؟».

قال شهریار متجهماً الوجه: «كل ما أعرفه من حكايات رويته لك، وأن لي أن أرتاح، فقد تعبت حتى المرض، ومن حقّي الظفر بإجازة بعد عمل دام ألف ليلة».

قالت شهرزاد بصوت غاضب مهدد: «اسمع، إذا لم تحك لي حكاية من حكاياتك الخبيثة المثيرة المشوقة فإني سأقطع رأسك وأفعل بك ما فعلته بأزواجي السابقين».

قال شهریار: «لا داعي إلي التردد، واصدري أمرك فوراً بقطع رأسي، وسأكون شاكراً لك إذا أسرع».

فنفذ طلب شهریار بعد لحظات، وبكثير من الدقة والحماسة.

وفي الأيام التالية، استدعت الملكة شهرزاد العديد من الأدباء الموثوقين، وأمرتهم بإعادة كتابة حكايات ألف ليلة وليلة، وتعديلها التعديل المناسب، فكان لها ما أرادت، وأصبح شهریار خصماً للمرأة في كل العصور.

■ الليلة الأخيرة

تزوج شهریار ماسح الأحذية من شهرزاد بنت صديقه صانع الأحذية.

وفي الليلة الأولى، قالت شهرزاد لزوجها شهریار: «سيزعم في المستقبل انك ملك وأناي ملكة، وسيزعم أيضاً اني أنقذت عنقي من الذبح بسيفك بأن حكيت لك طوال ألف ليلة وليلة حكايات مشوقة، فما رأيك في أن أروي لك مثل هذه الحكايات؟».

قال شهریار وهو يتابع التحديق إلى شاشة التلفزيون: «من الأفضل تأجيل تنفيذ اقتراحك إلى يوم آخر، فبعد قليل سيقدم التلفزيون نقلاً حياً لمباراة في كرة القدم».

قالت شهرزاد: «إذن غداً سأبدأ برواية الحكايات لك».

قال شهریار: «غداً موعد عرض مسلسل تلفزيونية مأساوية مثيرة تحكي عن رجل أحب امرأة وأراد الزواج منها، ولكنه اكتشف مصادفة انها أخته».

قالت شهرزاد: «إذن بعد غد؟».

قال شهریار: «لا. بعد غد سأكون مشغولاً بمشاهدة فيلم (سوبرمان) الذي سيقدمه التلفزيون أول مرة».

فصاحت شهرزاد بحق: «لماذا تزوجتني مادمت لا تحب سوى التلفزيون؟».

قال شهریار: «يجب ان تصلي في الليل والنهار شاكرة الله لأنني وافقت على الزواج منك ودفعت لأبيك المهر الذي طلبه».

قالت شهرزاد: «اسمع. أنا لم أكن متسولة في الشوارع يوم تزوجتني بل كنت أعيش كالمملكة في بيت أبي».

فقال شهریار بسخرية: «ماذا أسمع؟ تتحدثين عن الملكات كأنك نسيت أن أباك هو مجرد صانع أحذية؟».

قالت شهرزاد: «أتعيرني بأبي؟ لولا أبي وأمثال أبي لمت من الجوع ولما وجدت حذاء تمسحه».

فصاح شهریار بغضب: «اخرسي. بدأ عرض مباراة كرة القدم، وإذا تفوهت بكلمة ذبحتك كأن الله لم يخلقك».

فخافت شهرزاد، وسكتت عن الكلام كأني عربي وعريية.

ليلة الطيش

رأيت صديقي عبد الله جالساً علي الأرض
ينكش في ترابها بأصابعه متعجلاً، فسألته
بدهشة: «ماذا تفعل؟».

فقال لي: «احفر الأرض».

قلت: «ولكنك تحفرها بأصابعك».

قال ضاحكاً: «الكسالى وحدهم يستخدمون المعاول».

قلت: «ولماذا تحفر؟ أتبحث عن كنز مدفون؟».

قال: «كأنك لا تعلم لماذا أحفر. أحفر لأخرج جثتي
قبل أن تتعفن ويأكلها الدود. أنسيت ما حدث ليلة أمس
عندما غادرنا الخمارة سكرانين نترنج لا نفرق بين الأرض
والسما؟».

قلت: «وهل كنا معاً وفي خمارة وسكرنا؟».

قال: «لا ألومك. ما حدث فيما بعد يبرر لك أن تحاول
النسيان».

قلت: «وما الذي سأنساه؟».

قال: «لا تتصنع البراءة والبلاهة. تناقشنا حول الإيجار الحالي للبيوت. أنت قلت إنها قليلة وتظلم ملاك البيوت، وأنا قلت إنها كثيرة تنهك المستأجرين». قلت: «هذه مشكلة سخيفة، فأنت وأنا لسنا من ملاك البيوت».

قال: «أتقول الآن هذا الكلام العاقل؟ كنت في الليل مجنوناً خصوصاً عندما لم تتفق وقلت لك إن آراءك غبية، فجنّ جنونك، وشهرت سكيناً، وهجمت عليّ، وطعنتني في صدري أربع طعنات. وعندما طعنتني أول طعنة صحت بك أذكرك بأننا أصدقاء واخوة، فلم تبال، وطعنتني طعنة ثانية فثالثة فرابعة، ثم حفرت هنا في التراب حفرة ودفنتني».

قلت: «وكيف حفرت حفرة تنسع لك؟ بالسكين أم بالمعول؟».

قال: «أنا آخر من يجاوب عن مثل هذا السؤال لأنني كنت ميتاً لا أدري ما يجري حولي».

فأسفت، وجثوت على الأرض لصقه، وتعاوننا معاً على حفر الأرض بأصابعنا، فعبد الله صديقي، وينبغي لي مساعدته.

بعيداً
عن البيت

كان عبد الله مستلقياً على ظهره مغمض العينين، يتسم بيهجة، فقد كان يشاهد في أثناء نومه آلات كثيرة العدد تهدر صاخبة. وقد هزّته يد زوجته لمّا غير أن هدير الآلات ظل يتصاعد كأنه غناء صادر عن ملايين البشر. وتعالى صوت لمّا بالحاح: «انهض. تأخرت عن عملك».

فتح عبد الله عينيه، فصمتت الآلات دفعة واحدة، غادر فراشه بتثاقل، وذهب إلى المطبخ، وهناك غسل وجهه ويديه، وبلل شعره قليلاً ثم عاد إلى الغرفة، وجفف وجهه ويديه بمنشفة زرقاء، وارتدى ثيابه، ووقف أمام المرأة، وسرح شعره ثم ابتداءً بتناول طعام الإفطار.

وطرق الباب على حين غرة، فوضعت لمّا لقمة في فمها، وصاحت بصوت ممطوط: «من؟».

ولم يسمع أي جواب، ولكن الطرق اشتد عنيماً متلاحقاً عدائياً، فقال عبد الله للميا بتكاسل: «تحركي، هيا اذهبي وافتحني الباب».

وهرولت لميا نحو الباب، وفتحته قليلاً إلى حد يسمح لها بالرؤية، فإذا بثلاثة من رجال الشرطة ذوي وجوه متجهمة وعيون صارمة.

قال أحدهم: «عبد الله نجم موجود؟».

فأجابت لميا بذعر: «ماذا تريدون منه؟».

فقطب الشرطي جبينه، وقال: «نريد ان نسأله سؤالاً واحداً».

فعادت لميا إلى الغرفة شاحبة الوجه، مرتجفة، ورفع عبد الله رأسه، تطل من عينيه نظرة متسائلة، فقالت له لميا بصوت متهدج: «الشرطة تسأل عنك».

فنهض عبد الله وهو يقول بدهشة واضطراب: «الشرطة؟!».

واتجه نحو الباب الخارجي، فلحقته لميا، وهصرت يد قاسية قلبها عندما فتح عبد الله الباب وخرج ليوافجه ثلاثة رجال يقفون متجمدين كأنهم من حديد عتيق.

وقال أحدهم بلهجة صارمة: «أنت عبد الله نجم؟».

:- «نعم. أنا عبد الله».

فانقض عليه الرجال الثلاثة في الحال، وأمسكوا به بشراسة مفاجئة، وجروه من ذراعيه، ودفعوه إلى جوف سيارة حمراء، ولم تستطع لميا الصراخ، وهدرت السيارة ثم ابتعدت عن البيت واختفت، فأطلقت لميا عندئذ ولولة طويلة.

وتناهدت الولولة إلى مسامع الجيران، ففتحت الأبواب،

وأطلت من النوافذ رؤوس رجال ونساء، وهرعت النساء إلى بيت لميا مستطلعات بينما ظل الرجال يحوصون حول باب البيت منتظرين معرفة سبب الولوجة.

«قبضوا على عبد الله».

«من؟».

«الشرطة».

«مسكين عبد الله».

«ماذا فعل؟».

«مسكين».

«أذهبي وابحثي عنه».

«أذهبي حالاً».

«أين أبحث عنه؟».

«في مخفر الشرطة».

وما لبثت النساء أن تفرقن عائداً إلى بيوتهن. وذعرت لميا إذ أصبحت وحيدة في البيت. كيف ستذهب للبحث عن عبد الله وحدها؟ وكانت قد اعتادت ألا تغادر البيت إلا برفقة الأهل لشراء الثياب أو للذهاب إلى حمام السوق، ولكنها عندما تخيلت عبد الله يجره رجال الشرطة كأنه خروف، تملكها شجاعة مفاجئة، وبادرت إلى ارتداء ملاءتها السوداء، وغادرت البيت، وطفقت تمشي بخطى متعجلة، سافرة الوجه، ترقق الدموع في عينيها.

وأعترض طريقها رجل هرم، يحمل كيساً من الورق مملوءاً بأرغفة الخبز، وسألها باهتمام: «ما بك يا ابنتي؟».

فلم تجب لميا، فأردف الهرم قائلاً لها بلهجة حانية: «هل تحتاجين إلى أية مساعدة؟ لا تخجلي. كلنا بشر ونحتاج إلى المساعدة».

فمسحت لميا وجهها بمنديل أبيض، وقالت: «قبضوا على زوجي».

:- «لماذا؟».

:- «لا أعرف».

:- «اطمئني. سيتركونه إذا لم يكن قد ارتكب جرماً ما».

وتابعت لميا سيرها عبر أزقة ضيقة متعرجة. وعندما بلغت ساحة المدينة فوجئت بحشد من الناس متجمعين حول المشنقة المنصوبة في الوسط وسمعت بعضهم يقول ان المشنوق ذبح إحدى النساء.

ووجدت لميا نفسها مسوقة إلى التقدم نحو المشنقة، واندست في الزحام مقترية بمشقة من المشنقة. وكان المشنوق رجلاً طويل القامة، وجهه أزرق مائل إلى جانب. وكان جسده المغطى بثوب أبيض يتأرجح بتثاقل بين الحين والحين، ولم تستطع لميا أن تبعد نظراتها عن المشنوق الذي لم يكن عبد الله، وظلت ترمقه بعينين كبيرتين، يتلاقى في غوريهما الرعب والاشمئزاز.

ودنا من لميا شاب ذو شعر أسود تتدلى خصلة منه على

جبهته، وتعتمد الوقوف خلفها، والتصق بها. وأحست لمياً بجسده كائناً غريباً، وأرادت التحرك غير أن الزحام كان يتزايد، والتصق الشاب بها أكثر فأكثر، فأدارت إليه وجهها، ورمقته بنظرة سريعة. وكان وجه الشاب فتياً، يتسم ببراعة وودّ.

واشتد التصاق الشاب بجسدها، واندمج الخوف والطمأنينة معاً في شرايينها. وخيل إليها أنها تسمع لهاثاً ما، فتذكرت عبد الله، واعتراها بعض الندم، وتحركت بغتة، وتخلصت من الزحام، ونأت عنه، وسارت قاصدة المخفر الرئيسي.

ولاحظت باضطراب أن الشاب ذا الشعر الأسود قد تبعها عن بعد.

ووصلت إلى مبنى مخفر الشرطة، ودلفت إلى داخله بخطى متعثرة، ووقفت حائرة في ردهة واسعة ثم دخلت غرفة مفتوحة الباب، وكانت مكتظة برجال الشرطة، وقالت لشرطي يجلس خلف طاولة قريبة من الباب: «أريد أن أرى زوجي».

:- «أين زوجك؟ هل هو شرطي؟».

:- «لا. زوجي مقبوض عليه».

:- «ما اسمه؟».

:- «عبد الله نجم».

فتطلع الشرطي إلى دفتر كبير مفتوح أمامه، مستعرضاً

يأصبعه أسماء عديدة، وراح يردد: «عبد الله نجم.. عبد الله نجم».

ثم رفع رأسه وقال: «ليس موجوداً».
فانتابها الحيرة، وقالت متسائلة: «أين أجده؟».
:- «أسألي عنه في مخفر آخر».

وخرجت من المخفر وقد تفاقمت كآبتها، فالشوارع كثيرة، وثمة مخفر في كل شارع.

وظل الشاب يتبعها عن كثب. وكانت الشمس ترمي شعاعها علي الاسفلت والمباني، والسيارات تمر زاعقة بأبواقها، والأرصعة ينساب فوقها خليط من البشر. وخامر لميا الارتباك عندما ازداد اقتراب الشاب منها.

ووصلت إلى مخفر آخر، واحتواها جوفه، وهناك وقفت قرب طاولة يقف خلفها شرطي يتحدث بالتليفون، وكان يضحك ويقول: «لا لا. هذا كذب».

وقال بضع كلمات أخرى مودعاً ثم وضع سماعة التليفون، وأخذ ينفث دخان سيجارته غير آبه للميا، ولم يرمقها بأية نظرة، فسعلت لميا سعلة مصطنعة، ودنت أكثر من الطاولة، فسألها الشرطي بجفاء: «ماذا تريدين؟».

:- «أريد رؤية زوجي».

فتأملها الشرطي بعينين متفحصتين، وكان وجهها أبيض وسيماً، فابتسم بخبث وقال: «ما اسمه؟».

:- «عبد الله نجم».

:- «لا يوجد هنا رجل له هذا الاسم».

فقالت بارتباك: «أين سأجده؟».

:- «ابحثي عنه في مخفر آخر».

وعادت من جديد إلى الشارع وهي تغغم: «آه يا ربي، ماذا فعلت حتى تعذبني؟».

وقمت لو أطاعت نصائح أمها، ولم تنقطع عن الصلاة خمس مرات في اليوم.

وكان الشاب ذو الشعر الأسود ما زال يلاحقها بإصرار. ودنت من مخفر ثالث، فوجدت أمامه ناساً متجمعين يرقبون بفضول رجلاً حليق الرأس ذي عينين واسعتين ووجه متجعد، ولم يكن عبد الله، وكان يمسك بالرجل عدد من رجال الشرطة، وكان الرجل يرفض دخول المخفر، فابتدأ رجال الشرطة يضربونه بأيديهم على وجهه وصدره وبطنه، فسقط على الأرض، وصاح بينما هم يركلونه بأحذيتهم: «آه آه سأموت سأموت».

وعندما كفّ عن المقاومة، حمله رجال الشرطة إلى داخل المخفر، وخرج آخرون ملوحين بعصي رفيعة طويلة في وجوه الناس طالبين إليهم التفرق والابتعاد.

وقال أحد رجال الشرطة للميا: «ألم تسمعي يا امرأة؟ هيا ابتعدي».

فقالت لميا: «أريد أن أسأل عن زوجي».

:- «أين هو؟».

فأشارت إلى المخفر، فقال الشرطي لها: «ادخلي».

وصعدت لميا بضع درجات ثم دلفت إلى الداخل، وكان ثمة دهليز عريض تناثرت على جانبيه غرف متعددة، فدفعت أحد الأبواب لتجد عدداً من رجال الشرطة يتحدثون بأصوات مرتفعة ويضحكون ويحتسون الشاي، ويدخنون، وقد سألها أحدهم بفضاظة: «ماذا تريدين؟».

فنهض شرطي وسيم الوجه، عيناه ذات نظرات مأكرة، وقال: «احترموا النساء».

واقترب من لميا متسائلاً: «ماذا تريدين؟».

:- «أريد رؤية زوجي».

:- «أين زوجك؟».

:- «قبضوا عليه».

:- «متى؟».

:- «هذا الصباح».

فتسمرت نظرات الشرطي على فمها الأحمر، وقال: «متى تزوجت؟».

:- «تزوجت قبل سبعة أشهر».

:- «عرفت الآن لماذا تسألين عنه».

فتصاعدت من رجال الشرطة موجة القهقهات بينما أردف قائلاً: «اسألي عنه في غرفة أخرى».

وغادرت الغرفة لتدخل الغرفة التي تليها، وكان ثمة ضابط وراء منضدة فخمة، ثم رفع رأسه وسأل لميا بغضب: «من سمح لك بالدخول؟».

:- «أريد أن أسأل عن زوجي».

:- «ماذا فعل؟».

:- «لم يفعل شيئاً».

:- «إذن، لماذا تسألين عنه هنا؟».

:- «قبض عليه».

فقال الضابط بسخرية: «هل قبض عليه لأنه لم يفعل شيئاً؟ ما اسمه؟».

:- «عبد الله نجم».

:- «اسألي عنه في مخفر آخر».

فأحسست لميا انها ضحية خداع ما، واجتاحت أعماقها اقتناع بأن عبد الله قد ارتكب ذنباً أخفاه عنها، فأجهشت بالبكاء، وقالت: «أريد أن أراه».

فتجههم وجه الضابط، وقالت لميا: «أريد فقط رؤيته لحظة واحدة».

فضغط الضابط على زر الجرس، فدخل الغرفة تواء شرطتي هزيل الوجه، بادره الضابط قائلاً بغیظ: «هل كنت نائماً؟ ألم أمرك بالآلا تبتعد عن الباب؟ اخرج هذه المرأة من هنا».

فأجاب الشرطي: «أمرك سيدي».

وقبض الشرطي على ذراع لميا، وقادها خارج الغرفة إلى الدهليز العريض الذي كان خالياً تماماً، وسمعت لميا صراخ رجل، وكان كعواء ممطوط. لا بد من أنهم يضربونه.

وارتجفت إذ خيل إليها أنه صوت عبد الله. وظل الشرطي ممسكاً بذراعها. وقالت لميا متوسلة: «أريد أن أرى زوجي». :- «ماذا قال لك؟».

:- «طلب مني السؤال عنه في مخفر آخر». فضغط الشرطي بأصابعه على لحم ذراعها، وكان لحمًا مكتنزاً طرياً، وقال: «كوني عاقلة، وابحثي عنه في مخفر آخر».

ودفع ساقه إلى الأمام محاولاً حشرها بين ساقيهما، فتراجعت لميا بينما برقت عينا الشرطي، وجرت لميا من ذراعها، وأجلسها على مقعد خشبي طويل كان لصق الحائط، ثم جلس بجانبها، وتخلت يده عن ذراعها وقال: «ماذا يشتغل زوجك؟».

:- «يشتغل في معمل للنسيج». ووضع الشرطي يده على حضنها، وقال بصوت يخالطه الارتجاف: «ألم تعرفي أين هو؟». :- «لا».

وضغطت أصابع يده على لحم فخذيها، فعضت بأسنانها على شفتها السفلى، وقالت بصوت خافت: «آخ». وأرادت النهوض غير أن يدي الشرطي تمسكتا بفخذيها، وأجبرتاها على أن تظل جالسة بجواره، فطغى عليها رعب جامح، وقال الشرطي: «أنا أريد مساعدتك». وفتح باب إحدى الغرف في تلك اللحظة، وخرج إلى الدهليز عدد من رجال الشرطة يحملون الرجل الحليق

الرأس مغمى عليه، فأبعد الشرطي يده بسرعة عن لميا، وهبّ واقفاً، فأسرعت لميا إلى مغادرة المخفر.

وكان الشاب ذو الشعر الأسود واقفاً خارج المخفر، وقد ابتسم لللميا حين أبصرها، وتابع ملاحظته لها.

وكانت لميا تسير ببطء، يسيطر عليها الخوف والتعب، وتذكرت انها لم تأكل في الصباح سوى لقمات قليلة فقط، ومسحت وجهها بمنديلها، ثم تمخطت.

وكانت لميا صبية في مقتبل العمر، وجهها جميل، نضر، وجسدها مكتنز، لم تستطع الملااة السوداء إخفاء فتنته وإغرائه.

ولاحظت لميا ان الشاب توقف عن المسير، وأخذ يتحدث مع شابين آخرين، وطفق الثلاثة يضحكون بينما كان أحدهم يشير بيده نحوها، فأسرعت لميا في مسيرها من دون أن تلتفت إلى الخلف.

وانتهت بعد حين إلى أن الشاب عاود ملاحظته لها، وصار يمشي بجانبها، يكاد كتفه أن يلامس كتفها، فتزايد اضطرابها، ورمقت الشاب بحقن ونفور ثم أسدلت النقاب على وجهها بحركة نزقة. وعندئذ أبصرت الشارع بناسه وشمسه أسود.

قال الشاب لها: «مرحبا».

فلم تجب، إنما حثت خطواتها، وسألها الشاب: «ماذا تفعلين في المخافر؟».

وكان صوته مفعماً بالحنان والرقّة، وشعرت أنها غريقة،

وبحاجة إلى شيء صلب تتشبث به، فقالت بصوت مرتعش: «لماذا تكلمني؟ أنا لا أعرفك».

:- «أنا أعرفك».

:- «أنا لا أعرفك».

فضحك الشاب بمرح، وقال: «ألم نكن نسكن في حارة واحدة؟».

:- «أنت تكذب. أنا لا أعرفك».

:- «ماذا تفعلين في المخافر؟».

ووجدت نفسها منساقة لأن تقول له: «أبحث عن زوجي. قبضوا عليه».

:- «أنا أحسد زوجك لأن له امرأة جميلة مثلك».

وأخجلها إحساس بالزهو تملكها قسراً، وقالت: «لا تكلمني. ابتعد عني».

:- «كم رجلاً عرفت غير زوجك؟».

فأجابت محتدمة الغضب: «أنا امرأة شريفة».

وانعطفت في طريق فرعية شبه مقفرة، فقال الشاب لها: «لا تركضي. ألم تتعبي؟».

فتوقفت لميا عن المسير، وقالت للشاب: «ألا تخجل من التحرش بالنساء؟».

فأجاب: «لماذا أخجل؟».

فودت لو تصفعه، ولكن وجهه الفتى وخصلة شعره السوداء المتهدلة على جبهته، كانا يذكرانها بشيء ما، وديع

وساحر ومنسي تماماً، فقالت: «هل ترضى بأن يتحرش بأخواتك رجل غريب؟».

:- «أنا لست رجلاً غريباً».

وأمسك الشاب بيدها، فحاولت تخليصها غير أن أصابعه شدت بعنف على يدها. وكفت لميا عن المقاومة حين مرت امرأة ورجل يحمل طفلاً أشقر الشعر. وقد تطلعا بفضول وخبث إلى لميا والشاب.

وهمست لميا: «اترك يدي».

:- «لن أتركها».

:- «سأصرخ وأجمع الناس حولك».

:- «إفعلي ما تريدن. تعجبني يدك، فهي طرية وناعمة».

:- «اتركني. أريد أن أبحث عن زوجي».

:- «سأبحث عنه معك».

وشدها من يدها، وأجبرها على متابعة المسير. وظلت لائذة بالصمت ثم قالت: «أرجوك اتركني».

:- «سأترك يدك إذا رأيت وجهك».

فحسرت لميا النقاب عن وجهها، فقال الشاب: «وجهك جميل جداً..».

:- «اترك يدي».

فضحك الشاب وقال: «أنا أسكن وحدي. بيتي قريب جداً. تعالي واستريحي قليلاً ثم نتابع البحث عن زوجك».

:- «دعني. أرجوك».

فقال الشاب بلهجة رقيقة: «أذهبي معي. لن تخسري شيئاً. لا تخافي. لست ضبعاً، ولن أكلك».

وظل الشاب ولما سائرين بخطى سريعة، وقال الشاب بغتة وهو يشير بإصبعه إلى باب خشبي مدهون بلون أخضر غامق: «أنا أسكن هنا وحدي».

:- «أتركني».

وجرها الشاب من يدها مقترباً من البيت ذي الباب الأخضر. ولم تقاوم لمياً لأن نساء عديدات مررن في تلك اللحظة بجانبهما.

:- «لن أفعل شيئاً. لن أؤذيك. أريد فقط التحدث معك. سأعاملك كأنك أختي».

وأخرج الشاب من جيبه مفتاحاً، ودسه في ثقب قفل الباب.

:- «أتركني أو أصرخ».

:- «أنا رجل، لن تؤثر الفضيحة في سمعتي».

وفتح الباب، فقالت لميا: «أتركني. قد يرانا الجيران».

:- «لعن الله الجيران».

وأغلق الباب خلفهما، وترك يدها، وقال: «هل خسرت شيئاً؟».

فتطلعت لميا فيما حولها، وكانت باحة البيت حديقة خضراء، وثمة أحواض ترائية غرست فيها أشجار نارنج وياسمين وليمون، وكان في وسط الباحة بحرة بلا ماء،

أرضها وجدرانها من بلاط شديد البياض، فقال الشاب:
«هل أعجبك بيتي؟».

فغمغمت لميا بصوت باك: «دعني أذهب. أرجوك. أريد
ان أبحث عن زوجي».

فأمسك الشاب بيدها، وقال: «تعال، تفرجي على
غرفتي».

فقاومت رافضة التحرك، فأفلت الشاب يدها، وطوق
خصرها بذراعيه، ودفعها إلى الخلف، وأقصرها على
الالتصاق بالحائط، وقبل وجنتها برقة زائدة، وقال: «أنت
حبيبتى».

فقاومت من دون جدوى محاولة التملص من ذراعيه
وجسده الملتصق بها بضراوة، وقالت له بنزق: «لست
حبيبتك. أنا امرأة شريفة».

وقاومت يائسة ثم استسلمت بخور لقوة حملتها إلى
داخل غرفة ماء، وألقته على وجه سرير، فأغمضت عينيها،
وتتمت: «اتركني، دعني أذهب».

فقال الشاب: «لا تخافي».

وشعرت لميا برغبة في البكاء والنوم، فأخذت تتحب
بصوت مرتفع.

: «لا تبكي لا تبكي».

فتزايد نحيبها، أين أنت يا عبد الله؟

ووجدت نفسها مرغمة على القول بضيق: «انتظر،
ستمزق القميص».

:- «سأمزقه».

وظلت لمياء مستلقية على ظهرها مطبقة الجفنين، مسحوقة تحت ثقل الشاب، وأحست بالألم يغزو جسدها. وسألها الشاب بصوت مرتجف: «متى تزوجت؟».

فلم تنفوه بكلمة إنما أنصتت للهاثة الذي بدأ يلفح وجهها بأنفاس حارة متقطعة، وشعرت أن صلتها بجسدها تضعف رويداً رويداً حتى صار مخلوقاً عدواً غريباً عنها كل الغرابة وهي ترقبه مخذولة، وتضاعف ألمها، فغمغمت: «آخ آخ».

وارتجفت إذ خضع جوفها لاندفاع متواترة من الرطوبة والحرارة، وتأرجحت في مخيلتها جثة رجل مشنوق ذي قدمين صفراوين ووجه أزرق.

وخفتت أنفاس الشاب، وهدأت وزايلها الاضطراب، ولكن ذراعيه ظلنا تعانقان جسدها.

وسمعت فجأة الباب الخارجي يفتح ثم يصفق، ففتحت عينيه هالعة وهتفت: «من أتى؟».

فأجاب الشاب بفتور: «بعض الأصدقاء. لا تخافي».

وانزاح الشاب عنها، واستلقى بجانبها، فحاولت النهوض، فوضع الشاب يديه على كتفيها، وأجبرها على التمدد ثانية، وعندئذ دخل إلى الغرفة شابان، حملقا إلى لحمها الأبيض العاري، فأغمضت لمياء عينيهما بفزع وخجل، وقد عرفت الشابين، فهما اللذان تحدث معهما الشاب في الطريق. ولم تستطع التحرك، وقفز الشاب تاركاً السرير.

وسمعت لميا الشباب الثلاثة يتهايمسون ويضحكون، ثم سمعت باب الغرفة يغلق، وصعد على السرير شاب آخر، وعذب جسدها ألم كان يرغمها على أن تطلق بين الفينة والفينة صرخة خافتة.

وتعالى بعد قليل طرق على الباب، وأعقبه صوت مرح: «هل نمت؟».

ومرت دقائق ثم فتح الباب ثم أغلق من جديد، وانسحق لحمها تحت جسد الشاب الثالث ثم فتح الباب، وعاد الشاب ذو الشعر الأسود، وتلقف لميا بشوق قائلاً: «أنت جميلة ولذيذة».

فتذكرت لميا حمام السوق والنسوة اللواتي كن يرقبن جسدها العاري بإعجاب أو بحسد.

وابتداً توجع جسدها يتحول لذة قاهرة، لم تستطع منعها من الانبثاق والنمو، ورغبت رغبة عنيفة في قسوة أكثر غير انها ظلت ساكنة، مغمضة العينين.

الشار

غضب أهل حالة السعدي عندما نميّ إليهم
أن واحداً من أهل حارة مرجان تكلم عنهم
بسوء يمس شرف نسائهم، وأقسموا بأنهم سوف يلقنوا
أهل حارة مرجان درساً لا ينسى.

وجاء يوم الدرس الذي لا ينسى عندما كان واحد من
أهل حارة مرجان يعبر حارة السعدي متجهاً إلى حارته،
وكان فتى وسيماً في السادسة عشرة من عمره، فأمسك به
عدد من رجال حارة السعدي، ولم يفلتوه إلا بعد ساعات،
وجلسوا مبهجين، وتخيلوا بتشرف دخول الفتى إلى حارته
برأس منكس وعينين دامعتين، وضحكوا ضحكاً طويلاً
هازئاً لحظة تخيلوا ما سيرويه لأهل حارته، وأكدوا أنه لن
يجرؤ على أن يمس بقدميه أرض حارتهم مرة أخرى، ولكن
الفتى أتى إلى حارتهم في اليوم التالي، ومر بها بخطى
متمهلة ووجه باسم غير خائف، فتبادلوا النظرات المدهوشة،
ولم يدن منه أحد.

وفي اليوم الثالث، جاء الفتى إلى حارتهم، فحملوا إليه

صامتين حيارى، فطلب إليهم أن يتابعوا ثأرهم من حارته، فلبى بعضهم ما طلب الفتى، محاولاً أن يثأر لحارته المهانة بكل قواه.

وفيما بعد، اضطر أهل حارة السعدي إلى أن يغضبوا ثانية عندما بلغهم أن الفتى عاد إلى حارته، وسخر من ضعف الرجال في حارة السعدي، ولكن غضبهم في هذه المرة كان غضب العاجز عن محو عار لطفه ولن يفارقه.

جريمة الماء

في يوم من الأيام القديمة، حدّق أحد الملوك إلى ماء غزير ينساب عبر أرض فسيحة، ثم سأل وزيره بدهشة: «لماذا يرتجف الماء؟».

قال الوزير: «خوفاً من هبة مولانا».

قال الملك: «لم أقتنع بجوابك الذي يقطر نفاقاً».

قال الوزير: «لم أقل إلا ما أعتقد أنه الحقيقة».

قال الملك: «المذنب وحده هو الذي يرتجف خائفاً، فهل تستطيع إخباري بالذنب الذي ارتكبه الماء؟».

فلاذ الوزير بالصمت، ولم ينطق بأيّ جواب، فاستدعى الملك مدير شرطته، وسأله وهو يشير إلى الماء: «ما هذا؟».

قال مدير الشرطة: «ماء».

قال الملك بنزق: «هل تظن أنني أعمى؟ أنا أسألك عن معلوماتك عن ذلك الماء».

قال مدير الشرطة: «إنه ينبع من جبل، ويروي الأرض والناس».

فتفاقم غضب الملك، وصاح: «يا لك من غبي! من قال لك اني تلميذ في مدرسة أم أنك نسيت أنك مدير شرطتي؟ أنا أسألك عن موقفه من مولاك الملك».

فاضطرب مدير الشرطة، وشحب وجهه، وتمتم بكلمات غير مفهومة، فقال له الملك: «أنت ورجالك لا أكثر من لصوص مخادعين، ولا تستحقون ما تأخذونه من رواتب في آخر كل شهر».

فازداد شحوب وجه مدير الشرطة، وحاول التكلم، ولكن الملك قال له بصوت يشبه نصل سيف يهّم أن يهوي على عنق: «اسكت. أتجرؤ على التكلم بعد ان توافرت لدي الأدلة المبرهنة على إهمالك لواجباتك؟ أليس واجبك حماية البلاد من الأعداء وكشفهم؟».

وضحك الملك ضحكة قصيرة ساخرة، وأضاف متسائلاً: «هل صرّ أنا الملك مكلفاً بكشف المذنبين والمتآمرين؟».

وأمر الملك باعتقال الماء، فنفذ أمره بكثير من القسوة والتشفي، وسجن الماء في سجن بلا أبواب ولا نوافذ.

وسمي السجين منذ ذلك الحين بالنهر.

وذات يوم، حطّ عصفور صغير على ضفة النهر، وشرب من مائه، ثم قال له: «أنا حزين جداً».

قال النهر: «وأنا حزين أيضاً».

قال العصفور: «أنا حزين لأنني طردت من عشي وسكنه طير أقوى مني».

قال النهر: «سيزول حزنك إذا استعدت عشك، ولكن حزني لن يزول إلا إذا هلك عدوي الملك الذي حرمني الحرية».

قال العصفور: «الملك .. الملك .. أين سمعت هذه الكلمة من قبل؟ تذكرت. أظن أن جدي حكى لي يوماً حكاية عن ملك».

قال النهر: «هيا احك لي تلك الحكاية، فأنا أحب سماع الحكايات».

قال العصفور: «في قديم الزمان، عثر رجال ونساء على أرض كثيرة الماء والقمح والخراف والعصافير والشجر، ورأوا أنها تصلح للإقامة فيها، فشيّدوا البيوت والمدارس والمستشفيات وحدائق الأطفال، وعاشوا حياة سعيدة آمنة حتى جاء يوم وفد فيه إلى أرضهم رجل غريب يحمل سيفاً، فحملقوا إلى ما يحمله باستغراب وفضول إذ لم يسبق لهم أن شاهدوا سيفاً. لَوَّح الرجل الغريب بسيفه، وقال: «هذا. اسمه سيف. ويستطيع بضربة واحدة أن يقطع أي عنق من أعناقكم، فإذا كنتم حريصين على أرواحكم عليكم الخضوع لمشيئتي».

ولَوَّح الرجل الغريب بسيفه ثانية مهدداً، فارتجفت سنابل القمح والأشجار والعصافير والنساء والأطفال والخراف والرجال، وأعلنوا برؤوس منكسة أنهم عبيده الذين سيطيعون أوامره كافة.

وعاش الرجل الغريب مالك السيف في أرضهم، محولاً

الرجال والأطفال والعصافير خدماً، والنساء جواري، فسمي بالملك.

وكان ثمة شاب يتصف بالجرأة، وقد نقد صبره على احتمال الذل، فتسلل في ليلة من الليالي إلى مخدع الملك الذي كان مستسلماً لنوم عميق، وسرق سيفه، وركض نحو النهر، ولكنه ما إن همّ باللقاء السيف في الماء حتى تجمّد بغتة، وفكر قليلاً، ثم ابتسم مغتبطاً، فهذا هي ذي أيام الذل قد ولّت وآن أوان الثأر.

ولما أشرقت شمس الصباح عرفت الأرض ملكاً جديداً لم يلوح بسيفه مههدداً فقط إنما لطخه بدماء الرجال والنساء والشجر.

ومنذ ذلك اليوم تكاثر سارقو السيوف، ثم اضطرب بعضهم إلى اتخاذ صنع السيوف مهنة له، فازداد عدد السيوف والملوك والعبيد والجواري..».

وصمت العصفور فجأة إذ لمح حداقة تحلق في الفضاء، ولاذ بالفرار، فتساءل النهر بحيرة: «هل للحكاية بقية أم انها انتهت؟».

وأحب النهر حكاية العصفور، واستمر يرددها بلا توقف وبصوت عال، أما الناس الذين كانوا يجهلون لغة النهر، فقد سموا ما يقوله بالخرير.

من الألف إلى الياء

١ - ليل السلطان وصباحه

أصدر السلطان أمره إلى الليل بالمجيء، فأتى الليل مرصع السواد بالنجوم المرتعشة ذعراً.

تثاءب السلطان، فتثاءب شعبه، ونام فوراً.

وقال السلطان لرئيس حراسه: «إذا نمت، فلا توقظني من نومي حتى ولو اتصل بي هاتفياً كل ملوك الأرض». فتكلم رئيس الحراس مؤكداً أنه سيعمل وفقاً لأوامر السلطان، ولن يسمح لأي حدث أو شخص بإيقاظه من نومه، فصاح به السلطان غاضباً: «عليك إيقاظي إذا نشبت نار حرب عالمية حتى أسارع إلى إيقافها ومحاكمة مسببيها».

ولم تنشب حرب عالمية في تلك الليلة، وظل السلطان نائماً حتى الصباح.

وفي الصباح، استدعى السلطان رئيس وزرائه، وقال له: «أتعرف اني كنت ليلة أمس أفكر في أحوال الشعب قبل النوم؟».

قال رئيس الوزراء مبهوراً: «اللجنة على المؤرخين والأدباء».

فقال له السلطان مستغرباً: «لماذا تلعنهم؟».

قال رئيس الوزراء: «لأنهم مقصرون في تسجيل مآثر مولاي السلطان، فمولاي حتى في أوقات راحته لا يكف عن التفكير في أحوال شعبه، وهذا أمر لا يفعله أي حاكم من حكام الأرض».

قال السلطان: «لقد فكرت ورأيت أن وزارتك باتت عتيقة وتحتاج إلى تجديد».

قال رئيس الوزراء: «انها تحتاج فعلاً إلى تجديد، وأي بيت إذا لم يجدد ويرمم تهدم وتحول أنقاضاً».

قال السلطان: «لقد لاحظت أن معظم وزرائك من العجائز».

قال رئيس الوزراء: «هذا صحيح، فهم يبددون أوقاتهم في شراء القبور الفخمة المريحة والأكفان وكتابة وصاياهم وتعديلها وتنقيحها انتظاراً لذلك اليوم المعروف الذي لا مفر لإنسان منه».

قال السلطان: «لهذا السبب قررت أنه يجب أن تتبدل وزارتك ويتغير وزراؤك ويحل محلهم وزراء آخرون شبان، وتكليفك بهذه المهمة التاريخية متوقف على اجابتك عن سؤالي التالي: إذا دخلت يوماً إلى بيتك ووجدت في فراشك زوجتك مع رجل غريب، فماذا تفعل؟».

قال رئيس الوزراء: «أزأر وأصيح: وامعتصماه! ولكني لا أقدم على أي فعل قبل أستشير مولاي السلطان».

فضحك السلطان، وقال لرئيس وزرائه: «ما زلت حتى الآن الرجل العاقل الحكيم الصالح لأن يبقى رئيساً لوزرائي، فهيا اشرع في اختيار الوزراء الجدد، وأوصيك بالاهتمام بوزارة الحرية ووزارة الثقافة ووزارة التموين لأنها وزارات مهمة خطيرة حساسة ذات علاقة أساسية بمستقبل الوطن وحاضر المواطن».

فوعد رئيس الوزراء بصوت خاشع مفعم بالبهجة بأنه سينفذ فوراً أوامر السلطان وبدقة لا مثيل لها.

■ ٢ - رئيس الوزراء يختار وزراءه الجدد

استقبل رئيس الوزراء في مكتبه مجموعة من الشبان العاملين في مختلف المهن والذين ينتمون إلى فئات اجتماعية متفاوتة المستوى، وحرص على ان يجتمع مع كل واحد منهم على حدة، وكان أول من استقبله هو شاب يعمل طبيباً.

رئيس الوزراء: «هل سبق لك ان شاركت في معارك حربية؟».

الطبيب: «معاركي الحرية لا تحصى وتجري يومياً في غرف العمليات في المستشفيات، فأنا بتواضع أشهر من انتضي مشرطاً، ولو أضربت عن العمل لهلك حفارو القبور جوعاً».

رئيس الوزراء: «وما ثقافتك العسكرية؟».

الطبيب: «شاهدت أكثر من مائة استعراض عسكري، كما شاهدت ثلاث مرات الفيلم الحربي (هدفنا بورما)».

رئيس الوزراء: «وما خبرتك في المجال الحربي؟».

الطبيب: «تشاجرت مع ثلاثة رجال أمام أحد الملاهي، وتمكنت من هزيمتهم بمفردي وأجبرتهم على خلع أحذيتهم والهرب إلى خارج البلاد».

رئيس الوزراء: «إذا كنت وزيراً للحرية وكانت البلاد مهددة بأن تحتل من قبل جيش أجنبي، فماذا تفعل؟».

الطبيب: «أصدر بياناً حماسياً أندد فيه بالعدو شر تنديد داعياً الناس إلى حمل السلاح والقتال، ثم أذهب إلى مطعم، وأكل بشهية كي أثبت أن المعنويات بخير».

رئيس الوزراء: «وما هي في رأيك مهمة الجيش؟».

الطبيب: «مهمته أن يحارب خصوم مولانا السلطان، ومهمة الناس الدفاع عن الوطن».

رئيس الوزراء: «لقد ولدتك أمك كي تكون وزيراً للحرية لا طبيباً يداوي المرضى».

ثم استقبل رئيس الوزراء مثقفاً يفخر بأنه عصامي، وتخرج حديثاً من مدارس مكافحة الأمية.

رئيس الوزراء: «ما هي دراستك؟».

المثقف: «لم أدرس في أية مدرسة. أنا كمكسيم غوركي، ولكنني أختلف عنه فهو خريج مدرسة الحياة، أما أنا فخريج جامعة الحياة، ومكسيم غوركي ألف رواية عنوانها (الأم)، وأنا سأؤلف رواية اسمها (الآب)».

رئيس الوزراء: «اعرب ما يلي: ضرب الولد القطة».

المثقف: «ضرب حرف جر. الولد: مضاف إليه منصوب. القطة: حيوان أليف وخبر إن مرفوع».

رئيس الوزراء: «ما معلوماتك عن شكسبير؟»

المثقف: «شكسبير هو صاحب وعد بلفور المشؤوم».

رئيس الوزراء: «مهما بحث الوطن عن وزير للثقافة، فلن يجد من هو أفضل منك».

ثم استقبل رئيس الوزراء أحد التجار.

رئيس الوزراء: «إذا اشتكى المواطنون صارخين انهم جائعون، فمن المسؤول؟».

التاجر: «المسؤول هو أجهزة الإعلام التي أخفقت في إقناع المواطن بأنه شعبان».

رئيس الوزراء: «ما رأيك في الجوع؟».

التاجر: «الجوع في سبيل الوطن غاية سامية لا تدرك، والبلد الذي يتكاثر فيه عدد الجائعين ينجب العباقرة».

رئيس الوزراء: «إذا فقدت الفواكه من الأسواق، فما العمل؟».

التاجر: «تطبع فوراً صور ملونة للفواكه، وتوزع مجاناً على المواطنين تنشيطاً لخيالهم وقدراتهم على الابتكار».

رئيس الوزراء: «أظن أنه لا داعي إلى طرح المزيد من الأسئلة عليك، فمن الواضح أنه لا أحد غيرك يصلح وزيراً للتموين».

بعدئذ استقبل رئيس الوزراء رجلاً فقيراً ساذجاً، يتهم أحياناً بأنه أبله.

رئيس الوزراء: «ما اسمك؟».

الفقير: «لا أذكر».

رئيس الوزراء: «ماذا تشتغل؟».

الفقير: «لا شيء».

رئيس الوزراء: «ما رأيك في التوازن الاستراتيجي؟».

الفقير: «لا رأي لي».

رئيس الوزراء: «لو كنت تمشي في شارع ورأيت تظاهرة، فماذا تفعل؟».

الفقير: «لا أعرف».

فنظر إليه رئيس الوزراء بحنق، وأمر باعتقاله لاعتقاده أن السلطان لو علم به لعينه رئيساً للوزراء بدلاً منه، فالمطلوب هو من لا يدري ولا يعرف ولا يعلم.

وقابل رئيس الوزراء كثيرين، فاختار من اختار، ونبذ من نبذ، وتألقت الوزارة الجديدة من شبان أقوياء، وحظيت برضا السلطان. وركضت البلاد بفضلها إلى وراء، فمقدرة الشبان على الركض تختلف عن مقدرة الكهول.

يوم غضب
جنکيز خان

كان جنكيز خان رجلاً من دم ونار، حين
يشعر يوماً بملل يتذكر ما أحرق من مدن، وما
أهلك من رجال ونساء وأطفال وكتب وعصافير وقطط
وأشجار، فيختفي ملله، وتسود محله غبطة أكثر روعة من
نجمة وحيدة تتلألأ في ليالي صحارى الأرض.

ولكن جنكيز خان ملّ في يوم من الأيام مللاً لم يجد
سبيلاً للخلاص منه، فاستاء، وافترسته حيرة قاسية، فاضطر
إلى طلب المشورة من واحد من وزرائه، اشتهر بحكمته
وأرائه السديدة.

قطب الوزير جيينه، وقال لجنكيز خان بوقار: «امهلني
بضعة أيام حتى أفكر وأعثر على الدواء الشافي».

فقال جنكيز خان بنزق: «تتكلم كأنك طبيب! جابو
حالا وإلا أمرت خدمي بأن يسلخوا جلدك وأنت حي
تبصر ما يحل بك».

قال الوزير: «لا داعي إلى الغضب، فكل ما ترغب فيه
سيتحقق دونما تمهل وسأجواب...».

فقاطعه جنكيز خان قائلاً: «هيا انطق وقل جوابك ولا تناور وتحاول إضاعة الوقت. أريد وسيلة تقضي على ما أحس به من ملل لا يطاق».

قال الوزير: «قد يكون سبب مللك راجعاً إلى بقائك مدة طويلة في قصر زآخر بكل ما تشتهي، ولذا فقد يكون التغيير هو الكفيل بإنقاذك من مللك».

ففكر جنكيز خان طويلاً، ثم قرر العمل بمشورة وزيره، ورأى أن يتنكر في ثياب الفقراء، وغادر قصره وحده بغير حراس ولا أعوان، وجال في الطرقات حتى تعبت قدماه ووهنت قواه غير أن ملله لم يفارقه إنما ازداد، وأصبح سحابة سوداء تملك شرايته، فهتم بالرجوع إلى قصره ومعاقبة وزيره، ولكنه تنبه لرجل ينهال ضرباً بالعصا على حمار، فوجد نفسه يندفع نحو الرجل، ويمسك يده حاملة العصا، ويقول له بحق: «لو كان قلبك من حجر لما ضربت حمارك بهذه القسوة؟!».

فحدق الرجل إلى جنكيز خان مدهوشاً من دون أن يتفهو بكلمة، ولكن الحمار تكلم، وقال لجنكيز خان بهزة: «ما هذا الفضول البغيض؟ أنا الذي يضرب أم أنت؟!».

قال جنكيز خان: «هذا أمر عجيب حقاً! حمار ويتكلم؟!».

قال الحمار بزهو: «وأتكلم بلا أخطاء نحوية شائعة، محارباً اللهجات المحلية بوصفها تعبيراً عن نزعات اقليمية مقبلة».

فازداد استغراب جنكيز خان، وقال: «وتتكلم أيضاً كالمتقفين؟!».

قال الحمار باعتداد ورأس مرفوع: «أنا بالطبع مثقف». فضحك جنكيز خان، وقال: «أظن انه من الأفضل أن تصحح قولك فتقول إنك حمار مثقف إذا كنت حريصاً على النطق بالصدق وحده».

قال الحمار: «أنت مخطيء، فأنا لست حماراً مع أنني حمار».

قال جنكيز خان: «ما هذا الكلام الغريب؟ أ تطرح عليّ ألغازاً أم أنك تطلب مني أن أكذب ما أشاهده وأصدق ما أسمعه؟!».

قال الحمار: «يحق لك أن تستنكر وأن تتهمني بما تشاء من التهم، ولكنك إذا عرفت حكايتي صدقت ما أقوله». قال جنكيز خان وقد طغى عليه الفضول: «ارو لي حكايتك».

قال الحمار: «كنت من قبل مخلوقاً بشرياً أقرأ الصحف والمجلات، وأستمع إلى نشرات الأخبار، وأشاهد برامج تلفزيونية، ولكنني أردت استخدام ثقافتني للظفر بمغام شخصية مادية ومعنوية، فاضطرت إلى أن أمشي على أربع، وظللت أمشي على أربع آملاً في الحصول على ما أطمح إليه من جاه ونفوذ وثراء، فلم أنل ما أبغي بسبب كثرة الزاحفين، وتحولت من إنسان إلى ما تراه».

قال جنكيز خان متسائلاً: «وأذناك.. كيف كبرتاه؟».

قال الحمار: «لأنني كنت أستخدمهما أكثر من لساني». قال جنكيز خان وقد نسي أنه في ثياب الفقراء: «حين أعود إلى قصري سأمر بكتابة حكايتك كي تكون عبرة لمن يريد أن يعتبر».

قال الحمار: «أنت؟! أنت الشبيه بالمتسول تملك قصراً؟!».

قال جنكيز خان: «أنا لست أملك قصراً فقط بل أنا جنكيز خان سيد العالم. ألم تسمع عني؟!».

قال الحمار: «لن أصدق ما تقوله ولو أكلت كل ما على سطح الأرض من كتب».

قال جنكيز خان: «لماذا؟!».

قال الحمار: «الجواب سهل، فلو كنت حقاً جنكيز خان لما عנית بكتابة حكايتي وأهملتها، فالفضل هو من يتقن الزحف».

قال جنكيز خان: «أجوبتك لا تخلو من ذكاء يؤهلك لأن تكون واحداً من وزرائي».

قال الحمار: «الآن فقط اقتنعت أنك جنكيز خان».

قال جنكيز خان: «لماذا؟!».

قال الحمار: «لأنه ليس من المستغرب أن يختار جنكيز خان من كان انساناً وتحول حماراً وزيراً له».

فغضب جنكيز خان، وقال للرجل حامل العصا: «سأمر

بقطع رأسك إذا لم تتابع ضرب حمارك الوقح بقسوة لأنه سيء التربية، طويل اللسان».

فاستأنف الرجل ضربه للحمار بحماسة وخوف بينما قصد جنكيز خان قصره وقد تبدد ملله وحلّ محله غضب عارم أمر الشمس بالأفول، فشحب نورها، وأطاعت الأمر تواً ومن دون تردد، وأمر أيضاً مالكي الحمير كافة بأن يمتلكوا عصياً وسياطاً ويستخدموها باستمرار. ومنذ ذلك اليوم عانت الحمير ظمأً لن يزول.

قال الملك لوزيره

■ الكبار والصغار

قال الملك المحب للكلام لوزير العجوز المحب
للانصات: «اني أملك كل ما يؤهلني لأن أكون أسعد
رجل على سطح الأرض».

قال الوزير: «بل أنت أسعد الملوك والناس، وقاك الله شر
الحساد إذا حسدوا».

قال الملك: «لديّ من المال ما يكفي لبناء مدينة بيوتها
من ذهب».

قال الوزير: «سبحان من يرزق من يشاء ويحرم من
يشاء».

قال الملك: «ولديّ ملكة جميلة تحبني».

قال الوزير: «وهل تراك امرأة ولا تحبك؟».

قال الملك: «وعندي وزير عاقل حكيم ينصحني
ويتفاني في خدمتي».

قال الوزير: «من تكرمه وتصفه بأنه حكيم لم يخطُ بعد
الخطوة الأولى في دنيا الحكماء».

قال الملك: «وعندي سيّاف يختطف رؤوس خصومي».
 قال الوزير: «خصومك ميتون منذ أن عادوك».
 قال الملك: «وعندي قائد جيش يحمي قصوري».
 قال الوزير: «أكثر الله قصورك، وقلل الله أعداءك».
 قال الملك: «وعندي رئيس شرطة يعتقل السارق قبل أن يسرق».

قال الوزير: «وهو مطالب بتطوير أساليبه حتى يتمكن من اعتقال السارق قبل أن يولد».
 قال الملك: «عندي كل ما يجعل الانسان سعيداً، ولكنني لست سعيداً سعادة كاملة».

قال الوزير للملك: «كل شيء في الحياة يمكن نيله والتحكم به ما عدا السعادة، فهي ذلك الورد العصي الذي لا ينمو إلا في حدائق القلب، والقلب هو ذلك الطفل الطائش الغريب الأطوار».

قال الملك: «اني أعرف ما يجعل سعادتني كاملة غير منقوصة».

قال الوزير: «سأصوم شهر شعبان شاكراً لله فضله ونعمه».

قال الملك: «ما ينقصني هو أديب يكرس كتاباته لمملكتي تراثاً للأجيال الآتية، ويسمى أديب الملك».

قال الوزير: «مشاهير الأدباء يتزاحمون على بابك كالذباب والجراد والغبار. من تريد؟ المتنبئ.. التوحيدي..

المعري.. الجاحظ؟ أما إذا رغبت في أدباء أجانِب فسنتورد أحسن الأدباء بأرخص الأسعار مثلما نستورد السيارات والطائرات والقمح واللحم والزبد والأرز والفاكهة والخضروات».

قال الملك: «لا أريد أدبياً مشهوراً، ذائع الصيت، فهو كاذب مهما تصنع الاخلاص والطاعة، وسيظل مغروراً متعجرفاً».

قال الوزير: «لا أحد يطيق المغرور المتعجرف».

قال الملك: «كل صاحب موهبة هو متعجرف مغرور، واخلاصه الوحيد هو لموهبته التي تجعله يحس أنه واحد من الخالقين. والأديب الذي يجرب متعة أن يحبه الناس، لا شيء في الدنيا يعادل متعته. أريد أدبياً صغير السن غير معروف. أريه كما أشاء، يخلص لي، ويطيعني طاعة عمياء، ويحس في كل لحظة اني رب عمله الأوحد».

قال الوزير: «ولكن الصغير لن يظل صغيراً، وسيكبر ويصبح متكبراً».

قال الملك: «من يملك القدرة على أن يرفع يملك القدرة على أن يخفض، ومن يغني يفقر».

فصنع الوزير أنه يفكر تفكيراً عميقاً ثم قال للملك: «كان في قديم الزمان رجل له زوجة وابن صغير. وكانت حياته سعيدة لا تعكرها سوى زوجته السيئة الطباع، المحبة للنكد والشجار. وكان يكره زوجته بقدر ما يحب ابنه. ولم يتمكن من العثور على وسيلة تنجيه من زوجته. وفي

يوم من الأيام اصطاد ضبعاً صغيراً، فأحضره إلى البيت، واعتنى به خير عناية آملاً أن يأكل زوجته يوم يكبر.

وكبر الضبع، وأحس الرجل أن يوم الخلاص قريب آت، ولكن الضبع لم يأكل الزوجة ذات اللحم القاسي بل أكل الإبن الصغير ذا اللحم الطري».

قال الملك: «لو كانت حكايتك أطول قليلاً لمنت بلا حبوب منومة».

قال الوزير: «سأروي لك حكاية أخرى موجزة تبين لك أخطار الأدباء الصغار».

فقال الملك لوزيره: «لا داعي إلى مزيد من الحكايات، فقد قضى الأمر، وأسستُ سراً معملًا لصنع الأدباء المطيعين، ونتاج المعمل سيصبح في الأسواق بعد أسابيع».

ولم يكن الملك مازحاً، فقد نشط المعمل وانقض الأدباء الجوف الخانعون لأولي الأمر على مدن الكرة الأرضية وقراها، فإذا هم المهيمنون في كل زمان ومكان، وإذا الأدباء أصحاب المواهب مرغمون على الانزواء أو الصمت أو الانتحار أو الكتابة المتحدية التي تخسر مئات المعارك وتربح معركة واحدة.

■ أنصاف مواطنين

أرهقت السيوف، وأرهق حفارو القبور، وبات الخوف جراداً يقهر كل لون أخضر.

قالت السيوف للملك المعلن الحرب على الأشرار في الدنيا: «لديك مشائق، فدعها تساعدنا».

قال الملك: «حبال المشائق تستطيع ان تخنق فقط، ولا تريق ذلك الدم الذي يُرهب الشر ويدحر الظلم».

تعبت السيوف، وارتوت الأرض بالدم، فلم تعد محتاجة إلى مطر، وعذبها الشوق إلى الورد الأبيض.

استغاثت السيوف طالبة نصيباً ضئيلاً من الراحة، فلم يأبه الملك لها، وقال لوزيره: «أعمار أبناء آدم قصيرة. وأخشى ما أخشاه أن ينتهي العمر قبل ان تخلو مملكتي من الأشرار والظالمين والمفسدين».

قال الوزير: «الأعمار بيد الله.. وبيدك. ليتني أستطيع أن أتنازل لك عما تبقى لي من عمر».

فتأمل الملك وزيره، فرأى عجوزاً تركض نحوه حُفر القبور، فضحك بمرح، وقال لوزيره: «ولكن ما تبقى لك من العمر ليس بالكثير».

قال الوزير: «الكريم يعطي كل ما يملك، وليس مهماً أن يكون عطاؤه كثيراً أو قليلاً».

قال الملك: «أعمار الملوك بيد الله وأعمار الرعية بيد ملوكها. ومهما طال العمر فلا بد من نهاية له، ويجب ألا يضيع في توافه الأمور».

قال الوزير: «العظيم يختار هدفاً عظيماً، ولا هدف أعظم من مطاردة الشر ومحاربته وهزيمته في كل مكان».

قال الملك: «في يوم أمس تنكرت وتجوّلت في الطرقات متفقداً أحوال الناس».

قال الوزير: «وكل خطوة خطوتها كانت انتصاراً للخير على الشر».

قال الملك: «وأنوي اليوم زيارة السجون، فلا يرضيني أن يقال عليّ إن في سجونى بريئاً أو مظلوماً».

قال الوزير: «حاشا أن يظأ سجونك بريء أو مظلوم».

قال الملك: «أريد ان أتأكد بنفسى، فأزور السجون سجنأ سجنأ».

قال الوزير: «أتريد الإطلاع على أحوال السجون أم أحوال السجناء؟».

قال الملك: «لا أبالي بالجدران والسقوف. لا يهمنى سوى الناس وحدهم».

قال الوزير: «هذا جواب كنت أعرف أنك ستقوله قبل أن أسأل سؤالى. أحضرت السجناء، وهم فى انتظار الإذن من مولاهم ومولاى كى يسمح لهم بالمشول بين يديه».

فقال الملك: «أدخلهم فوراً».

فأشار الملك بيده إلى واحد من أعوانه، فبادر إلى مغادرة القاعة الملكية بخطى سريعة، ثم عاد مصطحبأ رجلاً مكبلاً بالأغلال، وكان من العسير تحديد عمره، فهو فى آن واحد شاب وعجوز.

قال الملك لوزيره: «من هذا؟».

قال الوزير: «سجين».

قال الملك: «أنت تحدثت عن سجناء بينما أرى سجيناً واحداً».

قال الوزير: «نحن في عصر الديمقراطية. النائب الواحد في البرلمان يمثل آلاف الناس، وهذا السجين يمثل آلاف السجناء، وجريمته ما زالت المحكمة تنظر فيها ولم تصدر حكمها عليه».

قال الملك للسجين: «وما جريمتك؟».

قال السجين: «سرت».

فتجههم وجه الوزير، فتابع السجين كلامه مضيفاً: «وقتلت زوجتي».

قال الملك: «لماذا سرت؟».

قال السجين: «كنت جائعاً».

قال الملك: «أعرف الجوع. جربته قبل أيام. أفقت من نومي صباحاً، فأحسست بالجوع، وانتظرت دقيقتين ولم أطلب الطعام كي أحس بما يحس به شعبي».

قال الوزير: «مولانا دائماً يضحى من أجل شعبه».

قال الملك للسجين: «عندما جعت مثل جوعك لم أسرق بل طلبت من خدمي إحضار الطعام، فلماذا لم تفعل مثلما فعلت؟».

فبوغت السجين بالسؤال، ونظر إلى الوزير كأنه يطلب العون، فقال الوزير للملك: «سؤالك يا مولاي معجزة

تكشف بأسلوب سهل ممتنع الفوارق بين سلوك الأخيار وسلوك الأشرار.

قال الملك للسجين: «ولماذا قتلت زوجتك؟».

قال السجين فوراً: «قتلتها لأنها تكره مولاي الملك».

قال الوزير: «مشهد رائع. سأبكي تأثراً. ملك يضحى في سبيل شعبه، وشعب يضحى من أجل ملكه».

قال الملك للسجين: «وكيف قتلت زوجتك؟».

فنظر السجين إلى الوزير بحيرة واضطراب، ثم قال متردداً: «ذبحتها».

قال الملك: «كيف ذبحتها؟».

قال السجين: «أحضرت من المطبخ سكيناً بينما كانت زوجتي نائمة تشخر، ووضعت السكين على عنقها وفصلت رأسها عن جسدها».

قال الوزير للسجين: «هل صحت: الله أكبر، وأنت تذبحها؟».

قال السجين: «نسيت».

قال الوزير متجهماً الوجه: «هذه جريمة لا تغتفر، ويستحق مرتكبها أن يموت شرمية».

فبهت السجين، وقال للوزير: «لم أقل: الله أكبر لأنني لم أقتل زوجتي».

فقال الملك للسجين بدهشة: «ماذا تقول؟».

قال السجين: «قلت إنني لم أقتل زوجتي، وهي الآن في

البيت. وفي استطاعتك طلبها لتأكد من صدق كلامي، وقلت إنني قتلتها لأن الوزير طلب إلي أن أقول إنني قتلتها».

فقال الوزير للملك: «يا مولاي.. لكل مواطن في هذه البلاد الحق في أن يعتقد ما يشاء ويقول ما يشاء. وهذا السجين اعتقد أنه قتل زوجته، واعترف بجريمته بين يديك من غير إكراه أو إرغام، والقاتل وفق القانون يقتل».

فدعر السجين، وتطلع فيما حوله بنظرات مستغيثة، وصاح: «أنا مظلوم».

فقال الوزير للملك: «هذا السجين مظلوم فعلاً، فالعدل يقضي أن تختلف عقوبة من يقتل امرأة عن عقوبة من يقتل رجلاً. وما دامت المرأة ترث نصف ما يرثه الذكر، فيجب أن يحكم على قاتلها بأن يموت نصف موت».

قال الملك لوزيره: «وكيف نميته نصف موت؟».

قال الوزير: «نأخذ قسماً نعدمه، ونترك له قسماً يتصرف به كيفما شاء».

فقال السجين للملك ووزيره: «هل ستأخذان مني القسم العلوي أم القسم السفلي؟».

وابتسم السجين مطمئناً عندما سمع الجواب، وامتلاأت القرى والمدن بأناس فقدوا نصفهم العلوي، وكانوا سبياً في ازدياد حوادث السير المؤسفة.

■ عصيان الليل

تثائب الملك، وقال لوزيريه: «ما أبطأ الليل! لماذا لا يسرع في الرحيل؟».

قال الوزير: «هذا المدعو الليل.. أعرفه كما أعرف سجادة الصلاة في بيتي. ولديّ تقارير كثيرة عن حياته وأفكاره وميوله وطبائعه، هو مجرد عجوز أحمق، محب للظهور في مظهر الغامض، الكثير الأسرار. أما بطؤه فسببه أنه تعود منذ القديم السير المتمهل بحجة أن السلامة في التأني. ولكن ينبغي له منذ هذه اللحظة هجر ما تعود إذا كان حريصاً على إرضاء سيده ومولاه».

قال الملك: «كأنك تقترح أن ينتسب الليل إلى نادٍ رياضي كي يتدرب على الجري السريع».

قال الوزير: «كل اقتراح يخدم مولاي هو اقتراح مرحب به».

قال الملك: «لو كانت مملكتي بلا ليل لصارت أفضل مملكة في العالم».

قال الوزير: «وهي الآن أفضل مملكة».

قال الملك: «لو كانت مملكتي بلا ليل لكانت الأيام كلها نهاراً، ولكان الناس يشتغلون بلا توقف، ولا يحضهم ليل على الاستسلام للخمول والنوم».

قال الوزير: «إذا شاء مولاي إصدار أوامره بمنع الليل من دخول البلاد، فلن يجرؤ الليل على العصيان».

قال الملك: «أبي وأجدادي رحمهم الله ووسع قصورهم في جنانه، حاولوا منع الليل، فأخفقوا، وظل الليل يأتي في نهاية كل نهار، ولا يطيع أي أمر».

قال الوزير: «الليل لم يخالف الأوامر إلا لأنه لا يعرف لغتنا. الليل يجهل كل ما في الدنيا من لغات، ولا يعرف سوى لغته التي عجز العلماء أجمعون عن النفاذ إلى طلاسمها».

قال الملك: «لو اعتقلته يوماً لما أشفقت عليه ولما رحمته، ففي حمى الليل تحاك المؤامرات، وتدبر المكائد والفتن».

قال الوزير: «لا تنس يا مولاي تابعه القمر، فهو متحالف معه، ولا يزع إلا إذا أتى الليل».

قال الملك: «وما القمر؟ إنه ليس موائد طعام شهوي ولا جوارى ولا ذهب ولا سيوف منتصرة. أي فائدة في القمر غير استثارة عواطف العشاق السذج وإلهام الشعراء قصائد غبية؟!».

قال الوزير: «في يوم غد ستحرق كل اللوحات الفنية التي رسمت الليل والقمر».

قال الملك: «إني أكره الليل، فهو يضجرنى».

قال الوزير: «منذ صباح الغد، سيحظر على الناس أن يضجروا، وينبغي لهم ألا يشعروا بما يشعر به ملوكهم».

قال الملك: «سأتحدث كما يتحدث الأدباء في القرن العشرين، وأقول إن الضجر الآن وحش يفترسني».

قال الوزير: «المغنيات والراقصات كفيلات بالقضاء على الضجر».

قال الملك: «سئمت المغنيات والراقصات».

قال الوزير: «المغنيات سخيفات، والراقصات تافهات، وكلاهما ممل. سنحضر مغنين وراقصين».

قال الملك: «سئمت الرقص والغناء».

قال الوزير: «الرقص خلاعة، والغناء سفاهة».

قال الملك: «الليل سمج طويل، ولن يقصر إلا بالحديث المسلي المشوق».

قال الوزير: «رجال العلم والأدب في البلاد كلهم رهن إشارة من مولاي».

قال الملك: «لا أريد واحداً منهم، وأعرف سلفاً كل ما سيتحدثون عنه، وأعرف أيضاً نظراتهم البلهاء الباحثة عن خزائني، أنت وزيري، وعليك أن تحدثني الحديث الذي ينسيني عدوي الليل. هيا حدثني عن النساء، فالحديث عنهن أجمل منهن».

قال الوزير: «كل شيء في الحياة يمكن الاستغناء عنه ما عدا المرأة. المرأة الجميلة هي الندى الغيم الأبيض النسيم العشب الأخضر الورد المطر الموسيقى...».

قال الملك: «ما هذا الهراء؟! أنت تتكلم كما يكتب الشعراء عن المرأة، فإذا معرفتهم بها مقتصرة على الحلقة إلى صور ممثلات. من يحكم على المرأة مخدوعاً بالمظاهر لا يرى سوى القشور، ولا ينفذ إلى الأعماق، المرأة تسعد لحظات وتشقى سنوات، وضررها أكثر من نفعها».

قال الوزير: «المرأة نار تحرق ودخان يعمي».

قال الملك: «لولا الليل لما دنوت من امرأة، ولما تزوجت. حين يأتي الليل يشعر المرء بالوحشة والوحدة، ويضعف، ويحنّ إلى الأنثى، فيطلبها إما زوجة وإما جارية».

قال الوزير: «المرأة مخلوق مزعج ثرثار فضولي، وسيظهر في المستقبل فيلسوف يثبت أن المرأة هي الجحيم».

قال الملك: «أصبحتُ ضعيف الذاكرة، كثير النسيان. كم زوجة لديّ؟».

قال الوزير: «وفق آخر إحصاء.. لدى مولاي أربع وأربعون زوجة».

قال الملك: «أعوذ بالله من هذا الرقم!».

قال الوزير: «سنبدله حالاً إذا شاء مولاي، ويصبح خمساً وأربعين».

قال الملك: «ديننا الحنيف يسمح للرجل بأربع زوجات فقط، فكيف لم تنبهني إلى مخالفتي لأحكام الشريعة؟».

قال الوزير: «لم يخالف مولاي يوماً أحكام الدين حتى أنبهه».

قال الملك: «وكيف لم أخالفها؟ ألم تقل إن لديّ أربعاً وأربعين زوجة؟».

قال الوزير: «ما يحق للملوك يحق لهم وحدهم، ولا يحق لغيرهم».

قال الملك: «ديننا لا يميز بين الملوك والناس».

قال الوزير: «صحيح أن كل الناس سواء أكانوا ملوكاً

أم رعاياهم متساوون كأسنان المشط، ولكن نصيب من يكّد ويكدح ويتعب ويشقى ليس كنصيب المتعطل عن العمل. إن الله عادل لا يحب الظلم والظالمين».

قال الملك: «أنا أعرف حبك للمواعظ. وعندما تبدأ بالوعظ، فلا شيء يوقفك، فهيا أكمل موعظتك».

قال الوزير: «كل عبد من عباد الله مسؤول عن نفسه، وسمح الله له بأربع زوجات. أما الملك فليس مسؤولاً عن نفسه فقط بل هو مسؤول عن الملايين من الناس، ولذا يحق له الزواج بملايين النساء. وإذا مارس هذا الحق لا يخالف الدين بل يطيعه، ويمثل لأحكامه».

ابتسم الملك، وتخيل سريراً بحجم البلاد التي يحكمها، ومغطى بالنساء الجميلات الضارعات.

وتخيل الملك الليل مهزوماً مطروداً والرجال يعملون من غير راحة، ولكن الليل كان مهيمناً خارج القصر عاصياً مزدرياً كل الأوامر الملكية يحضّ الرجال على امتلاك سيوف تطارد الملوك الظالمين.

■ الطراد

رأى الملك في أثناء نومه حصاناً أسود يجري في الشوارع مطلقاً صهيله الغاضب، يطارده حشد من الجنود، بعضهم يحمل عصياً وسياطاً، وبعضهم الآخر يحمل أغللاً، فقال الملك لنفسه: «أعرف اني نائم، أرى مناماً تفسيره أن الناس الذين أحكمهم هم الحصان، وأن الجنود الخائبين هم أنا».

وفي الصباح، ما إن أفاق الملك من نومه حتى نسي ما رأى، ولم يبقَ منه سوى مرارة غامضة جعلت الملك يترك سريره بحركة الهارب من شوك، ويقف في وسط مخدعه مكتئباً عابس الوجه، يتطلع إلى ما حوله ليباغت برؤية امرأة نائمة في سريره.

كانت المرأة بيضاء ذات شعر أسود طويل مبعثر، وقد بدت لعيني الملك جميلة، قاسية قسوة موت.

في تلك اللحظة، فتحت المرأة عينيها، فبدت أكثر جمالاً، وأشد قسوة.

قالت المرأة للملك بدهشة: «لماذا صحت مبكراً؟».

فقال لها الملك متسائلاً: «ماذا تفعلين في سريري؟».

قالت المرأة ضاحكة: «أفعل ما تفعله كل زوجة تعرف واجباتها نحو زوجها.. والمستغرب هو أن لا أكون في سريرك».

الملك: «من أنت؟».

المرأة: «أتمرح أم أن نوبة النسيان هذه المرة خطيرة؟ انظر إليّ جيداً. ألا تتذكر من أنا؟».

الملك: «كأنني رأيتك من قبل».

المرأة: «ألا تتذكر أيضاً أنك متزوج؟».

الملك: «أذكر اني عازب كاره للزواج».

المرأة: «أنت متزوج منذ خمس سنين».

الملك: «ومن هي زوجتي؟».

المرأة: «ماذا أفعل في سريرك إذا لم أكن زوجتك؟!»
 الملك: «أأنت زوجتي؟ أمر غريب! لماذا تزوجتك؟»
 المرأة: «لأنني كنت صفقة رابحة. أنا جميلة وبنيت ملك
 يهابه الجميع».

الملك: «يهايه الجميع ما عداي».
 فقالت المرأة للملك بمكر: «إذا كنت تركب ابنته، فهذا
 لا يعني أنك تركب جيوشه».
 فصاح الملك بالمرأة: «هيا اخرجي حالا والآن».
 فقاطعته المرأة قائلة: «لا داعي إلى الغضب والتهديد.
 تعودت سلوكك، ولم أعد أستغربه. تدللني في الليل
 وتقسو عليّ في النهار».

فهمّ الملك بالكلام، ولكن المرأة سارعت إلى القول له:
 «لا تتكلم. لست محتاجاً إلى النطق بكلمة. إنني أطيع دائماً
 كل أوامرك. أتذكر كيف أطعتك في الليل طاعة لا
 تنسى؟».

وقفزت المرأة من السرير، وغادرت المخدع وهي
 تضحك، فازداد غضب الملك، وزعق، فهرع إليه عدد من
 أعوانه، فقال لهم: «أريد وزيراً فوراً».

فتراكض الأعوان مذعورين نحو بيت الوزير بينما
 أغمض الملك عينيه، فرأى حصاناً أسود يحمم بحنق
 مطارداً جنوداً يحملون عصياً وسياطاً وأغلالاً.

وسمع الملك بعد حين صوت إغلاق باب، ففتح عينيه،
 فإذا رجل يدنو منه وهو ينحني باحترام.

قال الملك للرجل: «من أنت؟».

قال الرجل: «أنا وزيرك الذي يفخر بأنه وزيرك منذ أن جلست على كرسي العرش».

الملك: «ولماذا جلست على كرسي العرش بالذات؟ ألم يكن هناك كرسي غيره؟».

الوزير: «من يجلس على كرسي العرش يصبح ملكاً».

الملك: «إذن أنا الآن ملك؟».

الوزير: «لا أحد سواك ملكنا ومولانا».

الملك: «مادمثُ ملكاً وما دمت وزيرى، فهيتا حدثني عن أحوال الناس الذين أحكمهم».

الوزير: «الناس بخير، ولا مطلب لهم سوى أن تزداد الضرائب حتى يتاح لهم المشاركة في خدمة البلاد والوطن».

فقال الملك بصوت مفعم بالغيط المكظوم: «لا تتملق ولا تنافق. حدثني عن أحوال الناس».

الوزير: «إنهم مجموعة من جهلة، يعرفون ما لهم من حقوق، ويتناسون ما عليهم من واجبات. أنانيون. سريعو التأثير بالشائعات، ومن السهل تضليلهم وخداعهم، ويستطيع المغرضون التلاعب بهم، ولو قيل لهم إن الملك هو المسؤول عن ترهل أئداء نسائهم لصدقوا القول وتذمروا ونقموا وحقدوا. صحيح أن الناس جائعون قليلاً، ولديهم القليل من الحرية والكرامة، ولكن هذا الوضع هم وحدهم مسؤولون عنه، فهم يمتقنون العمل، ويعمل الواحد منهم في

اليوم من الصباح إلى المساء فقط ثم يجلس في المقهى ليثرثر، ولو اشتغل عشر ساعات أخرى لتحسنت أحواله ولشبع قليلاً».

الملك: «هل يوجد في سجونى محكومون بالإعدام؟».

الوزير: «هناك عشرات».

فبدا الملك كأنه غير راضٍ عن الجواب، فسارع الوزير إلى القول: «هناك عشرات ومئات وآلاف».

الملك: «اشنقهم كلهم دفعة واحدة في الظهيرة لا في الفجر كما جرت العادة. اشنقهم علناً، ولا تترك شجرة في البلاد من غير أن يتدلى منها مشنوق».

وختل إلى الملك أنه يسمع صهيل حصان جموح، فقال لوزيره: «سيشهد لي التاريخ أنى قد اكتشفت في الموت خير معلم».

عندما انتصف النهار، تحولت أشجار البلاد مشانق. أما الحصان الأسود فقد ظل في منامات الملك يجري في شوارع المدن مطارداً ومطارداً.

■ الإمتحان

نظر الملك إلى وزيره متجهماً الوجه، صارم النظرات، وقال له: «أتعرف أنى ضقت ذرعاً بحديثك؟ كلما سألتك سؤالاً، عرفتُ جوابك قبل أن تنطق بكلمة».

الوزير: «أعاهدك على أن أكون إنساناً جديداً ولد في

هذه اللحظة، وسأجواب أجوبة تفاجئك وتدفعك إلى الاعتقاد اني لست المتكلم».

الملك: «سأمتحنك امتحاناً عسيراً، والويل لك إذا لم تنجح».

الوزير: «إذا لم أنجح، فإني أرحب بأن يطير رأسي عن جسمي».

الملك: «أول سؤال في الامتحان هو السؤال الآتي: كيف أجعل حكمي ثابت الأركان، لا يهدده أي خطر؟».

الوزير: «الأخطار كثيرة ومتنوعة، ولكن أشدها هو الآتي من مواطن لا ينافق ولا يداهن ولا يغش ولا يكذب، ويقول للأعور: أنت أعمى وأصم».

فقال الملك لوزيره: «هذا جواب غريب لم أتوقعه».

فابتسم الوزير، وقال للملك: «أحمد الله لنجاحي في امتحان مولاي».

قال الملك بهزة: «يخيّل إليّ أنك تزعم أن تقترح عليّ اعتقال كل مواطن يتصف بالاستقامة والنزاهة والصدق».

الوزير: «لا لا.. لا يمكن أن أقترح مثل هذا الاقتراح».

الملك: «ولماذا؟».

الوزير: «لأن تنفيذه يتطلب بناء الكثير من السجون، وبناء السجون يحتاج إلى الأموال الطائلة، وهذه الأموال الطائلة ستخسرها خزائن مولاي».

الملك: «إذن ماذا تقترح؟».

الوزير: «سأقترح اقتراحاً ليس بالمعقد الشائك. اقتراحي سهل التنفيذ، مضمون النتائج، ويحقق الغاية المطلوبة».

الملك: لقد نجحت في إثارة فضولي، فهيّا تكلم واشرح لي اقتراحك».

الوزير: «ضع يا مولاي في المناصب المهمة الخطيرة أشخاصاً تافهين منافقين مزيفين أدعياء».

فقال الملك باستياء: «ما هذا الاقتراح السخيف المبتذل؟ أتريد أن تهدم مملكتي؟».

فقال الوزير بثقة واعتداد وفخر: «اقتراحي ليس بالطائش المخرب الهدام، ولا غاية له سوى حماية حكمك، وهو وحده القادر على القضاء على الأخطار التي لا تأتي إلا من الناس الأصيلين، فالتافهون المنافقون إذا قعدوا على الكراسي الخطيرة الشأن، فلن يتعاملوا إلا مع من يشبههم، ولن يظفر بتقديرهم إلا من كان أتفه منهم، ويفوقهم في ميدان الطاعة وتقبيل الأيدي، وسيجد الأصيل نفسه وحيداً مضطهداً منبوذاً، وينبغي له إما أن يحني رأسه وينافس التافهين، وإما أن يرحل هارباً إلى آخر الدنيا، وإما أن يهلك ببطء وصمت هلاكاً جسدياً ومعنوياً، وإما أن ينتحر. وفي كل الأحوال، مولاي الملك منتصر وفي أمان، وحكمه غير مهدد بأي خطر».

فكر الملك وقتاً ليس بالقصير، ثم تكلم مخاطباً وزيره: «اقتراحك فظ قاس مر، ولكنه هو الملائم والمنشود، وسأعمل على تنفيذه فوراً».

فرح الوزير، ولكن فرحه لم يستمر سوى لحظات إذ تكلم الملك بعدها بصوت متهدج وقور، وأبلغ وزيره أنه منذ هذه اللحظة مطرود من منصبه كوزير، فبهت الوزير، وقال للملك: «أي ذنب ارتكبته حتى أعاقب مثل هذا العقاب غير العادل؟».

قال الملك: «أنا لا أعاقبك بل أطبق اقتراحك، وما دمت قد اقترحت عليّ مثل هذا الاقتراح الذكي الصائب الذي ينجيني من الأخطار ويحافظ على حكمي، فهذا دليل على أنك لست بالتافه، ولا تستحق بالتالي أي منصب مهم».

وما إن سمع الوزير ما قاله الملك حتى ضحك ضحكاً مفعماً بالمرح الحقيقي الخالي من أي تصنع، فاستغرب الملك سلوكه، وقال له متسائلاً بتعجب: «أتضحك مسروراً لأنني طردتك من منصبك؟».

قال الوزير: «ولماذا لا أضحك مسروراً؟ أنت ستنفذ اقتراحي وتضطهد كل إنسان أصيل، ولذا فأنا مؤمن بعودتي إلى مناصبي، بل ستعطيني منصباً آخر أحسد عليه، فإذا كنت لست تافهاً فإن صفاتي الأخرى تؤهلني لمناصب أخرى أكثر أهمية من منصب وزير».

فقال الملك متسائلاً بفضول: «وما هي صفاتك الأخرى تلك؟».

فلم يجب الوزير المعزول إنما عاود الضحك مطمئناً واثقاً بأن الوضع النذل الغادر الخسيس له أيضاً ربّ يحميه ويرعاه ويهبه كل ما يشاء.

■ التأويل

قال الملك لوزيره: «رأيت ليلة أمس في أثناء نومي مناماً غريباً لا شبيه له».

فقال الوزير: «منامات الملوك ملوك المنامات».

قال الملك: «كلما تذكرت ذلك المنام احترت في إيجاد تفسير له يقنعني».

قال الوزير: «أشهر مفسري المنامات في البلاد متأهبون للمشول حالاً بين يدي مولاي».

قال الملك: «لا أريد سماع تأويلات مفسري المنامات، وأكره وجوههم التي تذكرني بالغربان والبوم».

الوزير: «لكي يرضى مولاي، أصدرنا قبل أشهر قانوناً يحظر على الغربان والبوم دخول أراضي المملكة».

الملك: «سأروي لك المنام الذي رأيته، وعليك أنت مهمة التفسير».

الوزير: «هذا شرف لم أحلم بأن أحظى بمثله ولو خدمت مولاي ألف سنة».

الملك: «كأنك تريد ان تظل ملتصقاً بكرسي الوزير ألف سنة؟».

الوزير: «المناصب غير مهمة. المهم هو أن يتاح لي باستمرار خدمة مولاي».

الملك: «اسكت واصغ إلى ما سأروي».

الوزير: «كلي آذان صاغية ولهفة».

الملك: «رأيت الناس يدخلون حديقة قصري من غير إذن».

الوزير: «سنبض عليهم فوراً».

الملك: «هجموا على كل ما في حديقتي من شجر، وأكلوا الثمار كلها. وعندما نفدت الثمار، أكلوا أوراق الشجر. وعندما نفدت الأوراق، أكلوا الأغصان. وعندما نفدت الأغصان، انقضوا على الجذوع محاولين التهامها».

الوزير: «هذا دليل جديد يثبت أن الناس هم مخلوقات تأكل من المهد إلى اللحد ولا تشبع».

الملك: «أمرت حراسي وجنودي بطرد الناس شر طردة، فلم يطعني أحد منهم».

الوزير: «الويل لهم».

الملك: «لقد تحولوا أصناماً من حجر».

الوزير: «تحولوا أصناماً ندماً وخوفاً من غضب مولاهم».

الملك: «وزوجاتي وجواري وأولادي تحولوا أيضاً أصناماً».

الوزير: «هذه مؤامرة كبرى على البلاد ومستقبلها».

الملك: «فجأة تنبه الناس إلى الشمس، فوثبوا عليها والتهموها كما يلتهم الجائع برتقالة».

الوزير: «غريب! ألم تحترق شفاههم؟».

الملك: «أكلوا كل شيء. أكلوا أسوار قصري. أكلوا جدران الغرف والسقوف. أكلوا النوافذ والأبواب. أكلوا

الملاعق والصحون والستائر، وأكلوا السجاد، وصار قصري مجرد أرض خاوية، ولم يبقَ فيه سواي، فأحاطوا بي، وشكلوا حولي دائرة محكمة، مكشرين عن أسنان تشبه أسنة الحراب. وابتدأت الدائرة تضيق رويداً رويداً. وعندئذ أفقت من نومي، ولجوت من أبشع ميتة».

الوزير: «من واجب البلاد أن تحتفل بنجاة ملكها ليل نهار وطوال سبعة أيام».

الملك: «ما تأويلك لهذا المنام الغريب؟».

الوزير: «مولاي يملك قلباً كبيراً رحيماً مملوءاً بالحب للناس. ولأنه يخشى دائماً أن يجوعوا فقد رأى في نومه ما رأى».

الملك: «أمثل هذا المنام المخيف، تقدم هذا التفسير السخيف؟».

الوزير: «مولاي هو أذكى الأذكاء. وكلما حاولت التهرب من جواب أخفقت، فإذا أعطاني الأمان تجرأت على تقديم التأويل الحقيقي الذي أراه صحيحاً».

الملك: «لك الأمان فتكلم».

الوزير: «الناس غاضبون لأنك تمنعهم من إظهار حبهم لملكهم، وهم ليسوا بمخطئين، ومن حقهم أن تُتاح لهم الفرصة لدفع ضرائب أكثر. والضرائب وحدها هي المعبرة عن عواطفهم».

وفي اليوم التالي، علم الناس أن الضرائب قد ازدادت،

فازداد جوعهم، وتأهبت أسنانهم لمواجهة ما هو أقسى من الصخر.

■ قوس قزح

قال الملك لوزيره: «سئمت كلام العقلاء، فهو سمج متكلف، وأتوق إلى كلام من نوع آخر مختلف مثير، وليكن كلام مجانين».

قال الوزير: «كلام العقلاء غبي مقرف وشبيه بالموت، ويكفي المجانين فخراً أنه لا يوجد مجنون يعرف النفاق».

قال الملك بدهشة: «كيف تقول هذا الرأي الكاره للعقلاء والمادح للمجانين؟ أأنت عاقل أم مجنون؟».

قال الوزير: «أنا مزيج من عاقل ومجنون، والسبب وراثي، فأبي عاقل وأمي مجنونة، وجددي مجنون وجدتي عاقلة».

* * *

قال الملك لوزيره: «ما فائدة الشمس؟».

قال الوزير: «لولا الشمس لما كان هناك حدود بين الليل والنهار، ولما عرف الناس متى ينبغي لهم الركض إلى العمل».

الملك: «وما فائدة المطر؟».

الوزير: «لولا المطر لهلك صانعو المظلات جوعاً، ولحرمت البلاد من صناعة عريقة تباهي بها الأمم».

الملك: «وما فائدة الشجر؟».

الوزير: «كل شجرة هي مظلة يستخدمها الناس الفقراء صيفاً وشتاء من دون دفع ثمن لها».

الملك: «وما فائدة الخبز؟».

الوزير: «للخبز فوائد لا تحصى».

الملك: «إحك عن فوائده التي لا تحصى».

فتكلم الوزير مطولاً عن دور الجوع في خلق رعية مطيعة، فاكتشف الملك جندياً مجهولاً من جنوده، يخدمه بتفان من غير أن ينال التقدير الذي يليق به.

* * *

كان الملك ممتطياً حصاناً أسود، فإذا الحصان فجأة يقذف الملك من على ظهره، فصاح الملك مستغيثاً متوجعاً، وقال لوزيره: «ما هذا؟».

قال الوزير: «سنبحث وراء الأكمة، وسنعرف السر بالتأكيد».

واعتقل الحصان الأسود فوراً، وحقق معه، واختتم التحقيق باعتراف الحصان من غير إكراه بأن خصوماً ألداء للملك والشعب هم الذين أغروه بفعل ما فعل. وعوقب الحصان، وعوقب خصوم الملك أجمعون.

* * *

قال الملك لوزيره: «سيتطور العلم في المستقبل، وسيخترع العلماء ما لا يصدق».

قال الوزير: «سيخترع العلماء في المستقبل نظارات...».

فقاطعه الملك متسائلاً بسخرية وتأنيب: «ألم تعلم بعد أنهم اخترعوا النظارات منذ مئات السنين؟».

قال الوزير: «سيخترعون نظارات مختلفة، يضعها المرء على عينيه، فيرى الأفكار في الرؤوس والمشاعر في القلوب».

قال الملك: «ليت هذا يحدث الآن!».

قال الوزير: «سيخترع العلماء أيضاً مواطنين لا يأكلون ولا ينامون ولا يشتكون ولا يطالبون بحقوق».

قال الملك متحمساً لما سمع ومعجباً به: «الله.. الله! ما أروع هذا الاختراع! لماذا ننتظر المستقبل؟ قل لعلمائي إنني لا أطيق الانتظار، ولا صبر لدي».

قال الوزير: «سأنقل إليهم رغباتك السامية، وسأطالبهم أيضاً بأن يكون المواطنون لا يصرخون إذا ما ضربوا، فالصراخ مؤذ للأذن، ومسيء إلى أصحاب الأحاسيس المرهفة».

قال الملك: «وإذا نجح العلماء فسأمنح كل واحد منهم مكافأة سخية».

قال الوزير: بلهجة شاكية: «يا مولاي العادل المنصف.. ونصيب وزيرك المخلص المتفاني؟».

قال الملك: «اطمئن. سيكون لك وحدك مكافأة تفوق مكافأتهم أجمعين».

فابتسم الوزير فرحاً بثروة صغيرة تضاف إلى ثروة كبيرة، فالملك لا يعلم أن ما يطالب العلماء باختراعه قد

اخترع وأنجز منذ أعوام، ورعية الملك مواطنون لا يأكلون ولا يتامون ولا يتذمرون ولا يطالبون بأي حقوق.

■ نساء ورجال

تنكر الملك ووزيره في ثياب الفقراء، وطافا في الأزقة والطرقات منذ شروق الشمس حتى أفلوها، محملتين بفضول إلى الناس. ولما تعب الملك، عاد إلى قصره يتبعه وزيره مهرولاً.

وما أن استراح الملك حتى قال لوزيره متسائلاً: «في أثناء جولتنا، ألاحظت أنت ما لاحظته أنا؟».

قال الوزير: «ما تستطيع عين الملك أن تراه، ليس في مقدور الوزير أن يراه ولو كان مالكاً لعشر عيون».

قال الملك: «أنا لم أر أحداً يبتسم أو يضحك».

قال الوزير: «لقد خلق الله النهار للعمل، ولا يليق بالعبد أن يخالف مشيئة الخالق، فيبدد وقت العمل في اللهو والهزل».

قال الملك: «إذن متى يبتسم هؤلاء الناس أو يضحكون؟».

قال الوزير: «لا مبرر لابتسامهم أو ضحكهم، فلا ابتسام والضحك يتطلبان جهداً من الأفضل ادخاره من أجل خدمة البلاد وملكها».

قال الملك: «وحتى الأطفال.. لم أر طفلاً واحداً يبتسم».

قال الوزير: «الوقت الآن وقت امتحانات مدرسية».

قال الملك: «ما أدهشني هو أنني لم أشاهد امرأة واحدة في الطريق. شاهدت رجالاً وأطفالاً فقط. أين النساء؟».

قال الوزير: «وماذا تفعل المرأة في الطريق؟ المرأة خلقت لتحيا في البيت، لتغسل الثياب، لتنظف الغرف، لتطهو الطعام، لتربي الأولاد، لتنتظر عودة زوجها من العمل وتفعل كل ما يسره. وحين لا يشاهد مولاي امرأة في الطريق، فهذا برهان على أن قيمنا الأصيلة بخير، ومجتمعنا سليم. وهذا وضع يتمني كل مخلص لو يستمر ويبقى، ولكنه لن يستمر، وسيأتي زمان فاسد تعلن فيه النساء العصيان، وسيخرجن من بيوتهن، ويرتدين ثياباً كثياب الرجال، ويشغلن كالرجال، وينلن حقوقاً أكثر من حقوق الرجال».

فقال الملك: «أنت مخطيء». ما سيحدث في المستقبل لا يعلم به إلا خالق الكون وحده، ولا يشاركه بشر في هذا العلم».

قال الوزير: «ناقل الكفر ليس بكافر. أنا أردد فقط ما كنت قد قرأته في كتب قديمة نادرة ألفها خير العلماء».

فابتسم الملك وقال: «هيا حدثني عما قرأته من نبوءات عن المستقبل».

قال الوزير: «سيظهر في المستقبل ملك غريب الطباع، يكره لحم الخراف والدجاج والسمك، ويهوى لحم النساء. وفي كل يوم يتزوج امرأة، ويأكلها في وجبة العشاء. وتزوج

يوماً امرأة تهوى لحم الرجال، فأكلت الملك بدلاً من أن يأكلها».

قال الملك: «هذا ملك طائش، ولو كان ملكاً حقيقياً لاحتاط لأي حدث مفاجيء، وأمر باقتلاع أسنان كل النساء».

فنهتف الوزير بإعجاب: «هذا كلام تاريخي، فالملك الحريص على عرشه وسعادة شعبه يقتلع أسنان شعبه، ويقيم وحده صاحب الأسنان».

فضحك الملك، فبدت أسنانه كأنها أنياب مدربة على الإنقضاض على الأعناق، ثم قال لوزيره: «وماذا سيحدث أيضاً في المستقبل؟».

قال الوزير: «أمل أن يكون ما سأقوله مجرد كذب. لقد تنبأ أحدهم بأن بلادنا بعد ألف سنة ستشهد كارثة شاملة، لن يفلت من ضررها أي مجال من مجالات الحياة، وستجعل بلادنا المزدهرة أسوأ بلاد».

قال الملك: «وما هي تلك الكارثة؟».

قال الوزير: «أنت تعلم يا مولاي أن صناعة النسيج هي أشهر صناعة في بلادنا. وفي المستقبل، سيجوع كل من يعمل في صناعة النسيج، وستتوقف المصانع عن الانتاج، وستمتلئ الأسواق بالاقمشة الكاسدة التي لا تجد من يشتريها».

قال الملك: «هذه النبوءة باطلة، فالناس يحتاجون دائماً

إلى ثياب، والثياب تصنع من القماش، والقماش تصنعه مصانع النسيج».

قال الوزير: «ما سيحدث هو أن النساء اللواتي هنّ أكبر مستهلك للثياب، سيرتدين نوعاً من الثياب لا يحتاج إلا إلى أشبار من القماش بدلاً من الأمتار».

قال الملك: «ولكنك قلت إن الكارثة ستكون شاملة مع أن مصانع النسيج مجرد جزء، وليست هي الكل».

قال الوزير: «ما سيحدث هو أن النساء حين سيظهرن في الطرقات وهن مرتديات تلك الثياب الشائنة، سيفقد الرجال عقولهم، ويهجرون أعمالهم، ويكتفون بالحملقة إلى النساء وملاحقتهن كما يلاحق الذئب الشاة».

ففكر الملك قليلاً ثم قال لوزيره: «ما سيحدث في المستقبل البعيد قد يحدث في المستقبل القريب ونكون شهوداً عليه، ولذا فالعاقل ينبغي له أن يحترس ويحاذر منذ الآن».

وأصدر الملك أوامره، فشيّدت البيوت شبيهة بالسجون، وصنعت الملاءات السود، وعممت بوصفها طريقاً إلى الجنة.

■ العائلة

جلس الملك في حديقة قصره، وجلس وزيره بالقرب منه.

نظر الملك إلى العشب الأخضر الملتصع والأشجار والورد

المتعدد الألوان، ونظر إلى السماء، فإذا هي عميقة الزرقة تعبرها غيمة بيضاء صغيرة، فطغى عليه حب لكل ما على سطح الأرض، وحقق إلى وزيره بنظرات متفحصة، ثم قال له بلهجة مشفقة: «يبدو عليك التعب الشديد. منذ سنوات لم تنل أي إجازة».

قال الوزير: «إذا كان التعب غايته خدمة الرعية، فهو ليس تعباً. المهم ألا يتعب الضمير».

قال الملك: «العامل يشتغل في النهار ويستريح في الليل، أما أنت فتشتغل في الليل والنهار».

قال الوزير: «أن أسهر الليل خير لي من أن يحاسبني ربي الحساب العسير على تقصير غير مقصود بدر مني».

فلاذ الملك بالصمت مفكراً. وفجأة قال لوزيره: «أعرف بماذا أفكر؟».

قال الوزير: «الله وحده هو العالم بما تخفي الصدور والرؤوس».

قال الملك: «إنني أفكر في تنظيم جديد للدولة يكفل لك بعض الراحة. سأعين لكل قطاع وزيراً، والوزراء كافة يعملون تحت إمرتك».

قال الوزير بامتناع: «المهم أن نوفق في العثور على رجال مخلصين ذوي كفاءة، فلا شيء أصعب من إيجاد الرجل المناسب ليجلس على الكرسي المناسب».

قال الملك: «أريد وزير خارجية نشيطاً، يكون سفيرى

إلى دول العالم، فيسافر ويفاوض، ويجمع المعلومات عن أعدائي في الخارج».

قال الوزير: «هذا منصب يليق بابني الأول فكأنه ولد ليحيا سائحاً متنقلاً من بلد إلى بلد».

قال الملك: «وأريد وزيراً للتعليم يعمل ويعمل حتى لا يبقى أمي واحد في البلاد».

قال الوزير: «التعليم أمر جليل، ولكن المتعلم مقدر له أن يشقى في حياته. وإذا كان فقيراً صار حسوداً، والحسد يقود إلى التهلكة أو القنوط والتعاسة. ولعل أفضل من يشغل هذا المنصب هو زوج خالتي، فهو مغرم بالتدريس، ويجمع حوله الأولاد، ويلقي عليهم دروسه. وحين لا يجد أحداً ينصت له يلقي دروسه على الحيطان».

قال الملك: «وأريد وزيراً للزراعة يحوّل البلاد حدائق وبساتين وحقولاً خضراً».

قال الوزير: «تذكرت ابن عمي، فهو ذو يد مباركة ما إن تمس غصناً يابساً حتى يخضر وينمو ويكبر».

قال الملك: «وأريد وزيراً للمالية، نزيهاً، أميناً، نظيف اليدين».

قال الوزير: «هذه الوزارة ليس لها سوى ابني السادس، فهو يغسل يديه بالصابون والماء الحار عشرات المرات في اليوم الواحد».

قال الملك: «وأريد وزيراً للثقافة».

قال الوزير: «لي أخ يصغرنى سناً، وهو بلا عمل. ومن

الظلم أن يبقى بلا عمل. وأظن أن منصب وزير الثقافة يلائمه خاصة وأنه يعني بالشؤون الثقافية والفكرية، ولا يترك مجلة فنية إلاً ويقرأها ويحفظ ما ورد فيها».

قال الملك: «وأريد وزيراً للإعلام».

قال الوزير: «القابلة التي تولت اخراج أبنائي من ظلام البطن إلى نور الدنيا هي أحسن وزير إعلام في الدنيا، فإذا قيل أمامها في الصباح خبر، انتشر الخبر وشاع في آخر الدنيا بعد ساعات».

قال الملك: «وأريد وزيراً للصحة، يعني بصحة الناس، ويشيد المستشفيات، ويؤسس المدارس للأطباء المهرة حتى يصبح العثور على مريض واحد أمراً مستحيلاً».

قال الوزير: «أتريد وزيراً أم وزيرة؟ هذا المنصب مناسب للنساء مع اني ضد أن تعمل المرأة خارج بيتها، ولكن وجود امرأة وزيرة سيكون بلا دنا في الخارج سمعة حسنة. وابنتي مؤهلة لهذه الوزارة، فهي لم تلبس طوال حياتها إلاً الثياب البيض».

قال الملك: «وأريد وزيراً للشرطة، مهمته تمييز الخصم من الصديق».

قال الوزير: «أعمالي ستقل بعد أن يتولى كل وزير مسؤولياته، وأقترح أن أتولى بنفسى هذه الوزارة بالإضافة إلى رئاستى للوزارة، وسأبىد خصوم مولاي قبل أن يقرروا أن يصبحوا خصوماً».

قال الملك: «وأريد وزيراً قديراً لجيوشي».

قال الوزير: «الملك العظيم يفعل ما لا يتوقعه الناس، وما يباغتهم ويحيرهم. كل الممالك والبلدان تختار مشاهير الأبطال قواداً لجيوشها، فإذا اخترنا مثلما اختار غيرنا لا نضيف جديداً جديراً باحترام التاريخ. وإذا أردت يا مولاي ضجيجاً اعلامياً في العالم، فأقترح أن يكون الوزير جباناً رعيدياً لا يجرؤ على المشي في الظلام إلا إذا كانت أمه تمسك يده. أما إذا أردت وزيراً يخشاه الأعداء، فأقترح ان تكون مهنته الأصلية حفر القبور، فيرتعب الأعداء منه، ويعرفون ما ينتظرهم إذا ما تجرأوا على مواجهته في ساحة الحرب».

قال الملك: «وأريد وزيراً للأخلاق الحميدة».

قال الوزير: «البلاد ولله الحمد تعج بالناس ذوي الأخلاق الحميدة، وأصحاب الأخلاق غير الحميدة إما ماتوا، وإما في السجون ينتظرون الموت».

قال الملك: «وأريد وزيراً للاستيراد».

قال الوزير: «لا أحد يضاهي ابن عمتي في الخبرة في الاستيراد. وسنستورد النساء الجميلات من أقاصي الأرض لا لإرضاء الشهوات بل لتحسين النسل، وسيكون الجيل الجديد شعباً من أجمل شعوب العالم».

قال الملك: «وأريد وزيراً للاقتصاد».

قال الوزير: «أخو زوجتي تاجر عريق يبيع الجمل على أنه دراجة أطفال».

قال الملك: «وأريد وزيراً للشعر، يحضّ الشعراء على الالتزام بآلام الناس والتعبير عنها».

قال الوزير: «سأتجراً مولاي على مخالفتك، فالناس في عهدك لهم أفراح وليست لهم آلام. ولا آلام في حياتهم سوى آلام الصداع».

قال الملك: «وأريد وزيراً للصحراء، سأسميه وزير الصحراء. ستكون مهمته انشاء طرق جديدة في الصحراء، فإذا اكتظت الصحراء بالطرق أضيفت إلى البلاد مدن جديدة. وينبغي لذلك الوزير ان يقيم بالصحراء مع العمال، يبرد كما يبردون، ويعاني الحر كما يعانون، وقد يمرض ويموت، ولكنه سيموت شهيد الواجب».

قال الوزير: «سننشر اعلاناً عن مسابقة صارمة الشروط. ومن كان ذا كفاءة فليظفر بالوزارة».

قال الملك: «حين سيبدأ هؤلاء الوزراء أعمالهم سيتاح لك آنذاك أن ترتاح».

قال الوزير: «ولكننا بحاجة إلى وزير للشمس. الناس في الليل يضيئون بيوتهم بنور الكهرباء، ويدفعون في آخر الشهر ثمن الكهرباء، فلماذا يستفيدون من نور الشمس في النهار مجاناً؟».

ولم تؤلف الوزارة، ولكن الحياة القساة انتشروا في المدن والقرى، مطالبين الناس بدفع ثمن ما استهلكوه من نور الشمس.

■ النوم

كان الملك مغمض العينين، مستسلماً لنوم عميق على سرير من ذهب وحرير، ولكنه كان في الوقت نفسه محني الظهر، مكتئباً، واجماً، يقف حافي القدمين على رمال شاطئ بحر هادئ الموج، متلهفاً على الالتقاء بمن يبحث عنه من غير أن يعرفه.

وفجأة خرجت من ماء البحر امرأة شابة، ودنت منه متسائلة بصوت آمر: «من أنت؟».

فحدق الملك إليها ملياً، وبدت لعينيه وهي مغمورة بضياء القمر، عذبة، ساحرة، جميلة جمالاً غريباً لم يشاهد مثله من قبل. ورغب في أن يسألها ما إذا كانت سمكة أم امرأة، ولكنه عندما تكلم قال لها بتلعثم مجيباً عن سؤالها: «أنا.. أنا.. أنا..».

فقالت المرأة له كأنها عجوز تخاطب طفلاً صغيراً: «من أنت وماذا تشغل؟».

قال الملك: «أشتغل ملكاً».

فضكت المرأة، وقالت: «هذه مهنة غريبة غير موجودة في بلادى».

فقال الملك: «وأين بلادك؟».

فأشارت المرأة بيدها اليمنى إلى البحر، وقالت: «هناك بلادى.. في قاعه».

وأمسكت يده، وقادته إلى البحر، فاستسلم لها، ووجد

وفارقه حزنه لتحلّ محله الطمأنينة والفرح. وخيّل إليه أن يد المرأة المسككة بيده ليست من لحم إنما هي أغنية تحكي عن أطفال يلعبون مرحين في سهل أخضر. وعندما وطئت قدماه قاع البحر، رأى مدينة مضاءة بنور ساطع أزرق، فجال في شوارعها التي تنتصب على جانبيها بيوت وحوائيت من زجاج، ولم يلتق أي مخلوق، فسأل المرأة بفضول ودهشة: «أين الناس؟».

فقالت المرأة: «جاع السمك فأكل الناس، وكثّ وحدي الناجية».

ووضعت يديها على كتفيه، وأضافت قائلة بصوت رقيق: «لا تقلق ولا تحزن، فالحياة ستعود كما كانت. ستزوج وننجب الكثير من الأولاد، وأولادنا سيتزوجون وينجبون الأولاد، وأولادهم سيتزوجون وينجبون الأولاد». فعاد إليه حزنه ثقيلاً مبهماً، وقال للمرأة: «لا أريد الحب ولا الأطفال».

فقالت المرأة متسائلة بدهشة: «ألا تحب النساء والأطفال؟!».

فقال الملك: «أحب النساء».

وقال الملك: «أحب الأطفال».

وقال الملك: «ولكني لن أحب أي امرأة ولن أكون أباً. عندي زوجات لا أحبهن ولن أحبهن».

فقالت المرأة بغضب: «ستندم إذا لم تطعني».

فقال الملك: «سأترك فوراً وأعود إلى بلادي ملكاً لا حبيبة له ولا أولاد».

فتجههم وجه المرأة، وتحولت بغتة سمكة بحجم قارب ضخمة، واندفعت نحوه، وابتلعتة، فوجد نفسه حبيساً في جوفها المظلم، يتخبط في سائل شديد اللزوجة، فأطلق صرخة استغاثة مفعمة بالهلع، وابتل وجهه بالدموع.

وعندئذ أفاق من نومه وهو يتصبب عرقاً ويلهث مرعوباً، فقال لنفسه: «اخجل واهداً. أنت ملك تُرعب ولا ترتعب. ها أنت في قصرك المطوق بالجنود المسلحين المتأهبين لقتل الموت ذاته إذا ما أمرتهم، فكيف ترتجف خوفاً من مجرد منام؟».

وأغمض عينيه محاولاً النوم ثانية، ولكن رعباً خفياً ظل في أعماقه، ومنعه من النوم، فترك سريرته، ووقف أمام مرآة طويلة، ونظر إليها، فرأى رجلاً متهدل الكتفين، شاحب الوجه، زائغ النظرات، فصاح بصوت صارم حائق آمراً بإحضار وزيره فوراً.

وبعد دقائق، دخل الوزير إلى مخدع الملك مهرولاً، فبادره الملك متسائلاً: «كم الوقت الآن؟».

فقال الوزير مدهوشاً: «لا أستطيع الإجابة بدقة لأن الساعات لم ت اخترع بعد، ولكنني أظن ان الفجر ما زال بعيداً».

فجلس الملك على أحد الكراسي، ووضع سبابته بين

أسنانه، وعضّ عليها مفكراً، ثم قال لوزيرهِ فجأةً: «احك لي ما يسليني ويبعد الهم والغم عن نفسي».

قال الوزير: «كنت في كل الأوقات أحظى بشرف المبادرة إلى تنفيذ أوامر مولاي، ولكنني الآن مشوش التفكير، مضطرب النفس، عاجز عن النطق بما يسلي».

قال الملك: «ما بك؟ هل كنت نائماً ورأيت في نومك مناماً مزعجاً؟».

قال الوزير: «في هذه الليلة لم أتم لحظة واحدة. قضيتها كلها في التحقيق مع رجل خطير اعتقلناه، وثبت لدينا أنه مرسل من قبل خصوم مولاي في الخارج».

قال الملك: «أهم يريدون اغتيالي؟».

قال الوزير: «مخططهم أكثر خبثاً. ظاهره بريء وباطنه هو الشر المكثف. مخططهم يعتمد على نشر الدعاية الجنسية بأساليب مغرية بحيث يقبل الرجال على النساء والنساء على الرجال، فيزداد انجاب الأولاد، ويزيد عدد سكان البلاد حتى تعجز الدولة عن تأمين المسكن والطعام. وعندئذ يعمّ عصيان يطيح بنظام الحكم».

فضحك الملك، وقال لوزيرهِ: «هذا المخطط تافه، فهيا أطلق سراح الرجل البريء فوراً».

قال الوزير معترضاً: «ولكنه يا مولاي قد اعترف بأنه عميل للأعداء».

قال الملك: «كن عاقلاً واستخدم عقلك. إذا كان عمل عدوي ضدي يخدمني، فلماذا أمنعه من العمل؟».

قال الوزير: «أعترف بأن عقلي مشلول وعاجز عن أي تفكير».

قال الملك: «إذا ازداد عدد السكان، ازداد عدد جنودي، وازداد عدد رجال شرطتي العلنية والسرية، وازداد عدد حراسي، وازداد عدد الجائعين الذين يبيعون ما لديهم برع الثمن ولا يسامون. وهكذا ترى أن دولتي ستزداد قوة بدلاً من أن تضعف».

وأطلق سراح الرجل شرط أن يعمل بنشاط لتحقيق الغاية التي حددها خصوم الملك.

■ بلاد بلا أدباء

كان الملك غاضباً أشد الغضب، وحاول ان يكظم غيظه، ولكن عينيه توردتا، فكانتا صارمتين قاسيتين، فقال لوزيره بصوت بذل جهده كي يكون عادياً: «هل أنت متأكد من أنك تنقل إليّ كل ما يجري في المملكة؟».

قال الوزير: «إني أنقل إليك حتى مشاجرات الأزواج والعشاق وأخبار الطلاق وأسبابه».

قال الملك: «أنت تنقل إليّ التافه وتحجب عني المهم والخطير».

قال الوزير: «لو أمر مولاي بوضعي في السجن مدى الحياة لكان مصيري أرحم من مصيري الآن».

قال الملك: «إحدى زوجاتي قالت لي اليوم صباحاً إن

أحد الشعراء هجاني بشعر يردده الناس في سهراتهم
صاحكين متندرين، فهل هذا صحيح أم كذب؟».

قال الوزير: «هذا الشاعر الوقح هو في السجن يئن
ويستغيث ولا من مجيب، ولن يخرج منه إلا إذا تنصّل من
قصيدته البذيئة بقصيدة مديح».

قال الملك: «إذن الخبر صحيح؟!».

قال الوزير محني الظهر والرأس: «الخبر صحيح».

قال الملك: «ولماذا لم تخبرني به؟».

قال الوزير: «لأن نهجي في العمل هو ألا أعرض على
مولاي إلا عظام الأمور، ولا أشغله بالتوافه».

قال الملك: «هذه حال لا تطاق. من يهجونا يطلب
مالنا ليسكت فإذا لم ندفع له تابع هجاء وتماذى أكثر.
ومن يمدحنا يطلب أيضاً مالنا كأجر على مديحه، فإذا لم
نعطه ما يريد، انقلب علينا، وقفز من شعر المديح إلى شعر
الهجاء. وفي كل الأحوال نحن الخاسرون».

وصمت الملك، وراح يفكر، ثم قال لوزيره: «الصيدون
يصيدون السمك في البحر والنهر، فما حاجتهم إلى
الشعر؟».

قال الوزير: «الصيدون لا يهتمهم سوى الخبز واللحم
والمرأة».

قال الملك: «والفلاحون يحرقون حقولهم ويذرون
البذور ويسقونها بالماء ويتعهدونها بالرعاية، فهل هم بحاجة
إلى الشعر؟».

قال الوزير: «الفلاحون دائماً عيونهم مصوبة نحو السحب، ولا يقلقهم سوى انحباس المطر».

قال الملك: «والعمال يشيدون البيوت والقصور ويعبدون الشوارع والطرقات، فهل هم محتاجون إلى الشعر؟».

قال الوزير: «لا يهتم العمال إلا بزيادة أجورهم وبأن تغرب الشمس في أسرع وقت».

قال الملك: «والتجار يبيعون ويشتررون، فما حاجتهم إلى الشعر؟».

قال الوزير: «أعرف التجار كما أعرف وصادتي، فما داموا يبيعون ويشتررون ويربحون، فلا شيء ينقصهم».

فقال الملك متسائلاً بنزق: «مادام الناس لا يعينهم الشعر، فلماذا لا يصدر قانون يحظر نظم الشعر؟».

فابتسم الوزير، وقال للملك: «أياذن لي مولاي بالكلام؟».

قال الملك: «تكلم. من يوثق فمك؟».

قال الوزير: «لو صدر مثل هذا القرار، فلن يفيد الفائدة المرجوة. الشعر كالمرض الذي لا دواء له، والمصاب به لا يستطيع الشفاء منه، ولا بد من أن يقول شعراً. الشاعر كالغراب. الغراب خلق لينعب، والشاعر خلق ليقول الشعر. وهذا القرار سيخيف التافهين فقط وسيقتيدون به. أما الشعراء الآخرون فلا شيء يوقفهم عن كتابة الشعر. ومن مساوئ هذا القرار أنه سيثير حول بلادنا شائعات

مغرضة ومزاعم حاقدة أنها ضد الشعر والأدب والفكر والحرية، وخصومنا سيتخذون من القرار فرصة لتشويه سمعة المملكة بين الممالك».

قال الملك: «إذن سننزع عن الشعراء صفة المواطنين، ونطردهم من البلاد».

قال الوزير: «لن نطردهم وحدهم. سنطرد كل حملة الأقلام. سنطرد كتّاب القصة والرواية والمسرحية والنقاد. ويجب أن نعنّى عناية خاصة بطرد النقاد، فهم إذا حرموا النتائج الأدبي الذي تعودوا نقده، تحولوا من النقد الأدبي إلى النقد الاجتماعي، ومن النقد الاجتماعي إلى النقد السياسي».

قال الملك: «سنطرد كل من حمل قلماً وكتب كلمة».

قال الوزير: «ولماذا نطردهم؟ إذا طردناهم استفدنا معنوياً ولم نستفد مادياً».

قال الملك: «لا أدري كيف سنستفيد منهم مادياً وهم أسوأ المتسولين وأوقحهم».

قال الوزير: «ثمة بلاد بلهاء غبية تحتاج إلى أمثالهم، وتعلن باستمرار عن استعدادها لاستيرادهم، ونحن سنقوم بتصديرهم إليها لقاء ثمن ليس بالبخس».

فقال الملك بدهشة وفرح: «هذا أعظم اقتراح عملي سمعته أذنائي منذ أن ولدت».

ونفذ اقتراح الوزير، فأضحت المملكة بغير أدباء، ولم

يتبدل أي شيء غير أن العشب في الربيع نبت باهتاً، وفقد
لونه الأخضر.

**حكايات
جحا الدمشقي**

■ ١ - لا داعي إلى الاستغراب

عاد جحا إلى بيته، فوجد زوجته عابسة الوجه، فسألها: «ما بك؟».

فأجابت بنزق: «لا تسألني بل اسأل حمارك الذي تركته مربوطاً بباب البيت».

قال جحا: «وماذا فعل؟ هل رفضك أم عضك؟».

قالت: «مررت بجانبه، فغازلني وقال لي إنني أجمل من القمر».

وكانت زوجة جحا قبيحة الوجه، سيئة الطباع، فقال لها جحا مستغرباً: «أمتأكدة أنه تكلم وقال لك إنك أجمل من القمر؟».

فقالت زوجة جحا: «وقال لي أيضاً إن الربيع يأتي مرة واحدة في السنة، أما أنا فربيع دائم».

فبادر جحا إلى اختيار أغلظ عصا من عصيه، وخرج من البيت، وانهاهال ضرباً بالعصا على الحمار، فتجمع الناس

حولهما، وقال أحد الرجال لجحا: «ارحم حمارك يا جحا».

فقال جحا وهو مستمر في ضرب الحمار: «الحمار حماري، ولا يحق لأحد التدخل في شؤني».

قال الرجل: «وماذا فعل حتى تضربه مثل هذا الضرب القاسي؟».

قال جحا: «لقد غازل زوجتي بألفاظ نابية».

فقال الرجل لجحا: «كن عاقلاً يا جحا. الحمار لا يتكلم».

قال جحا: «أعرف أن الحمار لا يتكلم، ولكنه خالف المألوف وتكلم فعلاً، وما قاله لزوجتي لا يقوله سوى حمار».

قال الرجل: «إذا كنت غاضباً على حمارك، فلا تضربه، فقد يموت وتخسر ما دفعته ثمناً له بينما إذا بعته تخلصت منه واسترجعت أموالك».

ففكر جحا في كلام الرجل، فرأى أنه صائب، واقتاد حماره إلى السوق، وراح يصيح: «من يشتري هذا الحصان الأصيل صاحب الحسب والنسب؟».

فتحلق حوله عدد من الناس، وقالوا له هازئين: «هذا حمار، وليس حصاناً».

فقال جحا لهم بثقة: «بل هو حصان. انظروا إليه. إنه يمشي على أربع، والحصان يمشي على أربع. له ذيل، وللحصان ذيل. له أذنان، وللحصان أذنان».

وما إن قال جحا ما قال حتى نهق الحمار، فصاح الناس بهجحا: «وهذا الصوت المنكر؟ أليس صوت حمار؟».

فقال لهم جحا: «إذا كانت المشكلة فقط هي مشكلة الصوت المنكر، فلا يحق لكم الاعتراض لأنكم كل يوم تستعمون إلى أصوات أبشع ولا تستنكرون بل تصفقون اعجاباً وتقديراً».

وقد نجح جحا في بيع حماره بوصفه حصاناً، ولم يكن المشتري بالمغبون إذ فاز الحمار في أكثر من سباق للجياد الأصيلة.

ولما علم جحا بما جرى لم يدهش أو يستغرب، فالدعاية قد تقدمت وتطورت أساليبها، وباتت تقنع الحصان بأنه حمار، وتقنع الحمار بأنه حصان.

■ ٢ - لماذا اعتقل

قال الملك يوماً لجحا: «الناس الذين أحكمهم مرضى بحب التذمر، فإذا جاء الشتاء تذمروا من برده، وإذا جاء الصيف تذمروا من حرّه».

فقال جحا للملك: «وهل سمعت واحداً منهم يذمّ الربيع؟».

فاعتقل جحا لأسباب لم تعرف، وبقي معتقلاً حتى ألّف كتاباً في ذمّ الناس المرضى بداء التذمر، فنال الحرية والمال والشهرة.

■ ٣ - الدواء الوحيد

سئل جحا عن الوسائل الكفيلة بتخليص البلاد من لصوصها الذين يزدادون عدداً وجرأة وشراسة، فأجاب: «قبل أيام أصاب ضرس من أضراسي وجع حرميني النوم طوال ليال، ولم أستطع الحصول على الراحة إلا بعد أن قصدت طبيباً قلع ذلك الضرس».

فسخر الناس مما قاله جحا، واعتبروه دعاية ساذجة لأطباء الأسنان.

■ ٤ - بطيخ

وضع جحا تفاحة حمراء على سطح طاولة خشبية، وأشار إليها بسبابة هزيلة طويلة، وسأل تلاميذه الصغار: «ماذا ترون؟».

فصاح التلاميذ وهم يحملقون بشراسة إلى التفاحة: «تفاحة».

ولكن أحد التلاميذ احمر وجهه حنقاً، وقال: «هذه ليست تفاحة بل هي بطيخة».

فسأله جحا بفضول: «ومن أخبرك أنها بطيخة وليست تفاحة؟».

فأجاب التلميذ: «أبي الوزير هو الذي أخبرني».

فبهت جحا، وتصايح التلاميذ مؤكدين أنها تفاحة وليست بطيخة، ولكن ابن الوزير ظل مصراً على أنها بطيخة، فقال جحا لتلاميذه: «لا داعي إلى الاختلاف».

كلكم مصييون. هذه فاكهة لها اسمان. تسمى في الشتاء تفاحاً، وتسمى في الصيف بطيخاً».

■ ٥ - وطن واحد

قال جحا لبعض أصدقائه: «من يحزر ما في جيوبي ينل ما يطلب؟».

فصاح الأصدقاء بصوت واحد مرح: «جيوبك فارغة، ولا شيء فيها».

فاستغرب جحا جوابهم، وقال لهم متسائلاً بدهشة: «أي جاسوس أخبركم بما في جيوبي؟».

فقال له أحدهم ضاحكاً: «أنسيت اننا أبناء وطن واحد؟».

■ ٦ - أمنية عسيرة المنال

في يوم من الأيام، قال جحا لأهله: «إذا مت، ادفنوني واقفاً».

فستل عن السبب الذي حضه على أن يطلب مثل هذا الطلب الغريب، فأجاب قائلاً: «ما عجزت عن نيله وأنا حي أريد نيله وأنا ميت».

ولكن ما أراده جحا لم يظفر به بعد الممات.

■ ٧ - الدعاء

كان جحا يتسكع في الطرقات بغير هدف، فاستوقفه

رجل اشتهر بقوته وأذاه وحمقه وسرعة غضبه، وسأله: «أتريد أن تريح ديناراً بلا تعب؟».

فقال جحا: «لست بالمجنون حتى لا أرحب بالدينار ترحيبي بابن غال كان مسافراً وطالت غيبته».

قال الرجل: «سأعطيك الدينار إذا دعوت لي بطول العمر».

فقال جحا: «أما أنا فسأعطيك دينارين إذا سمحت لي بأن أدعو عليك بقصر العمر».

فبهت الرجال الذين أتيح لهم سماع ما دار من حوار بين جحا والرجل المؤذي، وتأهبوا لأن يروا جحا يهان ويذل ويضرب ضرباً موجعاً، ولكن الرجل باغتهم بأنه لم يغضب بل ضحك بمرح، وقال لجحا: «وهل في هذه الدنيا ما يؤسف لخسارته؟».

ورحب بالدعاء الذي اقترحه جحا، فخسر جحا دينارين، وبخّ صوته، وعاش الرجل المؤذي مئة سنة.

■ ٨ - سيطير الجمل

رأى جحا في أثناء نومه جملًا يطير، فاستيقظ من نومه مدهوشاً، وهرع إلى مفسري الأحلام راوياً لهم حلمه طالباً تأويله، فضحكوا وقالوا إن ما رآه ليس سوى أضغاث أحلام، ولكنهم كانوا مخطئين إذ تحقق بعد أعوام حلم جحا، وطار الجمل في الفضاء خوفاً من أن يعامل كما يعامل الناس.

■ ٩ - الوصايا السبع

قال التلميذ لمعلمه جحا: «أسمع كثيراً عن الوصايا العشر، ولا أعرفها، فما هي؟».

قال جحا: «ولماذا تسأل عنها؟».

قال التلميذ: «ألم تحضني دائماً على طلب العلم ولو في الصين؟».

قال جحا: «كانت الوصايا في قديم الزمان عشراً ثم طرأ عليها بعض التعديل واختصرت في سبع وصايا فقط».

قال التلميذ: «ما هي الوصية الأولى؟».

قال جحا: «إذا أرغمت يوماً على أن تكون قاتلاً أو مقتولاً، فلا تردد أو تجبن، فمن الأفضل لك أن تلعن وتهان وأنت حي بدلاً من أن يعطف عليك ويرثي لك وأنت ميت».

قال التلميذ: «وما هي الوصية الثانية؟».

قال جحا: «حتى لا تصبح سارقاً يذم أو مسروقاً يسخر من غفلته، فلا تملك ما هو جدير بأن يسرق».

قال التلميذ: «وما هي الوصية الثالثة؟».

قال جحا: «الزم الصمت في الليل والنهار وفي الخريف والشتاء والصيف والربيع، ولا تكلم أحداً سوى نفسك همساً، فتهمه الجنون خير من تهم أخرى مهلكة».

قال التلميذ: «وما هي الوصية الرابعة؟».

قال جحا: «الكذب شر لا بد منه، والشرور أحياناً تدفع شروراً أعظم وأدهى».

قال التلميذ: «وما هي الوصية الخامسة؟».

قال جحا: «كن غيباً إذا كانت الغباوة تنجيك من ليل لا فجر له».

قال التلميذ: «وما هي الوصية السادسة؟».

قال جحا: «كلما التقيت شخصاً تافهاً دعيتاً، عظمه ومجده، فلا مفر من مجيء يوم يصبح فيه سيداً مهيمناً على أمورك».

قال التلميذ: «وما هي الوصية السابعة.. آخر الوصايا؟».

قال جحا: «لا تنتقدُ خدم السلاطين سواء أكنت حياً أم ميتاً، فهم لا يسكتون على أذى، ولا ينسون اساءة مهما صغرت، ويجهلون العفو والتسامح».

فأعجب التلميذ بالوصايا السبع، وآمن بنفعها، ووعد جحا بإطاعتها، ولكنه وجد نفسه فيما بعد مرغماً على تناسي وعده، فأقسم جحا أمام قبر تلميذه ألا يدخل مدرسة.

■ ١٠ - وزراء جحا

قالت القطط للملك إن جحا يتكلم كثيراً، فابتسم، وقال: «لم يخلق الله اللسان لابن آدم إلا للحكمة خفية، جليلة الشأن».

وقالت العصافير الدورية للملك إن جحا ينتقد أتباعه

وأعوانه، فضحك وقال: «الناس أجمعون أحرار يقولون ما يشاؤون».

أما عندما قالت الأسماك للملك إن جحا يقول عليه إنه ظالم جائر مستبد، فغضب، ونقم على جحا، واستدعاه، وقال له بنزق: «بلغني أنك تحكي في الأمور السياسية، فقل لي ما كنت تقوله والآن...».

فطلع جحا فيما حوله، فرأى السيوف أكثر من الرؤوس، فارتجف، وقال للملك: «أعوذ بالله! عندي شهود على أنني منذ ولادتي لم أنطق كلمة واحدة لها صلة بالسياسة لأنني من المؤمنين بأن الحي الجائع الجبان خير من الميت الشبعان الشجاع».

فصنع الملك الاقتناع بما سمع، وقال لجحا: «نمي إليّ كلام كثير عن علمك وحكمتك، فأمرك أن تتخيل ماذا ستفعل إذا كلفتك تأليف وزارة وكيف ستختار وزراءك وما هي الأعمال التي ستطلب إليهم تنفيذها».

فنظر جحا ثانية إلى السيوف المسلوطة، وقال توأ كمن فكر مطولاً في الجواب: «سأحرص يا مولاي على أن أختار وزراء أكفياء، وستكون لكل وزير مهمة واضحة محددة، فوزير الشموع سيوزع الشموع مجاناً على المواطنين شرط أن تشعل في المناسبات التاريخية كالإنصات للبيانات الملكية السامية أو لزواج يمتدح حسن زوجته. أما وزير الأجواء، فسينحصر عمله في منع المنخفضات الجوية من التسلل إلى البلاد لأنها إذا تكاثرت أصبحت مثلاً يحتذى، وحضت المواطنين على المطالبة بتخفيض الضرائب وأسعار

المواد الغذائية والثياب وإيجار البيوت، فإذا نالوا ما يطالبون به تضاعل ما يدخل خزائن مولاي من مال، أما إذا أهمل مطلبهم غضبوا وثاروا وأمسوا مؤهلين لدخول السجون».

فقال الملك: «كأنك نسيت ما لدي من سجون؟».

قال جحا: «السجون لا داعي إليها، وستلغى كلها لأنها تتطلب أموالاً تقضي مصلحة الوطن بألا تنفق إلا على شراء الجوارى الجميلات لمولاي، فحين يصبح مولانا سعيداً، فالناس أجمعون سيصبحون سعداء».

فقال الملك متسائلاً بفضول: «وهل ستصبح البلاد بلا سجون؟».

قال جحا: «سنجعل من كل بيت سجناً، وهذا اجراء لن يعاديه إلا من كان راغباً في تبديد ثروة البلاد على ما لا ينفع».

قال الملك: «وهل ستشتمل وزارتك على وزيرين فقط؟».

قال جحا: «لا لا. سيكون هناك وزراء آخرون. هناك وزير الفضيلة، وواجبه الأول حث الناس على أن يكونوا دائماً مؤدبين محتشمين».

قال الملك متعجباً: «وكيف يكون المواطن المؤدب المحتشم؟».

قال جحا: «المواطن المؤدب المحتشم هو الذي إذا حلّ به ظلم أو ذل لا يغضب على أولي أمره بل يندد بضوضاء السيارات».

قال الملك وقد تزايدت بهجته: «تابع كلامك يا جحا تابع».

قال جحا: «الوزير الرابع هو وزير الأحياء والأموات، وسيكون مسؤولاً عن طعام المواطنين وصحتهم وعملهم، ويجب أن يتصف بالقدرة على التأثير في المواطنين لاقتناعهم بأن الإكثار من الأكل يحطّ من قدر الإنسان، وأن الحيوان وحده هو الذي يخصص حياته كلها للحصول على طعام».

قال الملك: «وكيف سيرعى صحة المواطن؟ هل سيبيني مزيداً من المستشفيات؟».

قال جحا: «سيطبع كتباً تتضمن فتاوى تبين أن الله فقط هو الشافي».

قال الملك: «وتعليم المواطنين؟ هل ستفتتح مدارس جديدة؟».

قال جحا: «التعليم ترف لا تحتاج البلاد إليه ولا سيما وأن الدولة تؤمن بالمساواة وبمبدأ تكافؤ الفرص، ولا تميّز بين جاهل وعالم».

قال الملك: «والأعداء الطامعون في الاستيلاء على البلاد؟ ماذا أعددتنا لهم؟».

قال جحا: «اطمئن يا مولاي، فهناك وزير سيتولى حماية البلاد، وستبدأ حمايته بالقضاء على أعداء مولاي في داخل البلاد. وهناك وزير آخر سيسهر على أمن المواطنين، فيسجن اللص الذي يسرق ملقعة، أما اللص

الذي يسرق الملايين، فسيظل طليقاً تقديراً لشجاعته وجراته
وذكائه، وحتى لا تهاجر الأدمغة إلى خارج البلاد».

قال الملك: «لا تنس يا جحا الفرح. أنا أرغب في أن
يسود الفرح».

قال جحا: «سيكون هناك وزير مختص بالمسرات،
ومهمته تذكير الناس دائماً بالقبور التي تنتظرهم، فيشعرون
حتماً بالفرح لأنهم ما زالوا أحياء».

قال الملك: «والعدل يا جحا؟».

قال جحا: «سيسود العدل إذا وفق الوزير المسؤول عنه
في إقناع المواطنين بالإيمان بأن القناعة كنز لا يفنى، وأن
الحسود لا يسود والحسد أصل الشرور».

قال الملك بحماسة: «إياك ونسيان الضرائب».

قال جحا: «كيف أنساها وبؤس البائسين لا سبب له
سوى احساسهم بأنهم مقصرون لا يدفعون إلا القليل من
الضرائب؟».

فصاح الملك قائلاً لجحا بصوت مفعم بالإعجاب:
«كفى كلاماً يا جحا، فقد استوثقت بأنك الرجل المنتظر
والجدير فعلاً بتأليف الوزارة التي كنت أتوق إليها.. وزارة
ترعى الناس وتنصف المظلوم وتعاقب الظالم وتنشر العدل».

فدعر جحا، ولكن ذعره تلاشى بسرعة لما تكلم الملك
وأمر خادماً من خدمه بتأليف الوزارة واختيار وزراء أكفيا
يعملون باخلاص وأمانة ونزاهة وفق المنهج الجحوي.

■ ١١ - المرض الغريب

اشتهر جحا بحبه للأسفار والطواف في شتى البلاد، وكان يحلو له أن يردد دائماً: «الماء إذا ساح طاب، وإذا وقف تغير وفسد».

وقد طلب يوماً من جحا أن يصف أغرب ما رآه إبان أسفاره، فقال: «لقد صادفت في أثناء أسفاري بلاداً يسيطر عليها مرض غريب يجعل أهلها يرتجفون رعباً من العنزة، وينظرون إليها على أنها النمر المفترس، وحين يبلغ سمعهم نباح جرو يختبئون في بيوتهم متوهمين أن ما سمعوه هو زعيق أفيال غاضبة ستهاجمهم، وحين يتناهى إلى أنوفهم عطر ورد، فإنهم يبدون الامتعاض والاشمئزاز، وبعضهم يتقيأ قرفاً. أما إذا حمل الهواء إليهم رائحة جيفة، فإنهم يصيحون بنشوة: آه ما أروع تلك الرائحة الزكية!».

فاتهم جحا بالكذب، فلم يحاول الرد، واكتفى بالابتسام الماكر الساخر إذ لم يصف سوى ما يراه فيما حوله كل يوم.

■ ١٢ - الضحك

رأى جحا أولاداً يضحكون بمرح صادق، فقال لهم: «لا بد من أن آباءكم مغنون وأمهاكم راقصات».

فتصايح الأولاد قائلين إن جحا قد أخطأ الخطأ الشنيع، فهزّ جحا رأسه مدعياً أنه قد عرف المهنة الحقيقية لآبائهم وأمهااتهم، ولكنه يرفض البوح بها حماية لحاضره ومستقبله.

■ ١٣ - المهرجون

اعتاد جحا الصعود إلى سطح بناية عالية لينظر إلى أسفل حيث يبدو الناس له صغاراً مضحكين، فيسيطر عليه فرح خفي لا يخلو من هزء وشماتة، ولكنه عندما صار يتردد إلى مجلس الأدباء والمفكرين، لم يعد محتاجاً إلى الصعود إلى سطوح البنايات العالية لرؤية الناس صغاراً مضحكين.

■ ١٤ - الشمس

كان جحا لا يكفّ عن التفاخر بذكائه وحكمته، فقصده يوماً رجل فقير شاكياً له أن بيته لا يرى الشمس، فقال له جحا: «الشمس هي المسؤولة الوحيدة، فأبعث إليها برسالة طالبها فيها بالجميء إلى بيتك».

فقال الرجل الفقير: «واذا كتبت الرسالة، فمن سيوصلها إلى الشمس؟».

قال جحا: «سيوصلها الناس الذين يسكنون بيوتاً ترى الشمس».

فقال الرجل الفقير: «وهل أنت واثق بأنهم سيوصلون رسالتي إلى الشمس؟».

قال جحا: «وما الذي سيمنعهم من إيصال رسالتك؟».

فقال الرجل الفقير: «قد يخشون أن تغيب الشمس عن بيوتهم إذا أشرقت على بيتي».

فسكت جحا، وكفّ منذ ذلك اليوم عن التفاخر
بذكائه وحكمته.

■ ١٥ - الملك واقفاً

لما هيمن الهوان والجوع والظلم على البلاد، ونفذ صبر
الناس، نصحهم جحا بالشكوى إلى ملكهم، فقصدوه،
وتعالت أمامه أصواتهم كثيفة غاضبة تحكي عن سوء
أحوالهم:

«كلنا جياع».

«بيوتنا لا ترى الشمس ولا تعرف الهواء».

«أمراضنا كثيرة مستعصية ولا أطباء».

«أطفالنا بلا مدارس».

«جرائدنا تتجاهل بؤسنا».

«السجون كثيرة ويتزايد عددها».

«السارق يكرم والمسروق يعاقب».

فتكلم الملك وقال للناس بصوت متهدج: «يشهد الله
أنني لست بالغافل المتهاون، ونمي إليّ قبل حين أنباء الويلات
التي تحل بكم كل يوم. وهذا أمر أحزنني وأشقاني وحرمني
النوم، فكل راع مسؤول عن رعيته، وقد قررت ألا أترك
الكرسي الذي أجلس عليه إلا حين أجد الخطأ الكفيلة
بتحسين أحوالكم، ولكنني حتى الآن لم يخطر ببالي
شيء».

فقال أحد الشبان للملك بنزق وحنق: «ولماذا لم يخطر ببالك أن تترك كرسيك؟».

فغضب الملك، وغضبت سيوف حراسه وأعدائه وجنوده، فبادر جحا إلى القول للملك وهو يشير بسبابته إلى الشاب النزق: «اغفر له يا مولانا، فهو مجرد شاب جاهل أمي لا يتقن التعبير عما يريد قوله، ولم يتعود مخاطبة الملوك، فهو أراد أن يقول إن الناس البائسين سينسون بؤسهم إذا رأوا ملكهم المحبوب ينهض عن كرسيه ويقف».

وقد تعاطف الملك مع رعيته ملبياً رغباتها، وترك كرسيه، ووقف لحظات متيحاً لعيون الناس أن تحظي برؤيته وهو واقف، وأن تتمتع برؤية جسمه المملآن لحماً وثياباً المنسوجة من خيوط ذهبية لونها شديد الشبه بلون وجوه الناس الجائعين.

■ ١٦ - اليوم السابع

كان جحا دائم التذمر من المدينة التي ولد فيها، ويتهمها بأنها لا تهب إلا الملل.

وفي أحد الأيام، قابل جحا مصادفة سائحاً أجنبياً، فسأله بفضول: «ما رأيك في هذه المدينة؟».

فقال السائح: «لم أمكث فيها إلا ستة أيام فقط. في اليوم الأول السبت رأيت حريقاً عظيماً هلك فيه آلاف، وفي يوم الأحد رأيت في الطريق رجلاً ظل يضرب زوجته على رأسها بديوان شعر ضخّم حتى قتلها، وفي يوم الاثنين

عضّ كلب الملك رجلين، فاعتقل الرجلان، وما زالا معتقلين يحقق معهما، وفي يوم الثلاثاء أبصرت بيتاً يتهدم ولم ينبج أحد من سكانه، وفي يوم الأربعاء صعد سائق سيارته المسرعة على رصيف مكتظ بالناس فقتل من قتل، وفي يوم الخميس تمكنت من رؤية رجال يغتصبون امرأة في الشارع وهي تولول وتستغيث فقبول فعلهم بنظرات الاعجاب والحسد. وفي هذا اليوم.. يوم الجمعة..».

فصاح جحا به مقاطعاً: «إياك وأن تتابع كلامك».

وانطلق يركض هارباً، فقبل لجحا إن سلوكه يسيء إلى السمعة السياحية للبلاد، فقال جحا: «خشيت أن يقول السائح إنه في يوم الجمعة شاهد جحا يقع أرضاً ميتاً بالسكنة القلبية».

ولكن جحا استفاد من لقائه بذلك السائح، وتنبه إلى أن مدينته تسلي أكثر مما ينبغي.

■ ١٧ - الليل والنهار

قابل جحا رجلاً يخفي بيضة في يده.

قال الرجل لجحا بلهجة متحدية: «إذا حزرت ما في يدي، أصنع لك منه عجة».

قال جحا: «سأحزر حتماً وأكل العجة، ولكنني أشرط أن تصف قليلاً ما تخفيه».

قال الرجل: «ما أخفيه في يدي هو شيء خارجه أبيض وداخله أبيض وأصفر».

فقاطعه جحا صارخاً بفرح: «لا تكمل كلامك. حزرت وأكلت عجة، فيدك تخفي رجلاً يساري الأقوال، يميني الأفعال».

ولقد أكل جحا العجة بسرور يخالطه الحزن.

■ ١٨ - اسم للجميع

وقف جحا يوماً خطيباً بين الناس، وقال لهم: «إياكم وأن تسموا أبناءكم إلاّ باسم أيوب».

فاتهم الناس جحا بالحقق والبلاهة، ولكنهم عندما ازداد فقرهم وذللهم، أدركوا الحكمة التي كانت متوارية في نصيحة جحا.

■ ١٩ - المعلم

قيل لجحا: «أتعلمت الحساب؟».

فقال جحا: «نعم، وصرت سيد الأرقام والمعلم الأول». فقيل له: «اقسم ألف دينار على مئة شخص».

قال جحا: «هذه مسألة سهلة. ألف دينار لخزينة ملك البلاد، وليس للبقية شيء».

فتعالت أصواتهم تنهم جحا بالخطأ والجهل بقواعد الحساب، فقال جحا متسائلاً بصرامة: «من ذا الذي يتجرأ على القول إني مخطيء في الحساب؟».

فساد الخوف والسكوت المعترف بأن جحا هو سيد الأرقام والمعلم الأول.

■ ٢٠ - آخر مشاجرة

جاء رجل إلى جحا، وقال له مشتكياً: «عندي زوجتان لا تكفان عن التشاجر، واليوم أوشكت الواحدة أن تخنق الأخرى، فماذا أفعل؟».

قال جحا: «ولماذا تشاجرتا اليوم؟».

قال الرجل: «واحدة كانت تقول إن ما يفعله ملكنا يؤهله للشنق، والثانية تقول إنه يستحق السجن فقط، فهل لديك نصيحة تساعدني على وضع نهاية لمشاجراتهما؟».

قال جحا: «أنت لست محتاجاً إلى أية نصيحة، فحين ترجع إلى البيت لن تجدهما، ومشاجرتهما اليوم آخر مشاجرة».

وتزوج الرجل امرأة ثالثة.

■ ٢١ - الحمقى

شاهد جحا رجلاً يمشي في الطريق ممسكاً بغراب، فاعترض طريقه متسائلاً: «أتبيعه؟».

فدهش الرجل، وقال: «ولكنه غراب».

قال جحا: «أنا لست بالأعمى أم أنك واحد من الذين يقولون إن العميان سادوا البلاد؟».

قال الرجل: «ما أردت قوله هو أنه طير بشع الصوت والمنظر، ولا يستحق أن يباع أو يشتري».

قال جحا: «المال الذي سأدفعه لك ثمناً للغراب هو مالي».

قال الرجل: «أنت حرّ».

قال جحا متسائلاً بحنق واستنكار: «أهناك من قال إني لست حرّاً أم أنك تردد الشائعات الزاعمة أن الناس في بلادنا ليسوا أحراراً؟».

قال الرجل بذعر: «كل ما قصده هو أن هذا الطير لا يؤكل، ولحمه مرّ المذاق».

قال جحا: «يخيّل إليّ كأنك تخجل من أن تقول بصراحة إن الحياة في بلادنا مرّة إلى حد أنها تجعل الغراب مستساغ الطعم مقبولاً؟».

فوضع الرجل الغراب بين يدي جحا، وانطلق يركض هارباً بأقصى سرعة، فقصده جحا السوق، واشترى قفصاً فخماً، ووضع فيه الغراب، فتحلق الناس حوله ساخرين، فصاح بهم موبخاً: «يا لكم من حمقى! أتستنكرون وجود غراب مسكين في قفص ولا تستنكرون أن تحكمكم ضباع تأكلكم وتأكل أبناءكم؟».

■ ٢٢ - الركض

رأى جحا يوماً صديقاً له يثق برجاجة عقله ووعيه وعلمه الغزير، يحاول أن يركض بأقصى ما يملك من قوة، فسأله: «أأنت على موعد مهم أم أنك صرت من عشاق رياضة الركض تؤمن بأن الجسم خير من العقل؟».

فأجاب الصديق: «أنا أتمرّن كل يوم على الركض حتى أستطيع الهرب من القرن العشرين إلى القرن العشرين قبل الميلاد».

فتعجب جحا من أحوال هذا الصديق العاقل الواعي الذي انتهى هذه النهاية المحزنة، ولكن تعجبه زال عندما عرف أن صديقه قد اختفى اختفاء غامضاً، فأيقن أنه وصل إلى مبتغاه.

وابتداً جحا يتدرب يومياً على الركض السريع.

■ ٢٣ - يوم الثار

تسلل الضجر ذا ليلة إلى القصر الملكي، وحضّ الملك عليّ أن يستدعي جحا ويقول له: «أنا موشك على الموت مللاً، فإذا رويت لي ما يسليني أعطيتك ما يرضيك من المال، أما إذا زدت من مللي، فلا أحد سيحاسبك سوى سيّافي وسيوفه».

فقال جحا: «كلام مولاي هو وحده الجدير بالملوك. إما المجد، وإما اللحد».

قال الملك: «سأتيح لك أن تجني ما تزرع ورداً أو شوكاً، فهيا أرني براعتك في الحكيم».

قال جحا: «مرت بي أحداث كثيرة طريفة، ولكن ذاكرتي باتت ضعيفة فالعمر له أحكامه، ولكني لا أستطيع نسيان مدينة زرتها مصادفة، ورأيت فيها ما يثير العجب، فحين يجوع أهلها يقفون ويفتحون أفواههم منتظرين أن تأتي السحب وتمطر فوقهم طعاماً شهياً».

فصاح الملك بنزق: «ما هذا الكلام الأبله؟ مللت سماع الأحاديث عن الجوع والكسل».

قال جحا: «عندما كنت صغير السن وضعني أبي في مدرسة معلمها لا يقرأ ولا يكتب».

فقال الملك لجحا: «إذن كيف تعلمت القراءة والكتابة؟».

قال جحا: «صحيح أن معلمها كان جاهلاً وغيباً، ولكن عصاه كانت غليظة».

فضحك الملك بابتهاج، وقال: «الآن طاب الحديث، فتابع الكلام يا جحا عن العصا وفوائدها».

قال جحا: «لقد خلقت العصا قبل أن يخلق الإنسان، وهي السبب في طرد آدم وحواء من الجنة، فقد أمر آدم ألا يمس العصا، ولكنه اضطر في لحظة غضب إلى الإمساك بالعصا واستخدمها لاقناع حواء بالسكوت. ولم تنس حواء ما جرى لها، وما زالت حتى اليوم تعمل بصمت من أجل أن يأتي يوم الثأر، وهو آت بلا ريب».

فقال الملك: «وقانا الله عصي النساء. هل تعتقد يا جحا انه سيأتي يوم تضرب فيه النساء الرجال بالعصي، وتصبح فيه كل امرأة مالكة لحية وشاريين كثيرين ومعقوفين؟».

قال جحا: «من المؤكد أن النساء لن يصبحن كالرجال بل سترداد أنوثتهن وجمالهن، فينتشي الرجال بعصي النساء المنهالة عليهم كأنها أعذب موسيقى وأرق غناء».

فقال الملك: «الحمد لله لأننا لن نعيش حتي نرى ذلك اليوم الأسود الذي سيذل في الرجال أبشع ذل».

فابتسم جحا بمكر، وقال: «ولكن العصي يا مولاي ليست كلها نوعاً واحداً، فثمة عصي غير مرئية».

فضحك الملك بفرح، وصفق لتدخل توأ مجموعة من الراقصات والمغنيات الجميلات، فشقق جحا مدهوشاً إذ أتيح له أول مرة أن يرى الكثير من العصي غير المرئية، فسأله الملك عن سبب دهشته، فلم يفه بكلمة، وأغمض عينيه ليرى رجال الملك يضربون الناس بالعصي، والنساء يضربن الضارين والمضرويين.

ولما فتح جحا عينيه وجد نفسه محتاراً: أيحملك إلى الراقصات والمغنيات أم إلى سياف الملك؟

■ ٢٤ - الدجاج

سُرقت دجاجة من بيت جحا، فحزن جحا حزناً عظيماً، فقال له جيرانه: «أمن أجل دجاجة تحزن كأنك فقدت ابناً؟».

فقال جحا لهم: «لو كانت الدجاجة المسروقة دجاجتكم لطالبتم شعوب الأرض بإعلان الثورة من أجل استعادتها».

وتبين في المستقبل أن جحا لم يكن مبالغاً، فثمة ثورات كثيرة قد أعلنت، وهدفها لم يكن سوى الدجاج.

■ ٢٥ - الميت

في ليلة من الليالي، سار جحا في الشوارع بخطى

وثيدة، فبوغت بعدد من رجال الشرطة يطوقونه متسائلين بأصوات صارمة مهددة: «ماذا تفعل؟».

فقال جحا: «أمشي، والمشي رياضة مفيدة للجسم». فقالوا له بتأنيب: «لا تسخر منا ولا تكذب، فعظمك أكثر من لحمك، ويكشف أنك لست بالرياضي». قال جحا: «كنت أحاول استنشاق القليل من الهواء النقي».

فقالوا له: «أنت تكذب كذباً مفضوحاً، فالهواء كله روائح قمامة».

قال جحا: «كنت أتمتع برؤية القمر». فقالوا له باستغراب: «ألا تزال مصراً على الكذب الغبي؟».

قال جحا: «أظن أنه لا فائدة في التهرب، وسأقول لكم الحقيقة. أنا ميت، وخرجت من قبري لأطلع على تلك المنجزات الحكومية التي تحكي عنها الجرائد كل يوم». فقالوا له متسائلين بدهشة: «وهل يقرأ الأموات الجرائد؟».

قال جحا: «ويقرأونها بحماسة ولهفة، ولو لم يكونوا من قرائها لما صبروا على حياة القبور ولهربوا منها». فقالوا له: «وما الذي أعجبك من المنجزات؟».

قال جحا: «اللصوص والمرتشون والقتلة لم يعد لهم جود».

فتبادل رجال الشرطة النظرات الغامضة، وقالوا لجحا:
«الآن اقتنعنا بأنك ميت فعلاً».

وسارعوا إلى الابتعاد عنه بخطى سريعة.

■ ٢٦ - التدريب

رأى جحا رجلاً يتدرب على المشي على حبل مشدود
في الفضاء إلى شجرتين، فسأله: «أتريد العمل في سيرك؟».
فأجاب الرجل: «لا. أريد أن أصبح مؤهلاً لأن أصير
وزيراً لا يعزل».

فضحك جحا، وقال للرجل: «هذا الحبل الذي تحاول
السير عليه لن يوصلك إلى الوزارة، وسيكون حبل مشنقة
تتدلى منه».

فلم يأبه الرجل لكلام جحا، وتابع تدريبه بحماسة،
وندم جحا فيما بعد بالغ الندم لأن الرجل صار وزيراً، وظل
وزيراً حتى وفاته.

■ ٢٧ - الساكتون

كان جحا من محبي الكلام، ولكنه تبدل فجأة، وصار
حريصاً على أن يظل مقفل الفم باستمرار، فقال له الناس
بعتاب ولوم: «ماذا جرى لك؟ لقد أطلت سجن لسانك».

فقال جحا: «من الأفضل لي أن أسجن لساني في فمي
بدلاً من أن يسجنني لساني وراء القضبان».

فقال الناس لجحا إن السكوت حرام في الأيام التي

يسود فيها الظلم، فضحك جحا بهزء، وقال: «أعرف أن السكوت حرام، ولكن الله غفور رحيم. أما ملك هذه البلاد، فلا يغفر ولا يرحم إذا سمع كلاماً يغضبه».

فانهالت على جحا كلمات التوبيخ والسخرية من جنبه، فاستاء جحاً، وصاح بمن هم حوله: «ولماذا لا تتكلمون أنتم؟ ألا تملكون الألسنة والعقول مثلما أملك؟».

فقال واحد من الرجال: «أنا متزوج من امرأة أحبها، ولا مثيل لجمالها، ولا أزال في شهر العسل».

وقال رجل ثانٍ: «وأنا أملك متجرّاً، وإذا سجنّت بارت تجارتي وسرقني عمالي».

وقال رجل ثالث: «أنا جسمي ضعيف، وصحتي ليست على ما يرام، وأعجز عن تحمل مشاق السجن والتعذيب».

وقال رجل رابع: «هل من المعقول أن أتكلم وأسجن قبل أن أتزوج وأنجب الأبناء؟».

وقال رجل خامس: «أنا لي زوجة وأولاد، وواجبي الأول هو تأمين القوت اليومي لهم».

وحاول رجل سادس أن يتكلم، فقاطعه جحا صارخاً بغیظ: «ومن قال لكم إنني وحدي في هذه البلاد الرجل الذي لا يحق له الحفاظ على حياته؟».

ثم لاذ جحا بالصمت وقد ازداد حباً له.

■ ٢٨ - المستقبل

تخلق يوماً عدد من الشبان حول جحا، وقالوا له متوسلين: «حدثنا عن المستقبل حتى نعرف ما ينتظرنا».

ففكر جحا طويلاً ثم قال: «سيأتي على الناس زمان سادته الصبيان. إذا نعق اليوم صُفّق له بوصفه بلبلًا، وإذا نقت الضفدع ساد الصمت احتراماً لما قالت له من حكم».

فتعجب الشبان، وقالوا لجحا: «ما هذا الكلام؟ نحن طلبنا إليك أن تحدثنا عن المستقبل الذي نجهله، فإذا بك تحدثنا عن الحاضر الذي نعرفه».

فقال جحا: «لا لوم عليّ، فزارع الكلاب لا يحصد إلاّ النباح».

فاعتبر كلام جحا نبوءة بزراعة النباح التي ستنتشط في المستقبل وتسود وتبجل.

■ ٢٩ - الطبيب الشافي

في يوم من الأيام، سأل الملك عن جحا، فقبل له إنه مريض، فطلب احضاره فوراً، ونفذ الأمر الملكي على عجل، ودخل جحا على الملك وهو يمشي بخطى سريعة، فحملك الملك إليه بفضول، وسأله: «أصحيح ما قيل لي عن مرضك؟».

فهز جحا رأسه، وقال: «ما قيل لمولاي هو الصدق».

قال الملك: «ولكنك تبدو في أحسن صحة، فأنت

متورد الوجه، ووزنك قد ازداد. أنت بالتأكيد ليس مريضاً.

فقال جحا: «أنا مريض، ولكنني غير مريض».

قال الملك: «متى ستعلم أن تتكلم كالعقلاء؟ كيف تقول إنك مريض وغير مريض؟».

فقال جحا: «أنا مريض، ولكنني لست مريضاً لأن مولاي قال إنني لست مريضاً».

قال الملك: «وما مرضك؟».

فقال جحا: «مرضي غريب، ولا مثيل له بين الأمراض. حين أنظر إلى أي شيء أراه اثنين».

قال الملك: «إذا لم تكن مازحاً أو كاذباً، فإن مرضك غريب حقاً».

قال جحا: «حين أنظر إلى زوجتي أراها امرأتين».

قال الملك: «هذه ليست مشكلة. مباح لك الزواج من أربع نساء».

قال جحا: «وحين أنظر إلى أحد خصومي أراه خصمين».

قال الملك: «وهذه أيضاً تنفعك ولا تضر، فبدلاً من أن تستعد لمواجهة خصم واحد، تستعد لمواجهة خصمين، واستعدادك لمواجهة خصمين سيكفل الانتصار على خصم واحد».

قال جحا: «وحين أنظر إلى صديق أراه صديقين».

قال الملك: «يجب أن تفرح، وحسن الحظ هو من تمكن في هذه الأيام من اكتساب صديق واحد».

قال جحا: «وحين أنظر إلى حماري أراه حمارين».

قال الملك: «وهذا مرض يوفّر مالك ويجعلك غنياً».

وتنبه الملك إلى أن جحا يحملق إليه، فقال له مهدداً محذراً: «إياك وأن تراني اثنين. مسموح لك أن ترى كل شيء اثنين ما عدا ملكك، فهو واحد».

فقال جحا للملك وهو ينظر إلى السيوف المحيطة والمتأهبة للانقضاض على أعدائه: «أبشرك يا مولاي بأني شفيت من مرضي».

قال الملك: «وكيف؟».

فأشار جحا إلى السيوف، وقال: «إنها خير طبيب، ولديها دواء يشفي كل علة».

ولم يكن جحا مخطئاً.

■ ٣٠ - المسموح والمحظور

قال الملك لجحا: «بلغني أنك تقول عليّ إنني ظالم».

قال جحا: «لو قال الناس أجمعون مثل هذا القول، فأنا لن أقوله».

قال الملك: «ولماذا تستثني نفسك بثقة؟».

قال جحا: «كيف أجروء على أن أقول هذا القول وأنا لو حكمت البلاد بدلاً منك لسلخت جلود الناس أحياء».

قال الملك: «وماذا ستفعل بتلك الجلود؟».

قال جحا: «بفضلها ستصبح البلاد مصدرة للأحذية».

قال الملك بإعجاب: «هذه فكرة جديدة تزيد من غنى البلاد، وأنت تستحق المكافأة».

وتكلم الملك أمراً بضرب جحا ضرباً يعذبه ولا يميته، فصاح جحا: «أهذه المكافأة الموعودة، ماذا فعلت حتى أضرب؟».

فقال الملك لجحا: «يحق لك أن تسلم جلود الناس كما تشاء، ولكنه لا يحق لك أن تفكر في أن تحكم البلاد بدلاً مني».

فصاح جحا بأعوان الملك متوسلاً إليهم الإسراع في ضربه بقسوة عقاباً له على بلاهته وخطئه الذي لا يغفر.

■ ٣١ - تلك الأشهر السعيدة

مرّ جحا يوماً بثلاثة متسولين عميان قاعدين على أحد الأرصفة، فأشفق عليهم، وطلب إليهم إخباره بأحوالهم، فوصفوا له بإسهاب حياتهم البائسة، فحزن جحا حزناً شديداً، وقال لهم: «ثقوا بأن حياتكم ستبدل، وسأعطيكم ما تشاءون من المال، وسأسكنكم خير البيوت، وستأكلون من أطيب الطعام حتى التخمة».

فظل العميان الثلاثة ساكنين، فقال لهم جحا متسائلاً بدهشة: «لماذا لم تشكروا لي ما سأفعله؟».

قال واحد من المتسولين العميان: «ولكنك وعدتنا فقط،

والوعد مجرد كلام، والكلام لا يغير حياتنا، وسنبقى على لرصيف».

قال جحا: «أنا فقير مثلكم، ولكنني أعطيتكم كل ما ملك، فهل أنا مذنب ولا أستحق الشكر إذا كنت لا أملك سوى النيات الحسنة؟».

فقال أحمد العميان لجحا بمرح: «مادمت مثلنا، فماذا نتظر؟ هيا اقعد معنا، ومن يرزقنا يرزقك».

فلم يتردد جحا، وبادر إلى الانضمام إليهم، واشتغل شهراً في مهنة الشحاذة ثم اضطر إلى هجرها بسبب تزايد مدد العاملين فيها، ولكنه ما إن يتذكرها حتى يتجهم وجهه ويتنهد بأسف وحنين.

■ ٣٢ - السبب

ذهب جحا وأصدقاؤه في نزهة إلى البساتين الخضر المحيطة بالمدينة، وهناك قعدوا على بساط تحت أغصان لأشجار يتبادلون الأحاديث المسلية، وفجأة قال أحدهم، كان رجلاً هرمًا غنياً: «اسمعوا. أنتم أصدقائي الأعزاء، أود أن أسألكم سؤالاً يحيرني وأرغب في سماع جواب سريع، إذا تزوجت، فهل أنجب أولاداً؟».

فتعالت الأصوات تجادل أمداً طويلاً ثم اتفقت على أنه إذا كان قوي الجسم خالياً من الأمراض فقد ينبج لأولاد.

وتنبه الرجل الغني الهرم إلى أن جحا ظل صامتاً ولم

يشارك في الحديث، فقال له: «أست صديقك يا جحا؟»
لماذا لم تقل رأيك؟».

قال جحا: «ستنجب الأولاد بالتأكد إذا تزوجت من
امرأة حامل في الشهر التاسع».

فسخر الرجل الغني الهرم من كلام جحا، وتزوج فيما
بعد من امرأة جميلة، وأنجب العديد من الأولاد، فدهش
جحا، ولكن دهشته اضمحلت لحظة علم أن كثيرين من
جيران الرجل الغني كانوا شباناً أصحاء وأقوياء.

■ ٣٣ - خير الفرسان

نظم سباق لحير الفرسان والخياد، فجاء جحا إلى ميدان
السباق راكباً حماره، وأعلن عن رغبته في الاشتراك في
السباق، فقبل له: «كيف تشارك في هذا السباق وأنت
لست بالفارس وحمارك كسلان بطيء السير؟».

فضحك جحا، وقال: «لا أحد غيري سيفوز في هذا
السباق، ومن يقول غير هذا القول لا يبصر الحقيقة الأكثر
وضوحاً من شمس النهار».

فطولب جحا بالمزيد من التوضيح، ولكنه امتنع عن
الكلام، واشترك في السباق، وكان هو الفائز الأول.
وعندئذ تنبه الناس إلى أمر منسي، وهو أن ابن عم جحا
كان ذا منصب خطير قادر على أن يجعل قلوب الشجعان
ترتجف هلعاً ليل نهار.

■ ٣٤ - الوطن الفضاء

سمع جحا كثيراً من الاطراء للمشبي وفوائده التي لا يستطيع الاستغناء عنها كل راغب في الجسم السليم، فتأثر بما سمع، وقرر الانضمام إلى المشائين بغية البرهنة على أن القدمين لم تخلقا فقط من أجل الركض اللاهث كل يوم لتأمين القوات للمعدة.

وفي أحد الأيام، ابتدأ جحا تنفيذ قراره، واختار شارعاً هادئاً، ومشى على رصيفه الأيمن حتى لا يتعرض لمتابع غير متوقعة، فاعترض طريقه رجل مسلح ببندقية، صارم الوجه والنظرات، وأمره بعدم المشي على الرصيف، فسأله جحا عن السبب، فقال له المسلح بغضب: «أخرس. أتجروء على أن تسأل أيضاً؟ كأنك لا تعلم أن هذا الرصيف يوصل إلى بيت وزير الداخلية؟».

فاعتذر جحا بخوف، وبادر إلى المشي في وسط الشارع، ولكنه بوغت بعد قليل بشرطي يمسكه من كتفه، ويهزه متسائلاً: «أأنت سيارة أم جمل؟».

فأكد جحا لشرطي السير أنه ينتمي إلى الجنس البشري ولا صلة له بجنس السيارات والجمال، فقال له الشرطي بتوبيخ: «مادمت لست سيارة ولا جملاً، فلماذا تسير في وسط الشارع؟ هل تريد الانتحار دعساً تحت عجلات سيارة أحد المسؤولين وتؤخر وصوله إلى مكتبه حيث يخدم البلد؟».

فقال جحا مستنكراً: «أعوذ بالله! أنا لم أفكر يوماً في الانتحار مع أن حياتي لا تطاق وتدفع إلى الانتحار».

فقال الشرطي: «إذن امش على الأرصفة لتعود إلى بيتك سالماً معافى».

فهرع جحا إلى الرصيف الأيسر، وما إن مشى بضع خطوات حتى أوقفه رجل آخر مسلح ببندقية، وقال له إن السير على هذا الرصيف ممنوع منعاً باتاً.

وكان الرجل المسلح ضاحك الوجه، فتجراً جحا على أن يسأله عن السبب، فأشار الرجل المسلح إلى بناية قريبة قائلة: «هناك تسكن سكرتيرة وزير الخارجية».

فبهت جحا، وقال للرجل المسلح بصوت مستعطف: «أرجوك انصحنى، ولك الأجر والثواب. إذا أردت المشي، فأين أمشي؟».

فقال الرجل المسلح: «لا أستطيع الإجابة لأن الأوامر الصادرة إليّ تقضي بآلا أتدخل في الشؤون الخاصة للمواطنين حتى لا أنتقص من حريتهم، والمشكلة مشكلتك، وعليك وحدك إيجاد الحل لها».

ولقد نجح جحا في إيجاد الحل لمشكلته حينما أتقن المشي في الفضاء، وظفر عن جدارة بلقب «أول رائد فضاء»، ولكن وسائل الاعلام تجاهلت ذلك سبق الحضاري العالمي مخبئة مديحها لمن سيأتي بعده من رواد فضاء آخرين سيكونون أقل منه مقدرة وذكاء وابتكاراً وشجاعة.

■ ٣٥ - الفتوى

تزوجت إحدى النساء، وأنجبت طفلاً بعد ثلاثة أشهر،

فقصده جيران المرأة جحا، وحكوا له ما جرى، ورجوه إبداء رأيه، ففكر جحا طويلاً ثم قال: «إذا كانت المرأة فقيرة، فابنها ابن حرام. أما إذا كانت غنية، فابنها معجزة من المعجزات التي تبين قدرة الله جلّ جلاله».

■ ٣٦ - المهمة الشاقة

التقى جحا رجلاً عاد إلى وطنه بعد أن جال طوال سنوات في الكثير من بلدان العالم، وقد قال لجحا إنه رأى بلاداً يرتدي فيها الرجال والنساء ثياباً متشابهة، فقال جحا: «مساكين سكان تلك البلاد. كيف يستطيعون التفريق بين الرجال والنساء يوم يريدون اختيار ملوكهم الجدد؟».

■ ٣٨ - الوزارة

ما إن أفاق الملك من نومه حتى أمر بإحضار جحا، فمثل جحا بعد دقائق بين يدي الملك الذي كان متجهم الوجه صارماً.

قال الملك لجحا: «أتعلم لماذا طلبتك؟».

فقال جحا: «مولاي كريم رحيم وعليم بأني لم أكل منذ أيام، وأشفق عليّ، واستدعاني لأشاركه طعام الإفطار».

قال الملك: «لا شيء يهملك في الدنيا سوى بطنك، فمتى ستطور وتتحضر وتمدن؟».

فقال جحا: «الاهتمام بشؤون البطون لا بد منه لكل من يهتم بشؤون العقول. ومن يستطيع أن يفكر تفكيراً صائباً إذا كان بطنه خاوياً وجيوبه خاوية؟».

قال الملك: «لم أطلبك كي نتناقش حول شؤون البطون والجيوب بل طلبتك لأنني في الليل رأيت في نومي حُلماً غريباً أرزعجني وأحزنني.. رأيت أنني قد متّ، ولم يسر أي مخلوق في جنازتي».

فابتسم جحا، وقال: «لا داعي إلى أي اكتئاب، فهذا حلم عظيم يجدر بمولاي أن يسرّ به، وله تأويل واحد هو أن الناس أجمعين سيهلكون ويبقى مولاي حياً، ويبقى جحا أيضاً حياً كي يسلي مولاه ويخدمه باخلاص وتفان».

فقال الملك: «في هذا الصباح ترغب نفسي في النصيح وتتوق إليه، فأمرك يا جحا أن تنصحنني نصائح تنفعني في دنياي وآخرتي».

قال جحا: «الله أكبر! ما هذا التواضع النبيل؟! من يتمنى الناس بعض نصحه هو نفسه يطلب النصيح. ومن؟ من جاهل مثلي؟».

فقال الملك بغیظ: «ستعود إلى بيتك بلا رأس إذا لم تتكلم فوراً وتنصحنني».

قال جحا: «ليس لديّ الآن سوى نصائح حول الوزراء والوزارة».

فقال الملك: «وستكون نصائح جديدة بالإنصات لها لأن الوزير هو الجسر بيني وبين الناس».

قال جحا: «أول نصيحة هي: لا تعين الفقير وزيراً، فيسرق ليصير غنياً، ولا تعين الغني وزيراً، فيسطو وينهب ليزيد من ثرواته. وثاني نصيحة هي: اشترط على كل من

يسعى للوزارة أن رأسه سيقطع بعد ثلاثة أشهر من توليه الوزارة».

فقال الملك: «ولكن هذا الشرط سيجعل الجميع يهربون من الوزارة، وأصبح بغير وزير».

قال جحا: «فليطمئن مولاي. أنا نفسي موافق على أن أصبح وزيراً حتى ولو كان رأسي سيقطع بعد ثلاثة أيام لا بعد ثلاثة أشهر».

ولقد عين وزراء كثيرون من غير اعتراض على الشرط، ولكن الشرط طاله بعض التعديل، ولم يقطع سوى رؤوس منتقدي الوزراء.

■ ٣٩ - الملك العادل

أشار الملك بسبابته إلى حماره، وقال لمن جوله: «ما رأيكم في حماري؟».

فسارع وزراؤه وحراسه وأعوانه إلى امتداح الحمار والثناء العاطر على ما يتحلى به من صفات نادرة فريدة.

وتنبه الملك إلى أن جحا ظل ساكناً، فقال له: «ما رأي جحا في حماري؟».

قال جحا: «خير الكلام ما قلّ ودل، ورأيي باختصار هو أن حمار الملك ملك الحمير».

فسرّ الملك بجواب جحا، ولكن واحداً من أعوان الملك سارع إلى القول للملك بصوت خفيض: «ولكن جوابه تهرب خبيث من السؤال».

فتجهم وجه الملك، وقال لجحا: «إذا لم تقل رأيك في حماري بلا مراوغة قطعت رأسك بسيفي».

قال جحا: «حمار مولاي له عيب واحد فقط».

فقال الملك متسائلاً باستنكار: «وما هو ذلك العيب؟».

قال جحا: «عيبه أنه لا يتكلم كما تتكلم الناس».

ففكر الملك لحظات مقطب الجبين ثم قال لجحا: «كلامك لا يخلو من الصواب، ولا بد من تعليم حماري الكلام، وسأكلفك أنت بهذه المهمة، فأية مدة تحتاج إليها؟».

فقال جحا: «لا أحتاج إلا إلى ثلاثة أيام».

قال الملك: «إذا نجحت سأكلفك وأعينك وزيراً، وإذا أخفقت فسيكون عقابك عسيراً».

فقال جحا بثقة: «سأنجح وأصير وزيراً».

ومر اليوم الأول واليوم الثاني واليوم الثالث، وفي صباح اليوم الرابع، استدعى الملك جحا، فدخل جحا عليه وبرفته الحمار.

قال الملك لجحا: «انتهت اليوم المدة المحددة المتفق عليها، واليوم يوم الثواب أو العقاب».

فنهق جحا بينما تكلم الحمار بلسان فصيح قائلاً للملك: «هأنذا قد نجحت، وصار من حقي أن أعين وزيراً».

فضحك الملك ضحكاً طويلاً، معجباً بذكاء حماره

وفطنته، وأمر بتعيينه وزيراً. وعندما مات الملك حلّ محله، فكان أعدل ملك عرفته البلاد.

■ ٤٠ - آخر الحكايات

اشترى جحا خروفاً، واقتاده إلى بيته، وربطه بحبل إلى شجرة نارنج في باحة البيت، وجلس يدخن سيجارة وهو يتأمل الحروف بنظرات غامضة ملأى بالحبور، فصاح به الخروف: «ارحم نفسك وكفّ عن التدخين. ألا تعلم أن التدخين مؤذ للصحة؟ ألا تعلم أن ستين في المئة من المصابين بالسرطان هم من المدخنين؟».

فقال جحا بدهشة واستياء: «ما هذا الحظ السيء؟ اشتريت خروفاً لأذبحه وأتمتع بأكل لحمه وأشبع، فإذا بي قد اشتريت خبيراً في التوعية الصحية».

قال الخروف: «أنا في العادة أكره التدخل في الشؤون الشخصية للآخرين، ولكنني لم أحتمل رؤيتك تدخن بشراهة كأنك تنوي الانتحار».

قال جحا: «أنصحك بألا تنصح من سيذبحك غداً ويأكل لحمك».

قال الخروف: «إذا ذبحتني صرت قاتلاً مصيره المحاكمة والشنق».

قال جحا: «ومتى كان ذبح الخراف جريمة؟ هل تغيرت القوانين؟».

قال الخروف: «من يذبح اليوم خروفاً يهون عليه غداً أن

يذبح انساناً، ولا يفرق بين سفك دماء خروف وبين سفك دماء انسان».

قال جحا: «سأذبحك وأكل لحمك حتى ولو تكلمت أحسن من سقراط وابن سينا والفارابي».

قال الخروف: «إذا وعدتني بألا تذبحني جعلتك غنياً».

قال جحا: «ومتى صارت الخراف من أصحاب الملايين؟».

قال الخروف: «أنا لا أملك سوى لحمي وجلدي، ولكنني مُنحت قدرة خفية تتيح لي معرفة أماكن الكنوز المدفونة تحت الأرض، وإذا وعدت بألا تذبحني أرشدتك إلى كنز من تلك الكنوز».

قال جحا: «لعبتك ساذجة. ستجعلني آخذك من مكان إلى مكان وتغافلني وتهرب مني».

قال الخروف: «الكنز موجود هنا، ولا نحتاج إلى مغادرة البيت».

قال جحا: «وأين الكنز مدفون؟».

قال الخروف: «عدني أولاً بأنك لن تذبحني».

قال جحا: «أعاهدك بأني لن أذبحك إذا كان كلامك صحيحاً ووجدت الكنز».

فقال الخروف: «الكنز مدفون تحت قوائم».

فبادر جحا إلى احضار معول ورفش، وهرع في الحفر، وعثر على سبع جرار ملاءى بالذهب، فأغمي عليه من شدة

فرحه، وما جرى له في أثناء اغمائه كان حدثاً فريداً يليق به التنويه، فأكل العشب تحول آكل لحوم، والمأكول صار آكلاً، يتذمر من قساوة لحم المأكول، فليست كل اللحوم جديرة بالشاء، وقد علل الناس اختفاء جحا بأنه مسافر أو معتقل.

رجال
في الجنة

كنا خمسة شبان غادرنا حارتنا الشبيهة
بالجوارب العتيقة ناقمين عليها إذ ليس فيها
سوى زوجات مطيعات لأزواجهن ونساء عواذب
معروضات للزواج فقط، وقصدنا مقهى بعيداً عنها،
ويطل على شارع مكتظ بالناس والسيارات، وجلسنا فيه
نحتسي الشاي والقهوة وندخن السجائر ونثرثر:
«رأيت في الليل مناماً أكلت فيه زوجة جارنا وأكلت
ثيابها».

«هذا منام لا تفسير له سوى أنك ستتحرش بها،
فتضربك بحذائها حتى يسيل الدم من رأسك».
«لماذا لا نسافر إلى بلد غني ونصير أغنياء؟»
«ومن قال إن النقود في البلاد الغنية مرمية في الشوارع،
وليس للراغب فيها إلا أن ينحني ويجمعها ويضعها في
جيوبه؟».

«الشحاذ شحاذ ولو نام في أغنى بنك».

«هل صحيح أن النساء يعشقن الرجل الذي يضربهن كل ليلة؟».

«لا تنس أن الضرب أنواع، وليس نوعاً واحداً».

«ما الفرق بين الرجل والمرأة؟».

«المرأة تملك ما يريده الرجل».

«والرجل أيضاً يملك ما تريده المرأة».

وظللنا نثرثر حتى تعبنا ألسنتنا، فسكتنا، وراقبنا بفضول شاباً بديناً، قصير القامة، مرح الوجه، يحوص حول المقهى بخطوات بطيئة، وتبادلنا النظرات الخبيثة، وأشار إليه أحدهما بيده محيياً، فبادر الشاب البدين إلى دخول المقهى، وجلس معنا، فرحبنا به بحرارة.

سألنا: «أخسرتم نقودكم في القمار؟».

فأكدنا له أننا لا نقامر وخصوم للقمار.

سألنا: «أمات واحد من أقاربكم؟».

فضحكنا، وقلنا له إن الموت نسي حارتنا، ولا أحد من سكانها يموت.

سألنا: «هل اعتقل واحد من أصدقائكم؟».

فقلنا له إن أصدقاءنا جميعاً بخير، وينامون كل ليلة في بيوتهم، وعلى وساداتهم.

سألنا: «أطردتم من عملكم؟».

فقلنا له إن من يعمل جائع، ومن لا يعمل جائع.

فقال الشاب البدين: «حيرتوني. إذن ما بكم حزاني؟».

قلنا: «أنت سيد العارفين، ولا يخفى عليك ما ينقصنا». فضحك الشاب البدين، وقال: «لا تلامون، فالحياة بلا امرأة كالطعام بلا ملح».

وضرب براحته على صدره، وأضاف قائلاً: «لا تقلقلوا واطمئنوا. عندي ما ينقصكم. امرأة تجن».

فتعالت أصواتنا مثقلة باللهفة والرجاء تحته على أن يسارع إلى وصفها.

:- «سأصفها لكم، ولن أكذب لأنني لا أغش زبائني». «هيا تكلم واحك عنها».

:- «امرأة جميلة، ليست نحيفة وليست سمينة». «عمرها؟».

:- «عشرون سنة أو أقل».

«متزوجة؟».

:- «مرّ على زواجها شهران، ولا تزال جديدة». «وعيناها؟».

:- «سوداوان، والنظرة تذبذب ذبحاً». «شعرها؟».

:- «طويل أسود، ولكن لحمها أكثر بياضاً من القمر، وصوتها نار، يسمعه الرجل، فيصير ثوراً حين تقول: أخ». «الله أكبر! وهل ستدعنا نبوس فمها؟».

:- «ستبوسون فمها وذنبيها».

«متى ستحضرها؟».

..: «ألديكم بيت؟».

فهزنا رؤوسنا بالنفي، فقال لنا الشاب البدين: «كل مشكلة ولها حل، ولكن السعر سيزداد».

فسارعنا إلى امتداحه والتأكيد أنه خير من وجد الحلول لكل المشكلات، فقال لنا الشاب البدين: «هيا أيديكم إلى جيوبكم، وادفعوا لي مقدماً السعر الملائم، وستجدون أنفسكم مع المرأة بعد نصف ساعة».

فبادلنا النظرات الحيرى، وسألناه عما إذا كانت المرأة توافق على الدين لأن جيوبنا ليس فيها ما يكفي ثمناً لما شربنا من شاي وقهوة، فنهض الشاب البدين كأن عقرباً لسعته، وقال لنا هازئاً: «إذن نصيبكم من النساء في الجنة».

وراقبناه بغیظ وأسف وهو يغادر المقهى ويعود إلى تسكعه البطيء حول المقهى، ثم أحنينا رؤوسنا خجولين حزائي واجمين، ولا ندري أي زمن مرّ بنا، ولكننا عندما رفعنا رؤوسنا، فوجئنا بأن المقهى اختفى، ووجدنا أنفسنا عراة على ضفة نهر ينساب في أرض خضراء شاسعة، وتحيط بنا نساء جميلات عاريات يتزاحمن على الالتصاق بنا، فحمدنا الكريم الذي يرزق بغير حساب، وهجمنا على النساء هجمة العطشان على الماء، وهجمت النساء علينا كأنهن آكلات لحوم جائعات.

حمزة

كان حمزة رجلاً أفاق من نوم دام مئة سنة
توافقاً إلى ضوء الشمس وزرقة السماء
وضحكات النساء وضوضاء السيارات، فبادر إلى ترك
سريره، وغادر بيته، وسار في الشوارع بخطى متمهلة
ليباغت بأن الناس يمشون على الأرصفة بغير رؤوس، فهم
بأن يستوقف أحدهم ويسأله عن مصير رأسه، ولكنه تنبّه
إلى أن من لا يملك رأساً لا يتكلم ولا يسمع ولا يرى.

وسار حمزة من شارع إلى شارع، ولم ير سوى أناس
فاقدي الرؤوس، وتنهد بارتياح لحظة أبصر جنوداً مدججين
بالأسلحة يسيرون ضارين أسفلت الشوارع بأحذيتهم
الثقيلة بينما رؤوسهم تستقر بين أكتافهم سليمة صارمة
مزهوة.

وما إن لمح الجنود حمزة حتى حملقت عيونهم
استنكاراً، وانقضوا عليه، واقتادوه إلى مبنى غير بعيد،
وأدخلوه على رجل ذي رأس كبير.

قال الرجل ذو الرأس الكبير لحمزة بصوت موبخ:

«كيف تجرؤ على العصيان وتسير في الشوارع حاملاً رأسك؟».

فقال حمزة: «هذا كلام لم أسمع مثله من قبل، فمتى كان الرأس كالحذاء يخلع ويلبس؟».

فضحك الرجل ذو الرأس الكبير، وأمر بصوت مرح بقطع رأس حمزة. وهكذا فقد حمزة رأسه، ولكنه فاز بالطمأنينة والراحة.

- ٢ -

أفاق حمزة من نوم استمر ألف سنة مشتاقاً إلى زوجته، ولكنه ما إن عانقها وقبلها بنهم حتى تسرب إلى فمه طعم لحم فاسد، فأبعدها عنه بحركة فزعة، ودنا من النافذة المطلّة على شارع مزدحم بالناس والسيارات، ونظر منها، فإذا المطر يهطل غزيراً فوق أناس ما إن يمسه مآؤه حتى يتهاوون أرضاً ويتلاشون مخلقين على الأرض ثيابهم فارغة، مبتلة بالماء والطين.

ووجد حمزة نفسه ينأى عن النافذة، ويعود إلى سريره ليستلقي عليه راغباً في نوم جديد، ويحاول أن يتخيل أغصانا خضراً مزهوة، فيخفق، وتقول عينه اليمنى: «الأطفال يذبحون معلمتهم».

وتقول عينه اليسرى: «المعلمة تذبح تلامذتها وهي تضحك».

وتقول يدها: «لا تعاتب المشنوق إذا لم يلب الاستغاثه».

ويقول أنفه: «لا داعي إلى انتظار الربيع لأنه مسجون
بتهمة مجهولة».

وتقول قدماءه: «كيف نسير على الماء؟».

وتقول أذنه اليمنى: «ليتني كنت صماء!».

وتقول أذنه اليسرى: «ليتني كنت صماء!».

ويهمس قلبه مخاطباً امرأة بعيدة: «آخ يا وردي الميت
ويا شمسي وقمري!». ويفتحهم غرفة حمزة جنود مسلحون
لم يضحكوا منذ أن ولدوا، ويعتقلون اليدين والعينين
والقدمين والأذنين والأنف والفم تاركين القلب لحفار قبور
كان يرفقتهم.

ولم يدفن حفار القبور القلب إنما باعه لأحد الجزارين،
وابتعد عن مكانه مغتاضاً متذمراً، فالثمن الذي ناله كان
بخساً على الرغم من أن المساومة استمرت وقتاً طويلاً.

- ٣ -

أفاق حمزة من نومه ليسمع القابلة تقول لأمه:
«أبشرك.. رزقت بصبي».

نداء نوع

زكريا تامر قصاص تفيض أقاصيصه بطاقة شعرية كثيفة لم تعرفها الأقصوصة العربية من قبل، ويتميز عالمه بالجدّة والأصالة والتفرد لأنه أثر منذ وقت مبكر أن يسبح ضد التيار وحده، وأن يغامر بجوب الأصقاع الجهولة في محاولة لاقتناص ذلك الصوت الذي لم يعثر عليه في قراءاته. وما إن قطع شوطاً طويلاً في هذا الطريق اخفوف بالمرالق حتى أبصر جيلاً بأكمله يحث الخطى خلف خطوه العنيد، ويفترق من كشوفه وانجازاته الفنية والمضمونية، ويساهم في توسيع الرقعة التي استشرفتها أعماله الجديدة، فقد كانت أعمال زكريا تامر هي البداية الحقيقية للصوت الجديد وللرؤى الجديدة التي أطلت على أفق الأقصوصة العربية معه، ثم اتسعت رقعتها على أيدي جيل الستينات في مصر والعراق من بعده لأنه استطاع - بعد منتصف الخمسينات بقليل - أن يتلمس إطلاقات الحساسية الجديدة أو بالأحرى الحساسية الممزقة، وهي تتخلق تحت قشرة الحساسية القديمة السائدة، وأن يستوعب ملامح هذه الحساسية الوليدة في وعاء فني يتواءم معها وينطوي في الوقت نفسه على تمزقاتها التي تعبر عن مرحلة تاريخية وحضارية من حياة أمتنا العربية.

صبري حافظ